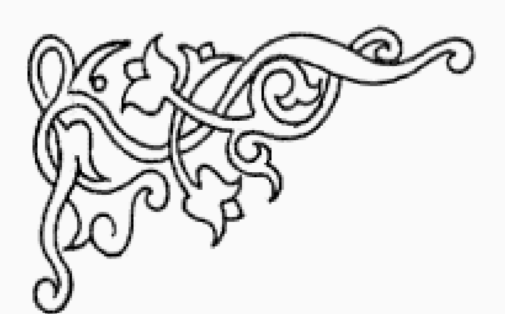
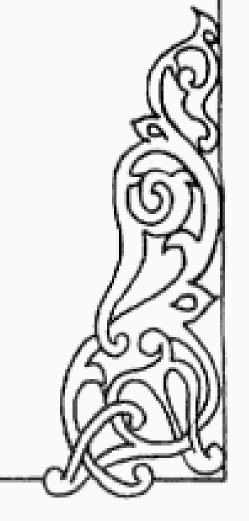


الإسلام والحضارة الإنسانية

ومقالات أخرى

عباس محمود العقاد





العـنـوان: الإسلام والحضارة الإنسانية .

المؤلـف: عباس محمود العقاد .

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشر: الطبعة الثانية يناير 2006م .

رقم الإيداع: 2005/ 21815

الترقيم الدولي: ISBN 977-14-3331-8

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864 (02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع:80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)
البريد الإلكتروني للمطابع: press@nahdetmisr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة - ص . ب : 96 الفجالة - القاهرة.
ت : 5909827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: sales @nahdetmisr.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق الحرية (رشدى)
ت: 5462090 (03)

مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام عارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



مقدمة الكتاب

لئن كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - أكبر من حملوا لواء الدفاع عن الإسلام فى عصره ، فإنَّ المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد يُعتبر بحق فى طليعة المنافحين عن الإسلام فى هذا الجيل .

ونظرة شاملة إلى إنتاجه الأدبى ، الواسع الأفق ، المتعدّد النواحى والأغراض ، تريك مدى اهتمامه بالشئون الإسلامية . فمن تحليل لنفسيات عباقرة الإسلام ، وتبيان لمآثرهم الخالدة ، إلى جلاء لوقائع التاريخ الإسلامى ، إلى تصحيح وتصويب ، وأحيانًا تأييد وتثبيت لِما كتبه الغربيون عامةً ، والمستشرقون خاصةً ، عن الإسلام ونبيّه ، وتناولوا فيه مختلف القضايا والمبادئ الإسلامية .

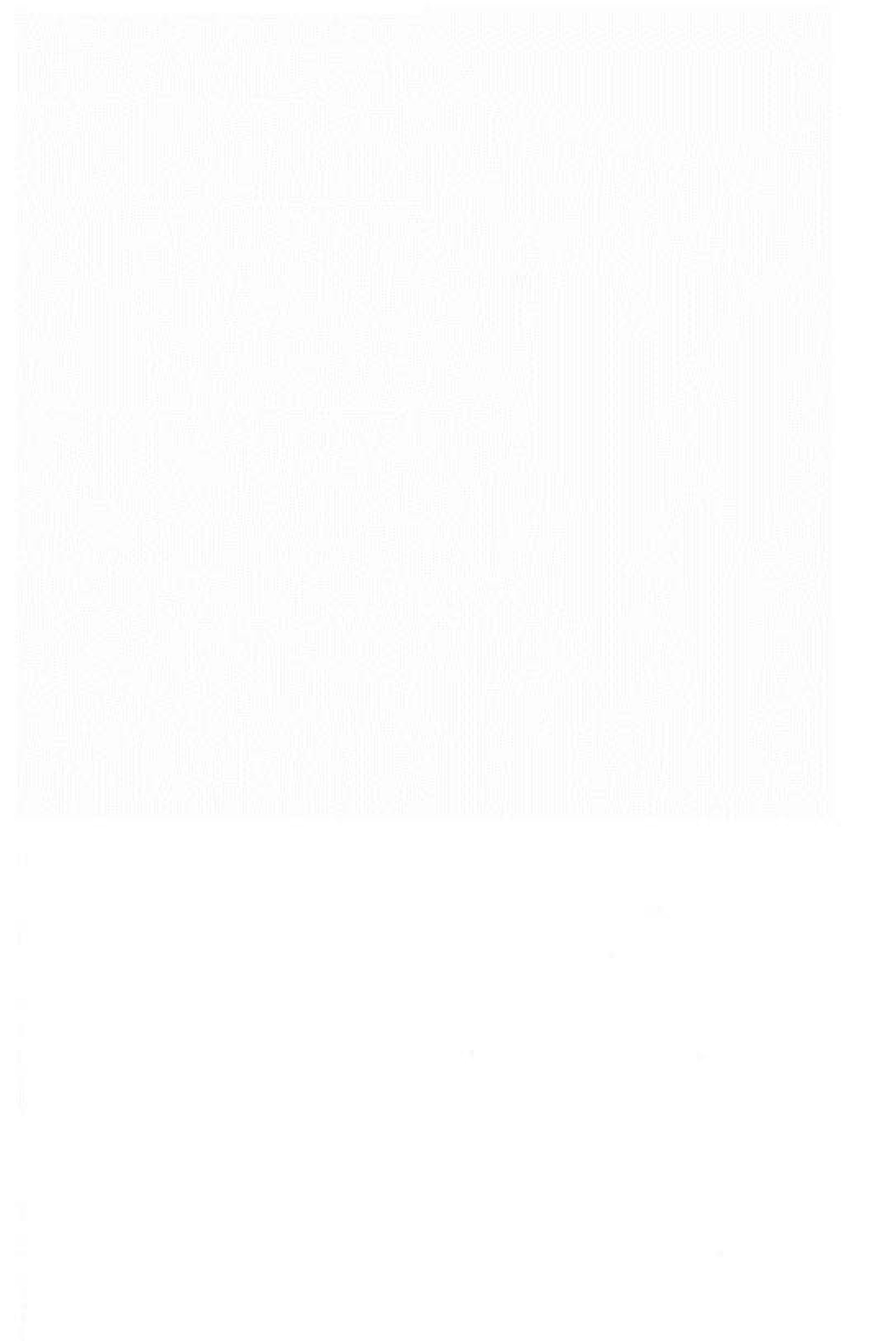
وهذا الكتاب ثمرة من ثمرات إنتاجه الأدبى الإسلامى ، يجمع بعض ما تناثر من مقالاته فى بطون الصحف والمجلات . وفيه يبرز العقاد منافحًا مكافحًا فى ثلاث جبهات :

جبهة الغرب حيث يقف بالمرصاد لكل ما تخرجه المطابع من كتب تتحدث عن الإسلام وتاريخه وحضارته ، فيردّ الشارد ، ويعرّى ذوى النوايا السيئةً ، والأغراض الخفية ، غير مقصّر عن الثناء على إرباب النزاهة وروّاد الحقيقية .

وجبهة الجدال والمنطق والبحث العلمى الدقيق حيث يرشد الضال ويهدى المتجافى عن الحق ، ويقوّم غير المستقيم فى نظرته إلى الإسلام وحضارته .

وجبهة المتردّدين الشاكين ، والمنكرين لمزايا الروح حيث يقلب الشكَّ إلى يقين ، والتردد إلى قرار .

ولنا ملء الثقة فى أن يجد فيه القرّاء بعامة ، والمهتمون بالشئون الإسلامية بخاصة ما ترتاح إليه نفوسهم ، وتطمئنَ به ضمائرهم .



مَوْلد الفلسَفة الإسلامية(١)

«لَتَتَّبِعُن سَنَن الذين من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى لو دخلوا فى جحر ضب لاتبعتموهم» . .

حديث شريف

صدق الرسول الكريم .

فإن تاريخ المذاهب والفرق فى الإسلام قريب الشبه بتاريخها فى المسيحية ، وقريب الشبه بتاريخها قبل ذلك فى الإسرائيلية ، بل هو قريب الشبه بتاريخ كل عقيدة دينية انتقلت من دور الإيمان إلى دور الشرح والتفسير أو دور التوفيق بين النصوص وما يستلزمه العقل من معانى النصوص ، لا فرق فى هذا التطور بين دين ودين إلا من حيث السرعة أو تراخى الزمن قبل ظهور الأطوار المتعاقبة ، فهى فى الإسلام أسرع ، وهى فى المسيحية أقل من ذلك سرعة ، وهى فى اليهودية أبطأ من كلتا الديانتين الكتابيتين ، لأسباب معقولة تقتضى ذلك التفاوت فى سرعة الانتقال من دور الإيمان إلى دور الشرح والتفسير .

فالتأويلات الفلسفية لم تظهر فى الديانة اليهودية قبل «فيلو» الإسكندرى المعاصر للسيد المسيح ، أما الخلاف على نصوص التوراة بين السامريين وغيرهم فقد ظهر فى أواخر القرن الخامس قبل الميلاد ، ثم انقضت تسعة قرون بعد الميلاد حتى اتسعت فجوة الخلاف بين القرائين والربانيين ، أى القائلين بالتزام الحرف وهم القراءون ، والقائلين بجواز التفسير وهم الربانيون ، وكان الخلاف بينهم فى مسائل العقيدة الكبرى مناسبًا لكل خلاف بين المتشددين والمتجاوزين فكان القراءون يقولون بالجبر ، والربانيون يقولون بالاختيار ، ويقاس على ذلك كل ما بين الفريقين من وجوه الخلاف .

ولم يكن «فيلو» من الفلاسفة المنقطعين للفلسفة أو المتفرغين للمنطق والعلوم العقلية ، بل كان يمزج بين الدين والفلسفة ، ويزعم أن الفلسفة كلها مأخوذة من

---

(١) مجلة الكتاب أكتوبر ١٩٤٦ .

نصوص التوراة ، ولكنه يجتهد فى تأويل تلك النصوص بحيث تتسع للمعانى الفلسفية التى تعلمها واطمأن إليها بعقله ، ويجعل الكلمات رموزًا وإشارات إلى القضايا المنطقية والمعانى المجردة ، فهو مؤمن بالتوراة ومؤمن بالمنطق الذى تستلزمه المدارك الإنسانية ، ولا محيص له بين الإيمانين من تحويل الكلمات إلى رموز وإشارات ، لئلا يكفر بالعقل أو يكفر بالدين .

وقد نظر «فيلو» إلى الأوصاف الحسية التى وصف بها الإله فى كتب التوراة فلم يقبلها على ظاهرها ولم يستطع أن يرفضها لاطمئنانه الموروث إلى دين آبائه وأجداده ، فقال : إنها رموز ومجازات تقرب المعانى إلى الذين يفهمون بالحس ولا يدركون المعانى المجردة بالرياضة والتفكير ، وانفتح له باب التأويل ، فذهب فى التجريد إلى أبعد مداه ، وأنكر الصفات الإلهية ؛ لأن الصفة حد والله منزه عن الحدود ، بل نزه الله عن التأثير فى مادة الكون ، لأن المعنى الإلهى أشرف من جميع الأجساد المادية ، فاذا أثر فيها فإنما يكون هذا التأثير بالواسطة التى يودعها الله فى بعض القوى الإلهية ، واحتال على تأويل الصفات بأنها نفى للنقص الذى لا يتصوره العقل فى حق الخالق العظيم ، فهو قادر لأنه ليس بعاجز ، وعالم لأنه ليس بجاهل ، وغنى بنفسه ، لأنه ليس بمفتقر إلى أحد ، وهو فى قدرته وعلمه وغناه مقام فوق كل مقام يتخيله العقل من صفات الإنسان ، وكل ما يستطيعه العقل الإنسانى من القربى إلى الله أن يدركه بالرياضة ثم يدركه بالعلم ثم لا يغنيه كلاهما عن الإلهام الذى يختص به سبحانه وتعالى من يشاء من عباده الخُلّص المقربين .

* * *

وكان أوريجين Origenes أكبر المجتهدين السابقين من أصحاب القول بالتفسير والتأويل فى الديانة المسيحية ، ولم تظهر دعوته مع ذلك قبل القرن الثالث للميلاد .

شغل أوريجين كما شغل فيلو بمسألة النصوص والتوفيق بينهما وبين المعقولات ، ومن عجيب الأمر أن هذا المجتهد الجرىء على النصوص قد بلغ من الإيمان بالنص الحرفى فى كلمة من الإنجيل مبلغًا لم يبلغه قبله ولا بعده أشد المؤمنين بالنصوص الحرفية فى دين من الأديان ، فخصى نفسه لأنه قرأ فى إنجيل متى أنه «يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السماوات ، من استطاع أن يتبتل فليفعل» .

ومن ثم يرى أن أوريجين لم يكن من الفلاسفة المنقطعين للفلسفة ، بل كان من المؤمنين المتبتلين الغلاة فى النسك والعبادة ، ولكنه تعلم الفلسفة وأدرك البداءة العقلية فاضطره فرط الإيمان إلى التوفيق بينها وبين نصوص الكتب الدينية ، ولاسيما النصوص التى تشير إلى بنوة السيد المسيح ودلالة الثالوث والتوحيد . فقال : إن البنوة كناية عن القربى ، وفهم معنى الكلمة التى كانت فى البدء فهم الرجل الذى اطلع على مذهب هيرقليطس ومذهب أفلاطون ، لأن الأول يقول : إن الدنيا تتغير أبدا فليس لها وجود حقيقى وراء هذه الظواهر غير وجود الكلمة المجردة أو العقل المجرد الذى لا ينقطع عن تدبيرها ، ولأن أفلاطون يقول بسبق الصور المعقولة على الأجسام المحسوسة ، فجاء أوريجين بعدهما ليقول : إن السيد المسيح هو مظهر العقل الخالد تجسم بالناسوت ، وإن ظهوره فى الدنيا حادث طبيعى من الحوادث التى يتجلى بها الإله فى خلقه ، واجتهد فى تأويل النصوص ، فجعل للكتب الدينية تفسيرين : أحدهما صوفى للخاصة ، والآخر حرفى لسائر الناس ، وبشر بخلاص خلق الله جميعًا فى نهاية الأمر حتى الشياطين ، ولم يكن ينكر الشياطين أو ينكر قدرة السحرة على تسخيرها فى الإضرار بالناس ، ولكنه - من عجب التناقض فى الطبع الإنسانى - كان يرى أن الأسماء العبرية دون غيرها هى الأسماء التى تجدى فى الاستدعاء والتسخير ، وينسى أنه جعل للأسماء والحروف هنا سلطانا على الكون يقصر عنه سلطان المعانى والمسميات .

وخلف أوريجين تلميذان قويان ، هما آريوس فى الإسكندرية ، ونسطور فى سورية ، فمضيا فى التأويل والتوفيق بين النصوص والمعانى ، ولكنهما اختلفا بينهما أشد الاختلاف يخلقه اللدد والشحناء ، وتراميا كما ترامى أتباعهما زمنًا بتهمة الكفر والجحود ، لأن آريوس كان يقول بأن المسيح إنسان حادث ، ونسطور كان يؤمن بالطبيعة الإلهية فى المسيح ويأبى التسوية بينه وبين الله فى الدرجة والقدم ، ودخلت العوامل السياسية فى هذا الخلاف فدفعت به إلى أقصى مداه .

وهذه كلها كما رأينا مذاهب فى الدين تصطبغ بالصبغة الفكرية ، ويمتزج فيها الإيمان بالتفكير . أما مذاهب الفلسفة المسيحية التى تصدى لها المفكرون من غير رجال الدين فلم تظهر فى العالم المسيحى قبل انقضاء عدة قرون ، وتأخر ظهورها إلى ما بعد ظهور الفلسفة الإسلامية فى أوروبا الغربية .

❋ ❋ ❋

على أن الفِرَق والمذاهب لم يتراخ بها الزمن فى الإسلام كما تراخى بها فى اليهودية والمسيحية ، ولم ينقض جيل النبى نفسه حتى ظهرت مسألة النص والتفسير ولحقت بها المسائل التى اقترنت بها فى كل عقيدة دينية ، كمسألة القضاء والقدر ، ومسألة الظاهر والباطن ، ومسألة الصفات الإلهية ، وما ينبغى للروح من الصفات بمعزل عن عالم المادة أو عالم الأجساد .

ويتوقف فهم الحقائق فى هذه الحركة كلها على فهم البواعث التى أوجبت السرعة هنا وسمحت بالإبطاء والإرجاء هناك .

فاليهودية عند نشأتها لم تنهض لها ضرورة قاضية بالتعجل فى التفسير والتأويل ، لأن اليهودية نفسها كانت بمثابة فلسفة تجريدية بالقياس إلى العقائد الوثنية والأديان المجسمة التى نشأت بينها ، إذ كانت تدعو إلى التوحيد وعبادة الإله المجرد فى السماء بين أناس يعبدون الأوثان ويجسمون الأرباب .

وكان أنبياء اليهود يتلاحقون واحدا بعد واحد ، فيشغل النبى الأمة بأقواله عن تفسير أقوال الذين سبقوه إلى استنزال الوحى من الله .

وينبغى أن نذكر هنا أن الدينين الكتابيين العظيمين اللذين ظهرا بعد اليهودية إنما كانا تعديلين فى نصوص الدين اليهودى ومعانيه ، فهما خليقان أن يشغلا كل فراغ كان متسعًا لتفسير النصوص ومحاولة التوفيق بين المنقول والمعقول .

وقد تلاحقت الهجرة والتشتيت على الأمة اليهودية منذ أيامها الأولى ، وأصابتها المحن من ذوى قرباها ، ونزل بها الحيف من الدول القوية المسلطة عليها ، فاشتدت فى نفوسها العصبية القوية ، ونفرت كل النفور من البدع الأجنبية ، وتحصنت دونها بحصن منيع من العزلة الروحية والفكرية ، فأحجمت عن الفلسفة التى تطرقت إليها من جانب الإغريق وجانب المشارقة الفارسيين والهنديين ، ولم تكن هذه الفلسفة على هذا قد تكاملت فى بلاد الإغريق أو تفرقت منها بين الأقطار الشرقية ، لأنها لبثت فى دور التكون والتكامل والتعليق والتذييل إلى ما بعد ميلاد المسيح .

أما المسيحية فقد تأخر تدوين كتبها إلى أواخر القرن الثانى للميلاد ، وكان معظم هذه الكتب مسطورًا باللغة الإغريقية ، فلا يطلع عليها سواد المسيحيين . وقد كانت جمهرة المسيحيين فى أوائل الأمر من عامة الناس الذين يقنعون بالإيمان اليسير ، ولا

يتعمقون فى النصوص ولا فى التأويلات ، فلما أمن المتعلمون بالدين الجديد ، كان اختلافهم مقصورًا على بيئات الدرس والثقافة ، إلى أن قام فى العالم المسيحى ملوك يجلسون على العروش ، فخرج الخلاف المدرسى إلى معترك السياسة الزبون ، ونجمت الفرق والمذاهب ، وهى فى أحضان الدولة تعتمد على بأس الملوك والأمراء من أحد الطرفين أو من كلا الطرفين ، أو من جميع الأطراف فى بعض الأحوال .

أما الإسلام فقد كان الاستعداد فيه لظهور الفرق والمذاهب على غير ما رأينا فى اليهودية والمسيحية من جميع الوجوه . كانت الأسباب مهيأة لظهورها منذ الجيل الأول سواء من جانب الفلسفة أو من جانب المشكلات اللاهوتية التى شغلت عقول الباحثين بين اليهود والمسيحيين .

كان الإسلام خلوا من الكهانة التى تستأثر بالدرس والتأويل ، وكان القرآن صريحًا فى الأمر المتكرر بالنظر والتفكير ، وكان القرآن كتابًا محفوظًا فى حياة النبي ﷺ ، فلم يطل العهد بالمسلمين فى انتظار التدوين والاتفاق على نصوص الكتاب . وكان المسلمون يؤمنون بأن محمدا ﷺ خاتم النبيين ، فلا ينتظرون نبيًا آخر يتم الرسالة أو يغنيهم عن الاجتهاد فى معانى الكتاب أو معانى الأحاديث النبوية .

ولم يجهر محمد ﷺ بالدعوة الإسلامية حتى كانت مشكلات المذاهب المتقدمة قد ملأت آفاق الشرق العربى ، وانعقدت عليها الأقوال من طوائف المختلفين هنا وهناك ، وتسرب الكثير منها إلى الجزيرة العربية قبل الدعوة الإسلامية ، سواء منها أقوال الفلاسفة وأقوال رجال الدين من جميع النحل والأجناس ، وأشار القرآن الكريم إلى الخلاف بين الأديان المتعددة ، فجاء فيه من سورة الحج : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شىء شهيد﴾ . وأشار إلى الدهريين ، فجاء فيه من سورة الأنعام : ﴿وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ ، وجاء فيه من سورة الجاثية : ﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾ . بل أشار فى سورة آل عمران إلى تأويل المتشابه من الكتاب ، فقال : ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله﴾ .

وكان بعض المسلمين يسمعون بالتوراة ، ولم يطلعوا عليها ، ولكنهم سمعوا أنها أنبأت بظهور النبى وبغير ذلك من أحداث آخر الزمان ، وأن الأحبار يخفون هذه النبوءات إمعانًا منهم فى الكفر والضلالة وحب الرئاسة فى الدنيا ، وقال لهم كعب الأحبار : «ما من الأرض شبر إلا مكتوب فى التوراة التى أنزل الله على موسى ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة» .

وفهم المسلمون أن هذه الأسرار لا يعقل أن تودع فى التوراة ، ولا تودع فى القرآن ، لأن الله لم يفرط فى الكتاب من شىء ، وإنما تبذل هذه الأسرار لأهلها ، وإنما سبيلهم فى معرفتنا أن يتوسلوا بالتقوى ، ويستعينوا بمن سبقهم من أحبار الأمم الأولى ، ويستدرجوهم بالمحاسنة والنصيحة إلى الكشف عنها ، فلم يكن لطلاب المعرفة بد من الدخول فى معترك الفرق الدينية بين من يزعم أنه على الحق ومن يقال إنه على الضلال .

ولما انتشر الإسلام كان انتشاره فى الرقعة التى جمعت كل هذه الفرق والمذاهب وشهدت بينها مجالس المناظرة ومصارع النزاع والقتال ، وكانت الفلسفة الإغريقية قد بلغت أوجها فى آسيا الغربية ، ومدرسة الإسكندرية ، وترددت أقاويلها ومناقضاتها ما بين مصر وسورية والعراق وأطراف البلاد الفارسية ، حيث يتصدى للتعليم أطباء النساطرة ومعهم كتب الإغريق فى الحكمة والتصوف والمنطق والجدل وأشباه هذه الموضوعات ، فلم يبق سبب من الأسباب التى تنشئ الفرق والمذاهب إلا وقد تهيأ للظهور من جميع نواحيه عند قيام الإسلام .

على أن السبب الذى طوى كل هذه الأسباب جميعًا هو قيام الدولة مع قيام الدين الإسلامى فى وقت واحد ، وهو ما لم يحدث فى بنى إسرائيل ولا فى عالم المسيحية ، وعليه تدور الخلافات بين الفرق جميعًا من قريب أو بعيد .

فالنزاع على الدولة بين على ومعاوية مرتبط بنشوء الخوارج ونشوء الشيعة ، ومرتبط كذلك بنشوء القدرية والمرجئة ، والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح ، ومذهب أهل الحقيقة أهل الشريعة ، وما استتبعه من فرق الباطنية وأصحاب الرموز والأسرار ، على تفاوت نصيبهم من الحكمة الدينية ، أو الحكمة الفلسفية .

ويستطاع رد الخلاف هنا إلى محور واحد ، وهو الخلاف بين أنصار الواقع وأنصار التغيير ، أو بين أنصار المحافظة وأنصار التجديد حيث كان .

روى عن يزيد بن معاوية وقد حمل إليه رأس الحسين أنه سأل من حوله وهو يشير إلى الرأس الشريف : «أتدرون من أين أتى هذا؟ إنه قال : أبى على خير من أبيه ، وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر . فأما أبوه فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما أمه فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما جده فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا نداً ، ولكنه أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : «قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . . .» .

فمن خدمه الواقع هذه الخدمة الجلى لا جرم يؤمن بأن «الواقع» هو قدر الله وقضاؤه الذى يدان به العباد .

ومن خالفه فى ذلك لا جرم يعتصم بالرأى والتفسير ليفهم القدر الإلهى على الوجه الذى ينهض به دليله ويسقط به دليل خصمه .

ومن ثم تنفرج الطريق بين طلاب الواقع وطلاب التغيير فى كل مجال .

فطلاب الواقع يقولون بطاعة السلطان القائم ، وطلاب التغيير بقولون بطاعة الإمام المستتر ، ويقولون بعلم الظاهر وعلم الباطن ، أو بعلم الحقيقة وعلم الشريعة ، أو بالفرق بين الكلام الواضح الذى يفهمه الدهماء والكلام الخفى الذى يفطن له ذوو البصر والاطلاع .

يروى عن الامام الباقر أنه قال : «إن اسم الله الأعظم ثلاثة وسبعون حرفًا يعرف منها سليمان حرفًا واحدًا تكلم به فأتى إليه بعرش مملكة . ونحن عندنا منها اثنان وسبعون حرفًا ، وحرف عند الله استأثر به فى عالم الغيب وحده» .

ويدور على هذا المحور من جانب آخر خلاف القائلين بإسلام بنى أمية والقائلين بتكفيرهم والقائلين بإرجاء الحكم عليهم إلى يوم القيامة ، وهم أصحاب الفرقة التى اشتهرت باسم المرجئة من أوائل فرق الإسلام .

ويغلو من هنا فريق كالخوارج فيكفرون عليًا ومن والاه ، ومن هنا فريق كالسبائية فيؤلهون عليًا وينكرون القول بموته ، وإنما شبه للناس فقتل ابن ملجم شيطانًا تصور بصورته وصعد علىٌّ إلى السحاب ، فالرعد صوته ، والبرق سوطه ، وموعده يوم يرجع فيه إلى الأرض فيملؤها عدلاً ويقضى على الظالمين . أو يقولون كما يقول البنانية أتباع بنان بن سمعان : إن روح الله حلّت فى علىٍّ

ثم فى ابنه محمد بن الحنفية ثم فى ابنه أبى هاشم ثم فى بنان ، أو يقولون بتناسخ الأرواح من آدم إلى علىٍّ وأولاده الثلاثة ، أو يقولون كما قالت الزرامية أن الله قد حل فى إمام بعد إمام إلى أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة العباسية ، وإنه لم يقتل ولا يجوز عليه الموت وفيه روح الله .

ويكثر الكلام بين هذه الفروض والظنون على ماهية الروح وماهية الحقيقة الإلهية وما ينبغى لله جل وعلا من التنزيه وما يمتنع فى حقه من التجسيم والتشبيه ، وتمتزج النوازع الذهنية بنوازع المصلحة والسياسة والعواطف المكبوتة ، فيستمد كل منها عونًا من الآخر على الإقناع واستجلاب الأنصار والأشياع .

ومن البديه أن دعاة التغيير يتقون جهدهم سلطان الواقع حيث هو قائم عزيز الجانب مبثوث العيون ، فابتعدوا من دمشق الشام واتخذوا لهم ملاذًا مأمونًا عند أطراف الدولة الشرقية فيما وراء النهر خاصة ، كما كانت تسمى فى تلك الأيام .

هنالك لم يكن أحد من المتعلمين يشتغل بالأمور العامة دون أن يعرض له البحث فى الشريعة والحقيقة ، والظاهر والباطن ، وأقوال المختلفين على القضاء والقدر وعلى صفات الله وحرية الإنسان وماهية النفوس والأرواح ، وما يصح أن يفرض عليها من العقاب أو تجزى به من الثواب ، وكل أولئك هو موضوع الفلسفة الأصيل ، وقد تسرب إلى خراسان من مراكز الدولة الإسلامية ومن تراث الأمم الخالية ، ثم أعانه جوار الهند بمورد آخر من موارد الحكمة والعلم التى لا تزال مشغولة بأشباه هذه البحوث .

ولما ذهبت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية لم تتبدل الحال فى تلك الأرجاء ، لأن العلويين والعباسيين على السواء خبراء بالمذاهب والتفسيرات وكلهم من أنصار النظر والاستدلال . وقد قامت الدعوة فى الشرق باسم آل النبى ، قبل أن تقوم صريحة باسم بنى العباس ، ثم زيد على الأطراف التى تتطلع إلى التغيير طرف آخر فى أفريقيا الغربية بعد قيام الدولة العباسية فقامت هنالك دعوة الفاطميين ، وعرفت سبيلها إلى أقصى المشرق حيث كان الناس يؤثرون العلويين على العباسيين ، ولاسيما بعد تشريد أبناء على وحرمانهم واضطهادهم فى أيام بنى العباس .

فأصبحت الأطراف الشرقية وكرًا يسمع فيه كل صوت من أصوات البحث والنظر والاستدلال .

❊ ❊ ❊

المسلمون والمؤتمر الإسلامي[1]

أمام الإسلام اليوم مطلبان ضروريان لا يحتملان التسويف والتهاون ، وهما «حماية الذات» أمام المطامع الأجنبية ، والتعاون على تحصيل وسائل التقدم والارتقاء .

وربما كان المطلب الثانى فرعًا من المطلب الأول ؛ لأن الأمة التى تهمل وسائل التقدم والارتقاء فى العصر الحاضر تحتاج إلى حماية ذاتها ولا تجد وسيلة الحماية .

أما المطامع الأجنبية التى تواجه الشعوب الإسلامية فهى درجات فى القوة وفى الخطر .

فمنها ما هو مقصور على السيادة السياسية وما يتصل بها من السيطرة على موارد البلاد ومرافقها الزراعية والصناعية والتجارية ، وسائر هذه المرافق الاقتصادية على الإجمال .

ومنها ما يتجاوز السيادة السياسية وتوابعها إلى السيطرة على العقائد والأخلاق والعادات والنظم الاجتماعية وهو شر ضروب الاستعمار كافة .

ومنها ما يصيب جالية أو جاليات متنقلة إلى بلاد أخرى ، ولا تتعرض له الأمة برمتها فى داخل بلادها .

وكل هذه الأخطار تحتاج إلى التعاون بين الأمم الإسلامية ، وقد يكون التعاون فيها لازمًا مع شعوب غير إسلامية ولكنها معرضة لمطامع الدول الواقعة فى طريق المستعمرين السياسيين وغير السياسيين .

والأمم الإسلامية فيها «شبه حصانة» أمام السيطرة الأجنبية بأنواعها ، سواء منها ما كان مقصورًا على السيادة السياسية أو ما كان عامًا شاملاً للعقائد والأخلاق والعادات والنظم الاجتماعية .

---

(١) الهلال .

كتب جون جنتر John Gunthes كتابًا عن «داخل أفريقية» على مثال كتبه عن داخل أوربة وداخل آسيا وداخل أمريكا اللاتينية وداخل الولايات المتحدة ، وتكلم عن أفريقية الاستوائية التابعة لفرنسا فقال : إن شعوبها لا تطلب الآن على الأقل أن تنفصل من فرنسا بل لعلها تتطلب زيادة الاتصال بها لأنها معدودة من الفرنسيين ولها حقوق انتخابية تخولها أن ترسل المندوبين عنها إلى برلمان باريس ، ثم قال : إن هذه الشعوب تخالف الشعوب الأفريقية فى الشمال لأن هذه تطلب الانفصال ولا ترضى بالاندماج فى بنية الشعب الفرنسى ، ولا بالسياسة التى سماها تدريب الأفريقيين على أن «يصبحوا فرنسيين!»

ما الفارق بين الشعوب الاستوائية والشعوب الأفريقية التى تقيم على شواطئ البحر الأبيض المتوسط أو على مقربة منها؟

الفارق هو الحضارة الإسلامية العريقة . فهذه الحضارة قد حفظت لكل أمة تحضرت بها «كيانًا» قويًا لا يسهل هضمه وإدماجه فى كيان آخر أجنبى عنه ، وهذا الكيان القوى هو الذى وقف فى وجه الاستعمار حيث كان واستفاد منه المسلمون وغير المسلمين ، لأن الاستعمار خطر على الأمم الشرقية جميعًا من كل نحلة وبغير فارق بين الأديان والأجناس .

وهذه المقاومة القوية هى التى يسميها المستعمرون جمودًا من المسلمين فى وجه التقدم والارتقاء ، وليست هى فى الواقع جمودًا من هذا القبيل ، ولكنها محافظة على «الكيان القومى» يحميه أن يقع فريسة سهلة بين براثن المستعمرين ، ويستفيد منه ضحايا الاستعمار فى مختلف الأقوام والأديان .

ولكن الاستعمار السياسى على خطره لا يصيب الأمم فى مقاتلها كما يصيبها الاستعمار الذى يشمل العقائد والأخلاق والعادات والنظم الاجتماعية ، فإن هذا الاستعمار يصيب الأمة فى كيانها الصميم ولا يبقى لها بعد ذلك «شخصية» تذود بها خطرًا يهددها فى حاضرها أو مستقبلها .

* * *

والأمم الإسلامية أشد الأمم تعرضًا لعداوة هذا الاستعمار الذى يعادى جميع الأديان فى الواقع ولكنه يعادى الدين الإسلامى بصفة خاصة ؛ لأنه نظام اجتماعى وآداب معيشية فى وقت واحد ، وله مبادئ فكرية كالمبادئ التى يسمونها

فى العصر الحاضر بالأيديولوچى Ideology تقوم عليها الآداب والعلاقات كما تقوم عليها عقائد الدين ووجهات النظر إلى أصول الحياة .

لهذا كانت كراهة الاستعمار الشيوعى للأمم الإسلامية كراهة مضاعفة ؛ لأنه يجد فيها عقبات في وجه السيادة الأجنبية وعقبات أخرى فى وجه العقائد والآداب التى يفرضها عليها مخالفة للدين ، ويحاول أن يلغى مبادئها الفكرية والخلقية بمبادئ أخرى تناقضها وتهدمها ولا تبقى بقية منها صالحة لمقاومة أو متشبثة بكيان .

وهناك ضروب من الاضطهاد يلقاها المسلمون جاليات متفرقة فى البلاد الأخرى ، كالجالية الآسيوية الإسلامية التى يزيد عددها على سبعين ألفًا فى أفريقية الجنوبية ، وتحرم حقوق الانتخاب باسم الفوارق العنصرية التى لا تلاحظ فى معاملة اليهود ، وهم أصل الفوارق العنصرية التى ابتدعت من أجلها كلمة Anti-semitism «عداوة الساميين» .

وصف روبرت جون هذه الجالية فى كتابه «خلال أفريقية مالان» يعنى «مالان» رئيس الوزراء السابق ، فقال : إنهم على فقرهم غاية فى الأمانة وأنه زار مسجدًا من مساجدهم فسقطت منه ورقة وهو يلبس حذاءه ، ومضى فى طريقه مسافة غير قصيرة ، وإذا ببنت صغيرة تعدو وراءه لتعيد إليه الورقة التى لم يلتفت إليها .

وعلى هذا الفارق فى الأخلاق تحسب على القوم فوارق اللون أو العقيدة ولا يسمح لهم بحق واحد من الحقوق السياسية التى يشاركون بها بعض المشاركة فى حكومة البلاد ، وربما كان آباؤهم فيها قبل أن يعرفها أحد من البوير أجداد «مالان» .

فالعالم الإسلامى فى العصر الحاضر أمام أخطار مشتركة تتطلب منه أن يشترك فى مقاومتها واتخاذ الحيطة منها ، وهذه الأخطار هى :

«أولاً» خطر الاستعمار الذى يهدد كيان الأمة فى سيادتها وعقيدتها وأخلاقها وآدابها .

و«ثانيًا» خطر الاستعمار الذى يهدد سيادة الأمة السياسية ويسيطر من ثم على مواردها ومرافقها .

و«ثالثًا» خطر الاستعمار الذى ليس له سيادة فعلية على البلاد ولكنه يرمى إلى توجيه سياستها بالوسائل الاقتصادية أو وسائل النفوذ الدولى على اختلافها .

و«رابعًا» خطر التفرقة العنصرية بين الجاليات الإسلامية وغيرها من الجاليات فى البلاد الأخرى .

واشتراك الأمم الإسلامية فى هذه الأخطار يوجب عليها الاشتراك والتعاون فى دراستها والاتفاق على الوسائل المستطاعة لاجتنابها والتغلب عليها .

❊ ❊ ❊

ولهذا يجىء المؤتمر الإسلامى فى أوانه ، وربما صح أن يقال : إن المؤتمر الإسلامى يتجدد الآن فى الوقت الملائم . لأن الإسلام قد فرض على المسلمين فى موسم الحج مؤتمرًا عامًا تشترك فيه جميع الأمم ، وقد أفاد هذا المؤتمر فوائده التى لا تنكر ، ولكنه لم يأت بجميع فوائده فى بعض العصور لأن السيطرة «المستبدة» كانت تصيب الأمم الإسلامية أحيانًا من سادتها المسلمين ، وكان الإمام الإسلامى «عبد الرحمن الكواكبى» يتخيل هذا المؤتمر تخيلاً فى موسم الحج لأن تحقيقه فى الواقع لم يكن من المستطاع ، وليس كتابه «أم القرى» إلا مؤتمرًا من هذا القبيل .

ثم سعى المسلم الروسى الكبير «إسماعيل غصر نسكى» في عقد المؤتمر الإسلامى العام عند أوائل هذا القرن ، وساعده السادة العثمانيون لأنه يحارب الدولة الروسية ، ولم يتنكر له المستعمرون الإنجليز لأن محاربة النفوذ الروسى فى آسيا توافق سياستهم ، ولبثت الفكرة منسية أو مهملة حتى جددتها قضية فلسطين فاجتمع المؤتمر الإسلامى للدفاع عن فلسطين عدة مرات .

أما المؤتمر الإسلامى القادم فشأنه غير شئون المؤتمرات السابقة ، إذ هو المؤتمر العام الأول الذى تشترك فيه الأمم الإسلامية بمحض اختيارها بعد استقلال الكثير منها وثبوت المكانة السياسية لها فى محيط السياسة العالمية على اتساعها ، ومهمته فى مكافحة الاستعمار بأنواعه لا تقل عن مهمته فى مكافحة الضعف والجمود والأخذ بوسائل التقدم والارتقاء ، فليس فى العصر الحاضر من يحمى نفسه وهو متخلف فى ميدان المعرفة والقوة .

❊ ❊ ❊

بَراهين الإيمَان عن طريق بَراهين الشكوك[1]

ترد إلىّ على الدوام رسائل صريحة من الشباب المثقف الحائر فى شئون العقيدة .

وموضع الصراحة فى هذه الرسائل أن أصحابها يعربون فى غير مواربة عن شكوكهم فى مسائل الدين : من الإيمان بالله إلى صلاح بعض الفرائض والعبادات .

ولست أتشاءم بهذه الصراحة ، لأنها دالة على أمور كثيرة تدعو إلى التفاؤل وحسن الأمل فى الضمائر المتفتحة للمعرفة وسلامة الإدراك .

تلك صراحة تدل على تعقل شبابنا لعقائدهم الروحية ، وعلى استعدادهم للانتقال فيها من حالة التقليد إلى حالة التبصر والاجتهاد .

وتدل – مع هذا – على امتعاض نفوسهم من حالة الشك والحيرة ، بدلاً من التذرع بها إلى الهجوم على «الإباحية الأخلاقية» واستحلال ما لا يحل فى الدين ولا فى عرف التدين الذى تقوم عليه أسس الآداب الإنسانية .

وتدل ، بعد هذا وذاك ، على أدب فى الطبع يعصمه من داء الغرور ، ويلهمه أن يطلب المزيد من العلم حيثما تطلع إليه ، ويندر فى المصابين بداء الغرور من يحسب أنه بحاجة إلى علم فى مسائل الحياة الكبرى غير الذى يهجس بخاطره ويقع منه موقع القبول ، بغير بحث ولا محاولة للمزيد من الفهم والإيضاح .

وبين الرسائل التى وردتنى أخيرًا من هذا القبيل رسالتان : أحدهما بتوقيع «م . ا . زيدان» والأخرى يرجو صاحبها أن أرمز إليه بحرفى «س . ع» إذا استجبت لرجائه وكتبت فى مجلة «الأزهر» عن موضوع سؤاله .

يقول صاحب الرسالة الأولى : «تقدمت للالتحاق بكلية الطيران لأحقق أمنيتى فى أن أكون أحد أفراد القوات المسلحة ونجحت فى الكشف الطبى مع القلائل الذين ينجون منه فى قومسيون القوات الجوية ، ثم رسبت أخيرًا فى كشف الهيئة التى لم يرسب فيها أحد إلا أنا . أتدرى لماذا؟ لأن قلبى على اليمين! .»

---

(١) مجلة الأزهر ديسمبر ١٩٦٣ .

ويختم صاحب الرسالة كلامه متسائلاً : ألست معى أن الله يتسبب فى عذاب البشر؟ . . أستحلفكم بالله أن تقنعونى بالآية التى تقول : «عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم . . .»

أما صاحب الرسالة الثانية «س . ع» فسؤاله عن «معرفة المؤمنين بالله لم لا يدركونها بظهور الله لهم علانية بدلاً من هذا التخبط من قديم الزمن فى ظلمات الجهل ومنازعات الغضب والتعصب بين المنكرين والمؤمنين ، وبين المؤمنين أنفسهم من أنصار كل دين ، بل من أنصار الدين الواحد على اختلاف المذاهب والتفاسير . . .»

ولقد كشفت لى تجاربى فى دراسة الشكوك الدينية عن طريق قريب إلى أن الإيمان لا يطول النظر فيه كما يطول النظر فى البراهين الفلسفية التى يقوم عليها العلم بوجود الله .

كشفت لى هذه التجارب عن يقين لا أرتاب فيه ، وهو اليقين بسهولة الخلاص من براهين الشكوك الدينية أو براهين الإلحاد ، لأن ظهور البطلان فى هذه البراهين أيسر من البحث فى براهين الفلاسفة على تحقيق وجود الله : وهى براهين المنطق التى لا تصبر عليها جميع العقول .

فمن اليسير أن نفهم - بعد قليل من البحث - أن إنكار وجود الخالق لشيوع النقص والعذاب فى عالم المخلوقات هو إنكار ضعيف السند ، غير قابل للتصور الصحيح عند إمعان النظر فيه .

وأيسر من ذلك إظهار البطلان فى تحقيق معرفة الله برؤية العيان ، أو ما هو من قبيل رؤية العيان .

فإذا كان وجود الخالق يستلزم خلو الخلق من النقص والعذاب فلنجتهد فى تصور العالم على هذه الصورة فلا نلبث أن نفهم أنها هى المستحيل بعينه على كل فرض من الفروض :

أولاً : كيف يمكن أن يكون المخلوق كاملاً كمال الخالق الذى لا يعوزه شيء من الأشياء؟

ذلك هو المستحيل الذى لا تتعلق به إرادة الله ، ولا يجوز لنا أن نتطلبه من قدرة الله ؛ لأن قدرة الله التى لا نهاية لها هى التى توجب أن يكون المخلوق المحدود بزمانه ومكانه

دون ذلك ، وتمنع أن يوجد فى التصور إله كامل مخلوق إلى جانب الإله الكامل الخالق لجميع الأشياء .

ولنتعسف التصور - إن استطعنا - فنقدر أن المخلوقات يمكن أن توجد ناقصة وأن تكون مع نقصها سعيدة لا ترجو شيئًا ولا يفوتها رجاء ترجوه إذا جاز هذا فى حق الكائن السعيد الظافر بكل ما يريد .

فهل توجد هذه المخلوقات السعيدة دفعة واحدة بلا ولادة ولا نمو ولا وقوف بالنمو عند حد محدود؟

وإذا وجدت هذه المخلوقات السعيدة فهل تكون سعادتها من نوع واحد لا فرق فيه بين هذا المخلوق وذلك المخلوق ، كأنها نسخة مكررة فى جميع الصفات والأحوال؟ وهل تتم لها سعادتها بغير مجهود منها وغير سبب من بواعث نفوسها وبغير فرق بين من ولد بالأمس ومن يتبعه فى الميلاد؟

وهل يتبعه ذلك التابع فى الميلاد صغيرًا يشعر بالنقص أو لا يشعر به ولا يشعر بما عداه؟

أما إذا تفرقت هذه المخلوقات فى أنواع السعادة فكيف تتفرق دون أن يكون هذا المخلوق مستمتعًا بمزية ليست للآخرين من المخلوقات؟

وهل تكون المخلوقات جيلاً واحدًا ، ثم يكون هذا الانفراد بالخلق إنصافًا للأجيال التى تظهر بعد العدم على سنة التتابع بين الوالدين والمولودين؟

إن خطأ الشك الذى يقوم على افتراض العالم على صورة من هذه الصور هو أظهر الأخطاء بعد النظر اليسير .

فكمال المخلوقات لا يدل على وجود المنفرد بالكمال المطلق الذى لا يتكرر ولا يقبل التكرار .

بل نقص المخلوقات هو الذى يدل على ذلك الكمال على كل وجه قابل للتصور والتقدير .

وإذا تصورنا الخلق بهذه الصورة التى لا صورة غيرها فى الإمكان فمن اليسير أن نفهم كيف نرجو شيئًا لا يتحقق ، وكيف نجهل ما نرجوه ولا ندرى بكل ما يضمره الغيب لنا من عواقب هذا الرجاء .

ويستحلفنى السيد «م . ا . زيدان» أن أقنعه بالآية التى تقول : «وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم . . .»

فلا أرانى بحاجة إلى مثل بعيد عنى ولا عن الواقعة التى رواها صاحب الرسالة عن نفسه وكانت سببًا لشكواه من المقادير .

لقد أردت فى مطلع شبابى كما أراد السيد زيدان أن أنجح فى امتحان كامتحانه لإتمام الدراسة بالديار الأوربية ، وكانت الجامعة المصرية فى نشأتها الأولى هى التى نظمت ذلك الامتحان على يد رئيسها سعد زغلول لتخريج الأساتذة المرشحين للتدريس فيها بعد عودتهم من الجامعات الفرنسية والإنجليزية ، وقد فاتنى النجاح فى الامتحان لسبب من الأسباب الشكلية كما فات السيد زيدان ، فأظلمت الدنيا فى عينى يوم ذاك ونعيت على الدنيا كلها خيبة الرجاء ، وظننت أنه هو الرجاء الأول والأخير فى الحياة ، ولكننى اليوم بحمد الله غير نادم على ما فات وغير عاتب على المقادير . بل قد علمت بعد قليل أننى لم أعتب على سعد زغلول ولم أحمله جريرة الخيبة فيما رجوت ، وكنت فى مقدمة المدافعين عن عمله بالجامعة المصرية يوم أنكره عليه المنكرون غير منصفين ولا متحرجين .

أما الشك فى وجود الله لأنه لا يظهر لنا عيانا ، فهو أضعف الشكوك التى تساور العقول فى أمر الأديان السماوية وفى أمر كل دين يؤمن فيه المعتقد برب معبود .

هل تريدها معرفة إنسانية أو تريدها معرفة من طبيعة غير طبيعة الإنسان فيما يعرفه ويتعرف عليه من الأشياء؟

إننا لا نعرف أوضح شىء فى عالم المحسوس لأنه يرينا نفسه جليًا واضحًا للعيان .

وهذه الشمس لا ترى العين شيئًا أوضح منها ولا يزال التعرف عليها حتى اليوم مبدئيًا من أوله كأننا نراها لأول مرة فى عصر العلوم والكشوف .

وليس بالمعقول - إنسانيًا - أن تكون حقيقة الحقائق الكبرى أقل أسرارًا أمام العارفين والمتعرفين من أقرب المحسوسات إلى الوضوح بغير أسرار ولا بقية للتعرف عليها بعد نظر العيان .

ولكننا نعتسف التصور مرة أخرى ونحاول أن نتصور كيف تتأتى المعرفة بالله عيانًا لجميع المخلوقات فى جميع الأوقات .

فهل يتجلى الله لعباده مرة فى القِدم ثم ينتقل هذا التجلى بالرواية والحكاية إلى الخلفاء والأعقاب؟

وهل ينقله من رأى الله عيانًا إلى خلفائهم وأعقابهم نقلاً يتساوى فيه الخبر ويتساوى فيه اليقين بالرواية على مثال لا يتطرق إليه الشك والخلاف؟ وإذا حدث هذا فمن أين لنا أن الخلفاء والأعقاب تقبل هذه المعرفة على صورتها المثلى ولا تشك فيها كما يشك المنكرون للأنبياء والمرسلين؟

فإن لم يستقم هذا التصور فى العقول فهل يستقيم فيها أن يتجلى الله لكل جيل فى زمان بعد زمان! وهل يغنى التجلى فى الجيل بعد الجيل عن التجلى مرة بعد مرة ، بعد ألف مرة ، لكل مولود جديد فى كل جيل جديد؟

وإذا تكرر هذا التجلى خاصًا بكل مولود ، فهل تتساوى المخلوقات فى كنه الايمان وفى درجة الإيمان ، بل فى كنه العيان ودرجة العيان؟

وإذا أمكن أن يتكرر العلم بحقيقة الحقائق على السواء وعلى هذا المثال فماذا بقى للنفوس والضمائر من الفارق بينها وبين الآلات الصماء فى تعليق الصور وإدراك المعرفة واجتهاد الضمائر والعقول؟

إن إيمانًا كهذا لا تختلف خصائصه عن خصائص الأجسام المادية التى لا معنى فيها لعقيدة من العقائد ولا لاتفاق أو اختلاف على هذا الدين أو ذاك .

ونكتفى بما تقدم لتقرير الفكرة التى أردنا أن نقررها بهذا المقال ، ومجمل الرأى فيها أن الشك فى براهين الإلحاد أيسر أمام العقل من براهين الشك فى الايمان .

فهاتان حجتان من أشيع الحجج التى نسمعها من المتشككين اعتراضًا على الدين : حجة الألم فى الدنيا وحجة الاستدلال على وجود الله برؤية العيان نوازن بينهما وبين ما يقابلهما فلا نطلب من المعترضين أن يذهبوا بعيدًا فى التفكير إذا وقفوا عند القول بأن العالم كما يريده المعترضون أصعب تصورًا وأشد ظلمًا للمخلوقات من العالم كما يتصوره المتدينون المؤمنون بوجود الله على غاية ما ينتهى إليه تصور العقل البشرى من الحكمة والقدرة .

ونحن أوثق ما نكون يقينًا بأن سائر البراهين التى تخطر للمعترضين تجرى هذا المجرى وتنتهى عند القياس إلى مثل هذه النهاية ، وكلها كافية للاقتناع بأن براهين الشك والإلحاد أظهر خطأ من براهين اليقين والإيمان .

❊ ❊ ❊

هذه هى الأغلال[1]

المسلمون فى حاجة إلى جرعات قوية من قبيل هذه الجرعات التى ناولهم إياها صاحب الفضيلة الأستاذ عبد الله على القصيمى فى كتابه «هذه هى الأغلال» .

لأن الذين يحجمون عن مساعى الحياة اعتقادًا منهم بتحريمها إنما يخرجهم فى هذا الوهم عاملان ضروريان . وهما عظة الحوادث وعظة المرشدين ، وأحق الناس بإسداء هذه العظة اليهم من يصححون لهم الوهم بإسناد من الكتاب والسنة النبوية ، ومن يرشدونهم لأنهم متدينون يفهمون الدين على وجهه المستقيم ، لا لأنهم ينكرون الأديان فلا يلتقون بهم فى أصل من أصولهم التى يتقبلون منها الحجة والدليل .

والكتاب بحق كما وصفه مؤلفه الفاضل «ثورة فى فهم العقل والدين والحياة» لأنه يهجم على سلطان غشوم هو سلطان الجهل ، ومعقل حصين هو معقل العادة ، وجحفل مجر هو جحفل الغوغاء وأشباه الغوغاء ، فيرفع السيف والمعول بغير رهبة ولا هوادة ، ويعتمد سيفًا واحدًا ومعولاً واحدًا فى هذه الثورة الجريئة ، وهما سيف اليقين ومعول البرهان .

فهو يشن الغارة الشعواء على من يقدسون البلاهة ويوجبون على الناس الكسل باسم الاتكال على الله . ويحرمون تعليم المرأة وتدريبها على فرائض الأمومة والرعاية الاجتماعية ، ويوهنون ثقة الإنسان بنفسه ، وينكرون الحكمة القديمة والعلم الحديث ، ويزعمون أن الزمن يتأخر ولا يرجى فيه من أبناء اليوم والغد رجاء يضيفونه إلى تراث السلف ومآثر المتقدمين .

وقد استند فى كثير من معارض النقد على آيات من الكتاب وأمثلة من سير الأنبياء ، وأسانيد من المنطق السليم ، ولم يبال بالسمعة الموروثة ولا بالأنصاب المرفوعة ولا بالأكاذيب المتواترة ، فهاجم أناسًا يحسبون من الأئمة المقدسين عند العامة وأشباه العامة ، وذب عن فلاسفة غير مسلمين لم يشهدوا عهد الأديان الكتابية مثل أرسطو وأفلاطون .

---

(١) الرسالة ١٩٤٦/١٠/٢٨ .

فلما روى هذه الأبيات :

من أنت يا رسطو ومن	أفلاط قبلك «يا مبلد»[1]
ما أنتمو إلا الفرا	ش رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه	ولو اهتدى رشدًا لأبعد

مهد لها قائلاً : إنهم «قالوها فى مذمة أولئك الرجال الذين حاولوا فى عصور سحيقة أن يضعوا اللبنات الأولى فى بنيان هذه الحضارة . . .» وعقب عليها مستنكرًا أن يكون هؤلاء الرجال الباحثون «حكمهم حينما أرادوا الدنو من المعرفة ومن العلم حكم الفراش الذى يرى النور المتوقد فيثب عليه» .

ثم استطرد بعد صفحات فقال : «ومن البلاء حقًا أنهم لم يقصروا عند امتداح الجهالة بل قاموا - ببلاهة كثيفة - يمتدحون الجنون والبَله والبُله والمجانين . . . وهنالك قسم كبير من الأولياء كتبوا فى الطبقات يسمون بالمجاذيب أو بالأولياء المجاذيب ، وقد أورد الشعرانى فى كتابه طبقات الأولياء الكبرى أسماء طوائف كثيرة من هؤلاء المجذوبين ، وكذلك صنع غيره» .

أما الفصل الذى تناول فيه موضوع المرأة بعنوان : إنسان هى أم سلعة - فقد قابل به بين أقوال المتطرفين فى الحجر عليها وأقوال المتطرفين فى تخويلها حقوق العمل والحرية ، ووقف بين الطرفين وسطًا يعدل بين هؤلاء وهؤلاء ، ولكنى أحسبه لو خير بينهما لآثر الإطلاق على التكبيل بقيود الحجر والجمود .

ونحن نوافق الأستاذ القصيمى على الهدف الذى يرمى إليه ، وعلى الآفة التى يشكو منها ، ولكننا نخالفه فى بعض الآراء كما نخالفه فى بعض العبارات ، ولا نخص منها بالذكر هنا إلا جانبًا واحدًا يلتبس فيه الرأى ويبدو فيه الظاهر على وجه غير وجهه الباطن ، أو وجهه الذى نطلع عليه بعد المراجعة والموازنة بين الحقائق المتقابلة . فرب حقيقة تقابلها حقيقة أكبر منها ، ورب ناحية نراها وحدها فإذا هى مستنكرة ، ونراها فى مكانها من مجموعة النواحى المختلة ، فإذا هى لازمة لا غناء عنها .

هذا الجانب الذى نخصه بالذكر فى هذا المقام هو كلام الأستاذ على فلسفة التصوف إذ يقول : «إن وجه الخطأ فى هذه الفلسفة أنهم اعتقدوا أن الروح والجسد عالمان مستقلان متعاديان ، وأن كلا منهما حرب للآخر ، وأن كلا منهما أيضًا إنما

---

(١) وقد رواها الأستاذ «قد تجدد» .

ينمو ويزكو على حساب الآخر ، فإذا أهين أحدهما وعذب نما الآخر وترعرع ، وقام بوظيفته خير قيام ، وإذا أكرم وأريح وأجم أصاب الآخر بالعكس . . . وهذه فلسفة عقيمة لا تقف أمام الحقائق . فإن الروح مهما اختلف فى حقيقتها وفى تفسيرها تزكو وتقوى وتقدر على أداء وظيفتها إذا صح الجسم وقوى واستراح ، وتضعف وتخبو وتعجز عن القيام بعملها إذا مرض الجسم أوتعب أو عجز . . . وهذه حقيقة هى اليوم فوق مذاهب الشك ، وفى استطاعة الرجل العادى أن يعلم صدق هذا بالملاحظة والاستقراء» .

ونحن نقول : إن هذه حقيقة لا شك فيها .

ولكننا نقول : إنها ليست كل الحقيقة ، أو ليست بالحقيقة التى تستغنى عن الرجوع بها إلى جملة الحقائق فى الملكات الروحية والجسدية .

ولعلنا نستعجل الغاية التى نرمى إليها بالإشارة إلى حقيقة أخرى مجسمة لا شك فيها . فما القول مثلاً فى الإنسان الذى يقبل على الجسد وحده فيجعله أصلب من الفولاذ وأقدر على حمل الأثقال وجرها من الفرس والبعير؟ أيقال أن هذا الإنسان قد زاد قوة الروح بزيادة قوة الجسد؟ أيقال أنه مثل يحتذيه كل إنسان ولا يصيب الأمة نقص فى الملكات إذا اقتدى به كل فرد من أبنائنا؟

لا يقال ذلك ، ولا يقال مع ذلك أنه مثل ضار وخيم العاقبة على أبناء الأمة ، بل يقال أنه لازم ومطلوب ومعقول ، وإن «القصد الحيوى» فى تربية الإنسانية يسمح للرياضة البدنية أن تصطفى لها أفرادًا من هذا الطراز ، ويسمح للرياضة الروحية أن تصطفى لها أفرادًا من طراز آخر ، ولا تسمح لهذه ولا لتلك بتعميم حكمها على جميع الآحاد .

هذا «القصد الحيوى» هو الحقيقة الكبرى التى تقابل تلك الحقيقة المبسوطة فى كتاب الأستاذ .

فالملكات الإنسانية أكثر وأكبر من أن ينالها إنسان واحد .

ولكنها ينبغى أن تنال . فكيف يمكن أن تنال؟

إنها لا تنال إلا بالتخصص والتوزيع ، ولا يتأتى هذا التخصص أو هذا التوزيع إذا سوينا بينها جميعًا فى التحصيل ، وألزمنا كل واحد أن تكون له أقساط منها جميعًا على حد سواء .

ولا يقتصر القول هنا على الملكات العقلية أو الروحية التى لا يسهل إحصاؤها ولا تحصيلها ، ولكننا نعم به هذه الملكات ومعها ملكات الحس والجسد ، وهى محدودة متقاربة فى جميع الناس .

فهذه الملكات الجسدية - فضلاً عن الملكات العقلية والروحية - قابلة للنمو والمضاعفة إلى الحد الذى لا يخطر لنا على بال ولا نصدقه إلا إذا شهدناه .

وقد رأينا ورأى معنا ألوف من أبناء هذا البلد رجلاً أكتع يستخدم أصابع قدمه فى أشياء يعجز الكثيرون عن صنعها بأصابع اليدين : يكتب بها ويشعل عيدان الثقاب ويصنع القهوة ويصبها فى الأقداح ويشربها ويديرها على الحاضرين ، ويسلك الخيط فى سم الابرة ويخيط الثوب الممزق ، ويوشك أن يصنع بالقدم كل ما يصنع باليمين أو باليسار .

ورأينا ورأى معنا ألوف من هذا البلد لاعبى البليارد فى المسابقات العامة يتسلمون العصا ثم لا يتركونها إلا بعد مائة وخمسين إصابة أو تزيد ، ولعلهم لا يتركونها إلا من تعب أو مجاملة للاعبين الآخرين ، وهم يوجهون بها الأكر إلى حيث يريدون ، ويرسلونها بين خطوط مرسومة لا تدخل الأكر فى بعضها ، ولا تحسب اللعبة إذا لم تدخل فى بعضها الآخر ، بحيث لو قال لك قائل : إن هؤلاء اللاعبين يجرون الأكر بسلك خفى لجاز لك أن تصدق ما يقول .

ورأينا من يقذف بالحربة على مسافات فتقع حيث شاء ، ورأينا من ينظر فى آثار الأقدام فيخرج منها أثرًا واحدًا بين عشرات ولو تعدد وضعه بين المئات . ورأينا من يرمى بالأنشوطة فى الحبل الطويل فيطوق بها عنق الإنسان أو الحيوان على مسافة أمتار .

هذه هى الملكات الجسدية المحدودة ، وهذه هى آماد الكمال الذى تبلغ إليه بالتخصص والمرانة والتوزيع .

فما القول إذا حكمنا على الناس جميعًا أن يكسبوا أعضاءهم ملكة من هذه الملكات؟

إننا نخطئ بهذا أيما خطأ ونعطلهم به عن العمل المفيد .

ولكننا نخطئ كذلك كل الخطأ إذا عاقبنا إنسانًا لأنه أتقن ملكة من هذه الملكات الجسدية ، ولو جار فى نفسه على ملكات أخرى يتقنها الآخرون .

فإذا كنا جاوزنا بالقوى الجسدية حدودها المعهودة بالمرانة والتخصيص فما الظن بالقوى الروحية أو العقلية وهى لا تتقارب فى الناس ولا تعرف الحدود .

وإذا كان طالب القوة الروحية يجور على جسده فلماذا نلومه ونتحى عليه ونحن لا نعاقب اللاعب إذا جار على روحه أو عقله فى سبيل إتقان لعبة أو تدريب عضو أو تزجية فراغ؟

إذا لمنا من يجور على جسده لأنه يضر الناس إذا اقتدوا به أجمعين فمن واجبنا أن نلوم كل ذى ملكة وكل ذى عمل وكل ذى فن وكل ذى رأى من الآراء ، فما من واحد بين هؤلاء إلا وهو يضر الناس إذا اقتدوا به أجمعين .

ومما لا جدال فيه أن نوازع الجسد تحجب الفكر عن بعض الحقائق الاجتماعية فضلاً عن الحقائق الكونية المصفاة .

ومما لا جدال فيه أن شواغل العيش وهموم الأسرة عائق عن بعض مطالب الاصلاح فى الحياة اليومية ، فضلاً عن الحياة الإنسانية الباقية على مر الدهور .

ومما لا جدال فيه أن طالب القوة الروحية كطالب القوة البدنية له حق كحق المصارع ، والملاكم ، وحامل الأثقال فى استكمال ما يشاء من ملكات الإنسان ، ولسنا على حق إذا أخذنا عليه أنه جار على جسده أو لذات عيشه ، لأننا لا نلوم المصارع إذا نقصت فيه ملكة الفن أو ملكة العلم أو ملكة الروح .

ولو أصبح كل الناس مصارعين لفسد كل الناس .

ولكن لابد من المصارعة مع هذا ، ولابد من المتفرغين لها إذا أردنا لها البقاء .

ولو أصبح الناس كلهم متصوفين معرضين عن شواغل الدنيا لفسدت الدنيا وبطل معنى الحياة ومعنى الزهد فى الحياة .

ولكن لابد من هذه النزعة فى بعض النفوس ، وإلا قصرنا عن الشأو الأعلى فى مطالب الروح ، وفقدنا ثمرة «التخصص» أو ثمرة «القصد الحيوى» الذى ينظم لنا ثروة الأرواح وثروة العقول وثروة الأبدان .

فنحن لا نفند الحقيقة التى بسطها الأستاذ القصيمى فى كتابه الجرىء على الباطل .

ولكننا نقابل حقيقته بالحقيقة التى توازنها وتتمم لها موازينها ونقول : إن الإفراط فى العناية الروحية كالإفراط فى العناية الجسدية بلاء إذا عم جميع الناس ، ولكن البلاء الذى هو أعظم منه وأقسى على الناس جميعًا أن يبطل فيهم «الاختصاص» ولو كان الإفراط من مستلزماته ، لأن «الإنسانية» كلها تستفيد من زيادة ملكاتها ، وهى لا تزيد إلا بنقص فى بعض الآحاد المعدودين .

❊ ❊ ❊

دَورٌ مِنْ أدْوَار التاريخ
فى الكتابة عَن الأندلس الإسلامية (١)

أعجب من زوال دولة الإسلام فى الأندلس بقاء آثارها سارية حتى اليوم فى كل ناحية من نواحى الحضارة الأوربية ، ويكفى أن نذكر من آثارها قيام دعوة الإنسانيين منذ القرن الثانى عشر للميلاد ، ثم قيام دعوة النهضة ودعوة الإصلاح الدينى وما يليها من الثورات الاجتماعية والسياسية ، لنعلم بعد هذا الإجمال السريع أن آثار الإسلام فى الأندلس قد أحاطت بأصول كل حركة من حركات الثقافة الغربية الحديثة .

وقد كان للمؤرخين الأوربيين مواقف مختلفة ، متناقضة ، فى تقدير تلك الآثار بين الإنكار والاعتراف ، وبين التهوين والإكبار .

كان موقف العداء والمحاربة أسبق تلك المواقف فى عصر «التعصب الدينى» من بقايا القرون الوسطى . فكان القائمون على ثقافة الغرب يتبعون خطة «الإخفاء والطمس» لمصادرة العلوم الإسلامية ، ويتعمدون مطاردتها وإبعادها ، وإن شهدوا بفضلها واعترفوا بمحاسنها ، لأنها مصدر قوة للإسلام وآية من آيات «سحره» الذى يجتذب إليه قلوب المتعلمين من غير المسلمين .

ومضت القرون الوسطى ببقاياها فجاء بعدها عصر الكشف والتنقيب عن المجهولات فى كل باب من أبواب المعرفة الإنسانية . فانكشفت فى هذا العصر مفاخر الحضارة الإسلامية فى الشرق والغرب ، وكان للحضارة الأندلسية نصيبها الأوفر من عناية القوم لاتصالها بمواطنهم فى صميم القارة الأوربية ، وهنا تفرقت مواقف المؤرخين والنقاد من الغربيين مع تفرق المقاصد والمصالح أو تفرق النظرات والآراء .

فمنهم من كان ينظر إلى موضوعه من خلال النزاع بين الكنيسة والمنشقين عليها فينتصر لمن حرمتهم الكنيسة واضطهدتهم ، وفى مقدمتهم أحرار الفكر المتأثرون

---

(١) الأزهر مارس ١٩٥٩ .

بالثقافة الإسلامية ، ولابد - مع الدفاع عن هؤلاء - من الدفاع عن فلاسفة الإسلام وعلمائه وقادة الفكر والمعرفة فى بلاده .

ومنهم من كان ينظر إلى هذا الموضوع التاريخى من خلال النزاع على حقوق السلطة القائمة فيتخذ من المواقف ما يناسب هواه : إن كان من أعوان السلطة فهو من المحافظين الجامدين ، وإن كان من أعوان الحرية فهو فى الجانب المقابل للمحافظة والجمود .

ومنهم من كان يعمل لحساب الاستعمار السياسى فهو ينكر فضائل الإسلام أو يشهد لها الشهادة التى تقف عند حدود الماضى ولا تتعداها إلى الحاضر الذى غلبت فيه سيادة المستعمرين . فلا حرج عنده من الشهادة للإسلام بالعظمة التى صلحت فى زمانها لتعظيم قومها ، ولكنها ذهبت مع زمانها فهى الآن فى خبر كان .

منذ الحرب العالمية الثانية تغيرت هذه المواقف جميعًا وخلَفتها مواقف أخرى أقرب إلى الإنصاف والاستقلال النظرى ، لأنها تصدر من بواعث «عامة» يقل فيها التوجيه والإملاء ويستلم أصحابها مطالب النشر ورغبات القراء ويجرون مع العصر فى مجراه الغالب عليه ، وهو «النزعة العالمية» التى تؤثر الاطلاع على شئون العالم قديمها وحديثها وتتوسع فى طلب الأخبار والمعلومات من جميع المصادر والجهات .

فالذين يكتبون اليوم عن الأندلس الإسلامية يجمعون بين النزعة العالمية ونزعة «الهواية الشخصية» ، ولا ينسون مطالب النشر التى تتحرى ميول القراء ولا تقوم على التوجيه والإملاء من جانب الدول ، أو جانب الهيئات التى تشبهها فى اصطناع الدعاية .

* * *

من أحدث المؤلفات التى ظهرت فى هذا - الدور - سنة ١٩٥٨م - كتاب «الأندلس» أو أسبانيا فى ظل المسلمين» لمؤلفه الأستاذ أدوين هول Edwin Hole المستشرق المعروف .

عمل هذا المؤلف بمصر وسوريا وتركيا والبلقان . ثم اغتنم فرصة العمل فى وكالة «ملقة» القنصلية فعكف على دراسة الحضارة الأندلسية من قريب وقضى فى هذه الدراسة زهاء خمس سنوات ، خرج منها بهذا الكتاب الموجز الذى يقع فى نحو مائتى صفحة ويشتمل على أحدث الأقوال والآراء فى تاريخ هذه الحضارة . وجملة ما يقال عن أقواله وآرائه أن الرجل أنصف حضارة الأندلس الإسلامية فيما فهمه

وتأتى له أن يحكم عليه ، ولكنه جهل منها بعض جوانبها - ولا سيما جانب الشعر والأدب - فأحال فيه التبعة على غيره وبلغ بذلك غاية ما يستطيعه جاهل الشىء من إنصافه وتقديره .

يكاد المؤلف أن يقول عن جانب الثقافة من حضارة الإسلام فى الأندلس أن الدولة الإسلامية قد صنعت الخوارق فى ترقية العقول والأذواق ، وأن ولاة الأمر فيها كانوا يعدون عدو الجياد حيث سار اللاحقون بهم فى خطوهم الهزيل ، فيتعثرون وهم يدرجون .

ففى كلمة «الكتاب» تتلخص المعجزة التى صنعتها الدول الإسلامية فى القارة الأوربية . قال المؤلف عن مكتبة الخليفة «الحكم» : إن عدد كتبها ومجاميعها قُدِّر بنحو أربعمائة ألف كتاب ومجموعة . وقد حاول الملك الفرنسى شارل الملقب بالحكيم بعد الحكم بأربعة قرون أن ينشئ مكتبته فلم يستطع أن يجمع فيها أكثر من تسعمائة كتاب ، ستمائة منها تبحث فى اللاهوت .

وقد تجاوبت آفاق القارة الأوربية من مشرقها إلى مغربها بسمعة الخلفاء المسلمين فى طلب العلم والتحصيل والحرص على اقتناء الكتب النفيسة والمدونات النادرة ، فكان «الكتاب» أعز الهدايا التى يخطب بها ود الخليفة بين ملوك القارة وأمرائها ، وكانت السفارة الناجحة فى بلاط قرطبة سفارة الملك الذى يزود رسوله بتحفة من تحف العلم والحكمة ويقول المؤلف فى سياق كلامه عن الكتب : «إن الرغبة في المعرفة كانت مستفيضة لا حدود لها . وقد حدث أن الإمبراطور البيزنطى أرسل إلى عبد الرحمن الثالث كتاب «ديو سقريدس ، فى العقاقير» ، فعهد إلى جامعة الطب بترجمته وحل رموزه ، وكان الحكم بن عبد الرحمن نفسه من كبار العلماء يشترك فى البحث بالوفود إلى أطراف البلاد لشراء المخطوطات ودعوة العلماء إلى بلاطه حيث يعاملون معاملة السخاء والحفاوة . فأصبحت أسبانيا قطبًا قويًا يجذب أساطين العلم من كل مكان» .

وظل الكتاب فى المغرب الإسلامى ذخيرة مضنونًا بها على الضياع حتى فى أيام الإدبار والأفول بعد زوال الدولة فى شبه الجزيرة الأندلسية . فلما استولى الإفرنج على سفينة محملة بالكتب والأمتعة لمولاى زيدان المراكشى فى القرن السابع عشر ، أرسل الأمير يطلب الكتب ولم يحفل بما عداها من حمولة السفينة ، ويقول المؤلف : إن المسألة أحيلت على محكمة التفتيش وأرادت هذه المحكمة أن تبدى بعض

السماحة فى جوابها على الأمير المغربى ، فقررت أن ترد إليه كتب العلم والجغرافية وما إليها ، وأن تحجز الكتب الدينية التى قد تعزز سطوة الإسلام ، ورفع الأمر إلى مجلس الوزراء فرفض أكثر أعضائه اقتراح محكمة التفتيش ، وأشاروا بإحراق الكتب العلمية والدينية على السواء ، وتوسط النبيل المستنير المركيز دى فيلادا De Velada عند الملك لإنقاذ هذه الذخيرة ، فأمر الملك بحبسها وإغلاق الأبواب عليها فى مكان حصين .

ويفيض المؤلف فى استقصاء أخبار المكتبة الأندلسية من مصادرها ، ولكنه يعنى فى شرحه لآثارها وتعاليمها بجانب يقل المعنيون به من المؤرخين الغربيين ، فلا يدع القارئ يفهم من الإفاضة فى ذكر الكتب والمطلعين عليها أن المدرسة الأندلسية مدرسة معقولات ومحفوظات ، قصاراها أن تخرج الفقهاء والحكماء وتحشو أذهانهم بمسائل العلم والأدب أو بمسائل الطب والهندسة وصناعات المرافق النافعة ، ولا يدع القارئ يفهم أن المقبلين على المطالعة فى إبان الدولة كانوا من تلك الزمرة التى يطلق عليها الأوربيون اسم «ديدان الأوراق» بل المفهوم من نوادر الكتاب وطرائفه أن الاطلاع على تلك الأوراق قد كان زادًا من أزواد المعيشة الصالحة ، والحياة الإنسانية : حياة الحس والعاطفة وحياة السلوك المهذب والكياسة العلمية وما توحيه من آداب المعاشرة الطيبة فى البيئة الإسلامية وغيرها من البيئات الأوربية ، ولعل السياسة التى اشتغل بها المؤلف فى مهام القناصل والرسل المحنكين الذين يتولون أعمالهم بين الأعداء والأصدقاء فى أيام الحروب والقلاقل التى اتجهت به إلى البحث عن نصيب «الأندلسى المثقف» من مهام «الدبلوماسية» فى تلك العصور المحفوفة بالظلمات والأخطار .

نقل المؤلف عن مخطوطة وجدت بمدينة فاس مما اطلع عليه المستشرق ليفى بروفنسال أخبار أول سفارة تبودلت بين الإمبراطور البيزنطى تيوفيلوس والخليفة عبد الرحمن الثانى فقال فى فصل العلاقات الخارجية :

«أراد تيوفيلوس أن يثير حفيظة عبد الرحمن الثانى فذكره بذبح العباسيين لآبائه وأحب أن يرضيه بالزراية من خلفاء بغداد فلم يسمهم بالأسماء التى اشتهروا بها كالمأمون والمعتصم بل نسبهم إلى أمهاتهم من جوارى القصور ، ولكن الزناد لم ينقدح لأن آباء عبد الرحمن نفسه لم يكونوا ممن ينكرون التسرى بالإماء ، فأجابه جوابًا مفرغًا فى قالب المجاملة مع التحفظ والاحتجاز ، ووكل أمر السفارة إلى الشاعر النابه يحيى بن الحكم البكرى الذى كان لرشاقته وجماله يلقب بالغزال . .» .

قال المؤلف : «وقوبل الوفد فى القسطنطينية بالحفاوة الملكية ، ولكن الإمبراطور أضمر فى نيته أن يضطر الغزال إلى الانحناء بين يديه على الرغم مما هو معلوم من تعذر ذلك . فأمر بفتح باب صغير في غرفة العرش لا يدخله القادم قائمًا . فلما أقبل الغزال جلس عند الباب وتقدم زاحفًا حتى بلغ ساحة العرش فنهض على قدميه ، وكان الإمبراطور قد أحاط نفسه بعرض حافل بالأسلحة والنفائس يريد أن يروع السفير ويهوله ، ولكنه لم يرع ولم يستهول ما رآه بل مضى على أثر وقوفه فى إلقاء رسالته وسلم الإمبراطور خطاب مولاه وودائع التحف والهدايا من المصنوعات والآنية الفاخرة ، فكان لها أجمل الوقع فى نفس الإمبراطور وكفلت للوفد الأندلسى طيب المقام وحسن الخدمة ، واهتم السفير اهتمامه الخاص بأهل البلد فحير علماءهم بالمشكلات الفكرية والمناقشات الذكية ، وكال الضربات الموفقة لقادتهم وفرسانهم ، وشاع خبره حتى انتهى إلى مسامع الملكة فأرسلت تستدعيه إلى حضرتها ومثل أمامها فسلّم منحنيًا وأمعن النظر إليها كالمشدوه ، فأمرت الترجمان أن يسأله : أتراه يمعن النظر إليها لجمالها أو لغرابة مرآها؟ فكان جوابه الحاضر : أنه قد رأى الحسان حافات بمليكه فلم ير منهن من تضارعها فى جمالها ، ودار الحديث بعد ذلك على هذه النغمة المحبوبة ، واستجابت الملكة لرجاء الغزال أن تسمح له برؤية الحسان من خواتين المملكة ، فجعل ينظر إليهن من الفروع إلى الأقدام ، ثم قال ليلقى بحكمه المنتظر : إنهن فى الحق لجميلات ، ولكن لا وجه للمقارنة بينهن وبين الملكة التى تتنزه محاسنها وشمائلها عن النظيرات ولا يحسن وصفها غير المجيدين من الشعراء ، وعرض عليها أن ينظم هذا الوصف فى قصيد من شعره يتغنى به الأندلسيون ، فوثبت الملكة فرحًا ومنحته هدية نفيسة من حلاها ، فأبى أن يأخذها وقال : إنه على نفاستها وعلى اعتزازه بما تمنحه الملكة من هدية كائنة ما كانت ، يحسب أنها قد وفته فوق حقه من النعمة ، ومنحته غاية ما فى الوسع أن تمنحه بسماحها له أن يتملى النظر إلى طلعتها ، وأنها شاءت أن تضاعف له العطاء فحسبها أن تزيده حظًا من النظر إليها . ولم تكن الملكة تنتظر ما هو أحب إليها من ذلك ، فلم تزل تدعوه إلى مجلسها كل يوم لتسأله عن مشاهداته ورحلاته وما وعاه من التواريخ والقصص ، ثم تبعث إليه بعد انصرافه بالتحف الثمينة من الأنسجة والعطور ...» .

* * *

وليس فى كتاب «الأندلس فى ظل الإسلام» غير القليل مما لم يرد فى المطولات من أخبار الترف والبذخ وظواهر الرغد والرخاء التى اشتهر بها ذلك الفردوس

المفقود ، ولكن هذا الكتاب الحديث يورد أنباء البذخ والترف ، ويتخللها هنا وهناك بنادرة أو عبرة تنم على إدراك لمعنى الحياة ، موكل بالصفو الرفيع من لذات الروح وأشواق العاطفة الإنسانية ، يتفقده الأندلسى المثقف ولو خلصت له متعة الجاه والثراء ، ومسرة الملك والسطوة . فكان عبد الرحمن الناصر «يقيم نفسه مقام الحكم المطاع بين ملوك المسيحية ، ويستقبل فى عزته وعليائه وفودهم المتنازعة ، كما يستقبل الملوك أنفسهم أحيانًا وقد حنوا أعناقهم العصية لمراسم الاستقبال فى بلاط الخلافة . ولكنهم وجدوا بين أوراقه بعد وفاته أنه لا يذكر من أيام حكمه الطويل - نحو خمسين سنة - غير أربعة عشر يومًا يعدها من أيام الصفو التى لا تشوبها سحابة» .

* * *

كانت حضارة متاع ونعمة ، وكانت حضارة عقل وفهم وعاطفة .

كانت حضارة «إنسانية» كاملة ، تلك الحضارة التى وصفها صاحب كتاب «الأندلس فى ظل الإسلام» متوخيًا لها الإنصاف غاية ما يستطيعه الكاتب الأوربى المعتز بحضارته العصرية فى القرن العشرين .

أما الذى فاته أن ينصفه من تلك الحضارة فهو الذي فاته أن يفهمه من خيرة المأثورات عنها ، وهو بلاغتها الشعرية الشائقة : بلاغة الموشحات والألحان .

يقول صاحب الكتاب فى الفصل الذى خصصه للكلام على الشعر الأندلسى : «إن أكثر هذه المنظومات مما لا يطيقه العقل الغربى ، وهو رأى يصرح به الخبراء بتلك المنظومات . ولا نعرف من هو أحق بالحكم عليها من جارسيا جوميز Garcia Gomez الذى يجمع بين الأستاذية فى العلم والذوق عقده للكلام على ابن قزمان أحد الشعراء المتأخرين : إن الصناعة اللفظية هو موضع العناية الكبرى فى الأدب العربى ، بين نثر مقيد بالأسجاع وبين ألوان من المجازات والأشباه والطلاوات واللوازم ، تعوزها الحرارة والشعور ، وكأنما هى كلها عرض من العروض المقنعة بالبراقع ، حيث البسمات لآلئ والعيون أزهار بنفسجيات والرياحين جواهر والجداول سيوف . وأن القارئ ليجتهد اجتهاده بين ترجمات بير Peres أو شاك Schack فينوء ذهنه بما يطبق عليه من النسق المتفق المتواتر! خصور كالأغصان تنبثق من أكام الرمال ، أو شاعر يشبه نفسه بالطير الذى أثقل ندى الممدوح جناحيه فأعياه أن يطير ، أو برق يومض بين الغمام كأنه ضرام العشق فى قلب الشاعر يتوهج من خلل دموعه ، ونصفها - أو أكثر من نصفها - قوالب منقولة يحكيها النظامون من وحى الذاكرة .»

وهذا الخطأ الذريع فى الحكم على الشعر العربى شائع غالب على أقوال المستشرقين . نفهمه ولا نرى صعوبة في فهمه إذا ذكرنا أن الغالب على هؤلاء المستشرقين أنهم من زمرة الحفاظ يشغلون بجانب «الحفظ» من الأدب ولا يشتغلون بلباب الأدب فى لغاتهم ولا فى لغات غيرهم من المشارقة أو المغاربة . فهم لا يحسنون الحكم على شاعر من أبناء جلدتهم وأحرى بهم ألا يحسنوا الحكم على الشعراء من أبناء اللغات التى تخالف لغاتهم فى تراكيبها ومصطلحاتها ، ومن أبناء الأمم التى تخالف أممهم فى أمزجتها وعاداتها ، وقد ينظر الكثيرون منهم إلى القصيدة الرائعة فيقفون عند مجازاتها ويشعرون «بالربكة» التى يشعر بها عندنا من يقول مثلاً : هات الأسطوانة! فيحضر له السامع قرصًا من أقراص الغناء المسجل ، فيختلط عليه الأمر بين ما توقعه من لفظ الكلمة وما رآه بعد ذلك من حقيقة المسمَّى .

وكذلك يشعر المستشرق بالربكة حين يتوقف بذهنه عند مجازات التشبيه فيحسبها مقصودة لذاتها ويتقيد بقشورها اللفظية دون ثمراتها وبذورها ، فلا يدرى كيف يطرب العربى لهذا الشعر ولا يحاول أن يرجع بالعجب إلى نفسه قبل أن يتهم أمة كاملة بضلال الحس وسوء التعبير ، وهى - فيما يعلم - من الأمم التى تفخر بلسانها وتنكر العجمة من ألفاظها ومعانيها .

ولقد كان من أقرب التفسيرات إلينا أن نرجع بأخطاء المستشرقين فى فهم الشعر العربى إلى الفارق الأبدى «المزعوم» بين أذواق الشعراء فى لغاتنا وأذواق الشعراء فى لغاتهم على تباينها ، وكنا نستقرب ذلك التفسير لولا أننا نعلم أن قراءنا يتذوقون شعرهم كما يتذوقون شعرنا ، وأن الفوارق الكلامية لا تحول دون ظهور المعانى الإنسانية لمن يلتمسها فى مواطنها ويتحرى أن يزنها بموازينها وأن ينفذ إلى بواطنها . فليس بين الأذواق الإنسانية من فاصل فى تمييز فنون البلاغة الخالدة ، وإنما هو الفاصل بين «الحفظ» والذوق يحول دون الفهم الصحيح فى اللغة الواحدة فضلاً عن اللغات المتعددة ، وهذا هو الفاصل بين المستشرقين «الحفاظ» وبين محاسن الشعر العربى فى ظواهره وخفاياه .

على أن العذر ممهد لمن لا يستحسن ، لأنه يجهل ولا يدعى أنه يعلم ، وإنما اللوم على من يسىء النية قبل أن يسىء الفهم ، فلا يرجى منه إنصاف .

* * *

الاخْتراعات بين العِلم والدِّين

الإنسان يحب الجديد ، لأنه إزاءه بين فرجة تشرح الصدر وتسر الخاطر ولكنه فى أحوال كثيرة ينفر من الجديد ، بل يبلغ من نفوره أن يرتاع منه ويرتاب بظواهره وخوافيه ، وينظر إليه كأنه طامع مقتحم يريد أن ينتزع منه ذخيرة يحرص عليها .

هل فى ذلك تناقض؟ نعم فيه تناقض ، ولكن فى الظاهر دون الحقيقة ، وما أكثر ما تقلب الإنسان فى شعوره وهواه ، ولكنه فى موقفه أمام الجديد يحبه لأسباب وينفر منه لأسباب أخرى سواها ، فهو فى الحقيقة بين حبه ونفوره لأن أسباب الحب غير أسباب النفور .

إننا إذا رجعنا إلى أنفسنا وجدنا أننا نحب الجديد ونقبل عليه فى معظم أحوالنا ، فإذا نفرنا منه وحذرناه فلابد أن يكون فيه شىء يمس ذات المعيشة أو يمس المصالح والأرزاق ، أو يمس العقائد الدينية والأوهام التى يدخلها بعض الناس فى عداد المعتقدات ، فإذا كان فى الجديد مساس لعذابنا فى المعيشة أقلقنا وطرد النوم من عيوننا ، ونقول إنه يطرد النوم من عيوننا حقًا وفعلاً ، ولا نقوله من جانب التعبير بالمجاز ، فإن الكثيرين منا إذا غيروا سكنهم نفر النوم من أعينهم وإن كان المسكن الجديد أدعى إلى الراحة من مسكنهم الذى ألفوه ، وربما حالت العادات بين الإنسان وبين منفعته عند الصدمة الأولى من صدمات التغيير .

ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك أننا فى مصر تعودنا أن نزرع القطن ونفضله فى مناطقه على محاصيل الحبوب ، واتفق فى أيام الحرب العالمية أن كسدت سوق القطن ، وبارت تجارته ، وقلت محاصيله ، وأن زراعة القمح أصبحت من الضرورات وزادت منافعها على منافع الزراعة القطنية ، وأصبح شراؤه مضمونًا بالثمن المطلوب لأن الدولة تشتريه وتشجع زراعته . ولكن الزراع الذين طال عهدهم بزراعة القطن ترددوا كثيرًا قبل أن يقتنعوا بتغيير ما ألفوه ، وفضل أناس منهم أن يجازفوا بزراعة القطن لأنهم ألفوه وتعودوا أن يستعدوا له فى موسمه على أن يزرعوا القمح المضمون لأنه يكلفهم تغيير العادات المألوفة .

أما الجديد الذى يهدد الناس فى مصالهم وأرزاقهم فلا غرابة فى نفورهم منه قبل اطمئنانهم إليه . ونحن اليوم يخيل إلينا أن أمم العالم وقفت فى التاريخ تدق الطبول

فرحًا واستبشارًا باختراع البخار ، ولكن الواقع أن الملاحين حطموا أول سفينة سارت بالبخار ، ولما ساد البخار وكثرت الآلات التى تدار به لم يعد فيه جديد ، ودخل فى عداد المألوفات ، وتبين يومئذ أن البخار لا يعرقل الأيدى العاملة كما خطر للمتخوفين منه عند ظهوره ، وأن الأيدى التى تعمل فيه أضعاف الأيدى التى كانت تعمل فى السفن والمركبات .

إلا أن المخترعات الجديدة قد تمس هذا النفر فتكون ثورتهم عليها أشد من ثورتهم على تغيير عادات المعيشة وتهديد المصالح والأرزاق ، والمشاهد بالتكرار أن المخترعات الجديدة ليست كلها مما يثير الأوهام أو يرى فيه الجهلاء مساسًا بالعقائد ومناقضة لأحكام الدين ، لكن الغالب على العقول أنها تهاب كل ما يتعلق بتكوين الإنسان ، أو يتعلق بنظام الأفلاك ، أو نظام السماء لأن خلق الإنسان وتسيير الفلك من أمر الله .

في القرون الوسطى كان الموت عقابًا عاجلاً لكل من يحاول أن يشرح جسم الإنسان لأنهم اعتقدوا فى تلك العصور أن المشرحين يختلسون سر الحياة وينازعون الله جل وعلا فى أمر الروح . وفى العصور الحديثة فزع الجهلاء من سماع صوت الإنسان خارجًا من آلات الحديد والخشب ، وحدث فى بعض قرى الريف عند ظهور الجراموفون أن دعيًا من أدعياء الدين حطم الجراموفون وأوشك أن يبطش بسامعيه لأنهم يستمعون إلى الشيطان .

وفى بعض البلدان ذهب فريق من الفضوليين إلى دار الإذاعة ، وحاولوا إغراء المذيع ليطلعهم على المكان الذى يختبئ فيه الشياطين وينقل منه أصواتهم من وراء الستار ، وكان ولى الأمر حكيمًا عاقلاً فأراد أن يقضى على هذا الوهم بدليل محسوس لا يمترى فيه السامعون ، قال : «هل يقرأ الشيطان آيات الله؟»

قالوا : «كلا» . فأسمعهم من المذياع القرآن الكريم ومحا بذلك ظنونهم فى خديعة الإذاعة الأثيرية . فهى على التحقيق ليست من عمل الشياطين .

ومسألة النفس وتنشيط الصدر باستنشاق الهواء وتنبيه القلب بالنبض بعد فتوره ، وفتح الدماغ لتصحيح عيوبه وأمراضه ، كل أولئك كان فى عصر الجهلاء افتراء على قدرة الله أو ادعاء للقدرة الإلهية ، ثم تعلموا بالخبرة وفهموا حقيقة هذه التجارب العلمية ، ففهموا أنها من علم الله وأن الله هو الذى علم الإنسان ما لم يعلم ، فلا يكون علم الإنسان إلا دليلاً على قدرة الله .

وفى الأيام الأخيرة يتحدث الناس بالأقمار الصناعية ، فكان من الممكن أن تسمى بغير هذا الاسم ، فيقال عنها كما يقال فى لغة الفلك إنها توابع صناعية للأرض ، وتنتهى المشكلة باختلاف الأسماء ، ولكن تسمية الجسم الطائر في الفضاء باسم القمر ، أوهمت فئة من الجهلاء أن هذا الاختراع ادعاء لقدرة الله ومشاركة له سبحانه وتعالى فى ملك السماء .

ويسرنا أن نقول : إن هؤلاء المتوهمين قليلون ، بل جد قليلين ، فلا نظن أنهم يبلغون عشر أمثالهم قبل مائة سنة أو قبل مائتين ، لو أن هذا الجسم المسمى بالقمر ظهر فى تلك الأيام ، وهذه علامة من علامات التقدم فى مدى جيلين أو ثلاثة أجيال .

* * *

سألت بائعًا فى دكان بدال ، هل رأيت القمر الذى تحدثوا عنه فى الصحف؟

قال فى غضب : «لم أره ، ولن أراه ، ولا أريد أن أراه .»

قلت : ولم يا صاح؟

قال : «يشاركون الله فى سمائه ثم أنظر بعينى إلى فعلتهم .!»

قلت : هل يستطيع أحد أن يشارك الله فى سمائه؟

فصاح : «كلا! كلا!»

وبدا عليه كأنه تنبه من غفوة أو غفلة ثم قال : «ولكن ما لهم وللسماء يتطلعون إليها ، ألا يكفيهم ما فى الأرض حتى يتطلعوا إلى سماء الله؟!»

قلت : مهلاً يا صاح . فإن الأرض لله والسماء لله ، وليس الفضاء الذى وصل إليه القمر الصناعى إلا قيراطًا من ألوف القراريط ، فهو من الأرض وإليها ، وقد وسعت الأرض مخترعات الإنسان ، فلماذا يضيق بها الفضاء؟ وأين يأمن الإنسان من قدرة الله ، وهو أقرب إليه من حبل الوريد .

فهدأت غضبة الرجل وقال : جزاك الله خيرًا ، فقد أرحتنى وما كنت أظن إلا أن القيامة قائمة بين يوم وليلة وأن الصواعق ستنقض علينا من كل مكان . فالحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله .

إن هذا الرجل البرىء ومن على شاكلته معذورون فيما يتوهمون لأنهم يجهلون معنى السماء ولا يدرون معنى مشاركة الله فى سمائه . ولكن اللوم حق اللوم على من يعرف طرفًا من العلم ثم يتوهم أن الأقمار والصواريخ تهدم عقيدة من عقائد الدين ، أو تكشف عن رأى جديد يزعزع الإيمان ويلقى الشك على قواعد الأديان .

فالأقمار الصناعية وما إليها جديدة فى الصناعة وليست جديدة فى النظريات العلمية ، وما من نظرية علمية يقوم عليها هذا الاختراع كانت مجهولة عند أحد من العارفين بقوانين الحركة وعوامل الطاقة المادية ، ولو كانت الشركات أو المصانع التجارية تشتغل بأمثال هذه المخترعات لظهرت الأقمار الصناعية قبل هذه السنة بسنوات كثيرة ، ولكن الشركات والمصانع التجارية تنفق أموال حملة الأسهم فيما يعود بالكسب المالى ، وإنما تتصدى لهذه المخترعات غير التجارية أمم كبيرة تستطيع أن تنفق مئات الملايين في التجارب والمحاولات ، ولا تتصدى جميع الدول لذلك ، ولو كان لديها أقدر العلماء وأبرع المخترعين ، ولهذا كانت هذه التجارب والمحاولات محصورة فى دولتين اثنتين ، ولم تكن عامة حيث وجد العلماء والمخترعون .

ولقد شهدت أمم العالم فى القرن الأخير مئات من المخترعات بعضها أغرب فى نظرياته وتطبيقاته من الصواريخ والأقمار الصناعية . ولم يقل أحد أنها بدعة فى الدين ، أو أنها تزعزع ركنًا من أركان العقيدة فى دين من الأديان .

هذه المستحدثات لا اعتراض عليها من جانب الإيمان ، وإنما يأتى الاعتراض عليها وعلى التوسع فيها من جانب المفكرين فى الحرب والسلام ، وكل من أصحاب الآراء يبيحها ويرحب بها ، أو يخشاها ويتشاءم منها على حسب ما يراه ، فمنهم من يرحب بها لأنها معرفة جديدة ، ولا يجوز للإنسان أن يغلق أبواب المعرفة بها . ومنهم من يخشى أن يستخدمها المحاربون فى القتال فلا تبقى ولا تذر ، ولا ينتهى القتال بها إلا بنهاية الحضارة الإنسانية وانتكاس بنى آدم إلى عهود الهمجية والجهالة العمياء .

والذين يتفاءلون ويتشاءمون يعتقدون بحق أن خطر الأسلحة الميكروبية أعظم جدًا من أخطار الصواريخ والأقمار الصناعية ، لأن سلاح الميكروبات مستطاع لأكثر دول الأرض ، لا يتوقف على ضخامة المعامل ولا على وفرة الأموال ، فإذا انطلقت القذائف الميكروبية بجراثيم الطواعين والأوبئة فشت فى الأرض وفتكت بالمحاربين والمسالمين ولم تمنعها الحواجز والحدود ، فهى موفورة لكل أمة ذات صناعة أو غير ذات صناعة ، وهى خطر أعظم من خطر القذائف الذرية . فمن دواعى التفاؤل بل من دواعى الأمل أن يكون الإنسان قادرًا على تقييدها واتقاء دورها فى الحرب الماضية ، فهو فى المستقبل أحرى أن يقيد الأسلحة الذرية ، وأن يستخدم الطاقة الذرية سلاحًا لمكافحة الفقر والقحط ونقص المواد الغذائية ، وربما كانت هذه الأقمار مفيدة فى يوم قريب فى تنظيم المد والجزر أو تنظيم ذوبان الجليد فى المناطق القطبية أو تنظيم السحب والأمطار ووسائل الرى فى الصحارى المهجورة والسهول القاحلة .

* * *

المُوَفِّقُ المُوَفَّقُ[1]
الإمَام المصْلح الشيخ محمُود شلتوت

فى كتابات الإمام الفقيد - الشيخ محمود شلتوت - كلمات لها طابعها الذى تتميز به بين أمثالها من الكلمات فى كتابات غيره ، ممن ينهضون بأمانة الدراسة الدينية .

ولعل أبرز هذه الكلمات فى كتاباته وفى أحاديثه «كلمة الشخصية» .

يلحقها بوصف العقيدة ، ووصف الفرائض المقدسة ، بل يجعل العقيدة - كما يجعل الفريضة - معلمًا من معالم شخصية الأمة ، وشخصية الإنسان فى حياته الباطنة وحياته الظاهرة .

قال رحمه الله فى مفتتح مقاله عن رسالة الأزهر : «إن للإنسان فى هذه الحياة - فردًا كان أم جماعة - شخصيتين ، حسية ومعنوية ، ولا يحظى بالوجود الكامل إلا إذا نال حظه من الشخصيتين . وشخصية الفرد الحسية يكونها اللون والطول والعرض ، وشخصيته المعنوية يكونها إيمانه ومبدؤه وهدفه فى الحياة ، وماله من عقل وتدبير وثبات ومثابرة فى سبيل مبدئه وهدفه» .

ثم قال عن شخصية الأمة الحسية : «إنها ترجع إلى إقامتها فى الإقليم الذى نشأت فيه وإلى الأصل الذى تنتسب إليه» . . . «أما شخصيتها المعنوية فهى ترجع إلى روابطها القلبية والعقلية والشعورية ، وعلى قدر ما يكون لها من التأثر بتلك الروابط المتفاعلة والحرص عليها وعلى معارفها التى تكونها ، وعلى الإيمان بمصدر تلك المعارف ، يكون لها بين الأمم من آثار الوجود المعنوى» .

وكتب عن الصلاة فى فصل من فصول «الإسلام عقيدة وشريعة» ، فقال عنها : «إنها العنصر الثانى من عناصر الشخصية الإيمانية» .

وعلى هذه الوتيرة كانت كلمة «الشخصية» تتردد فى أحاديثه للدلالة على قوام كل «وجود» حق يتميز به عقل الإنسان وضميره فى حياته الروحية ، وهى لمحة من لمحات التعبير الباطنى تدل على معناها وتدل مع هذا المعنى على مقدار شعوره

---

(١) الأزهر يناير ١٩٦٤ .

بكرامة الشخصية واقترانها بحق الإنسان وواجبه وبالتبِعة التى تناط بها الحقوق والواجبات ، وتقرر له موقفه من الشخصيات الإنسانية الأخرى فى إبداء الرأى والاضطلاع بأعباء الدعوة والإقناع .

هذه واحدة من خصال العقل المجتهد ، بل هى أولى تلك الخصال فى كل ترتيب لكفايات المجتهدين . من كان له رأى وعلم ولم يكن له نصيبه الأوفى من هذه الخصلة فلا سبيل له إلى الاجتهاد ، لأنه يلقى العائق الأول عن أداء وظيفة الاجتهاد من قبل نفسه ، ويحجم عن العمل فى سبيله قبل أن يصده غيره عن تلك السبيل .

وتلك هى الخصلة التى توافرت للأئمة الأسبقين من أصحاب الرأى والقياس فى الشريعة ، وبفضل الثقة التى كانت تملأ نفوسهم من هذه الخصلة كانوا يقولون لمن يستكثر عليهم التعقيب على أهل العلم من الصحابة والتابعين : إنهم رجال ونحن رجال .

وإذا اجتمع الاجتهاد فى كلمات معدودات صح أن يقال إنه هو القدرة على الرجوع إلى روح القرآن الكريم ، أو إنه بعبارة أخرى تفسير المذاهب بمعانى القرآن الكريم ، وليس هو تفسير القرآن الكريم بمعانى المذاهب أو بنصوصها أو بأقوال الرواة فيها .

ولقد كان هذا هو إيمان الإمام الفقيد بالكتاب المبين ، وكان هذا هو منهجه فى الاحتكام بالمذاهب إلى آياته وأحكامه ، مستقلة عما يضاف إليها من شروح المختلفين وتأويلات أصحاب الرأى وأصحاب اللغة من المفسرين .

وقد لخص العالم الفاضل الدكتور محمد البهى هذا المنهج فى تقديمه لتفسير الإمام الفقيد : فقال : «التفسير الذى نقدمه اليوم للمسلمين هو تفسير للمسلمين أجمعين ، لا لمذهب معين من المذاهب الفقهية ، ولا للون من ألوان العقيدة الكلامية ، ولا لاتجاه خاص من اتجاهات أهل الظاهر أو أهل الباطن» .

ثم تعرض للمنهج الذى اختاره الأستاذ المفسر واقتدى فيه بالمعلم المصلح العظيم محمد عبده فقال : إنه منهج «جعل السورة وحدة واحدة ، يوضح مراميها وأهدافها وما فيها من عبر ومبادئ إنسانية عامة» ، وإنه لا يقحم فيه على القرآن من رأى خارج عنه ، أو مصطلح انتزع من مصدر آخر ، فجعل كلمات القرآن يفسر بعضها بعضًا ، كما أطلق الحرية للقرآن فى أن يدلى بما يريد دون أن يحمل على ما يراد .

وبهذه المثابة يصبح تفسير القرآن للمسلمين جميعًا ، وعليه يقام أساس التوفيق بين المسلمين أجمعين ، وهى أمانة لا يضطلع بها غير أهلها من القادرين على

الاستقلال بالفهم وعلى مواجهة الخلاف بما ينبغى للمجتهد من الشجاعة الصادقة ووسائل الإقناع بإحسان ، وما ينبغى للمجتهد المعلم خاصة من الصمود إلى غاية التعليم ، وغاية المعهد العلمى الذى يتولاه .

وصف الإمام الفقيد رسالة الجامع الأزهر معهد العلم الإسلامى الأكبر فقال فى بضع كلمات : «إنه معهد الدين وحصن اللغة المكين» .

ومن أراد هذه الرسالة للجامع الأزهر فقد عرف من قبل رسالة القرآن الكريم ، بل عرف المعجزة الكبرى لهذا الكتاب فى ناحية إعجازه التى لا مراء فيها ، وهى معجزة الأثر الخالد التى نستطيع نحن - أبناء هذا العصر - أن ندركها وأن يكون إدراكنا لها أقوى وأوضح ممن سبقونا إلى العلم بمعجزة الكتاب المبين .

معجزة الأثر فى ألف وأربعمائة سنة أقوى وأوضح من معجزته التى شهدها أبناء القرن الأول ثم شهدها أبناء القرون الأولى بعد عصر الدعوة . فإننا اليوم نستطيع أن ندرك تلك المعجزة التى لا نظير لها والتى تقاصرت عنها الهمم ووقفت دونها دعوات الأفراد والأمم ، وتم بها ما يتم بعمل إله وقول إله ، وهيهات أن يتم بجهد الإنسان بغير معونة الله :

ـ أربعمائة مليون من بنى آدم فرقتهم الأجناس واللغات والبقاع والأزمان ، وجمعتهم كلمات القرآن .

ـ وكلمات حفظت اللغة التى نزلت بها وليست هذه اللغة هى التى حفظتها ، ولم يتفق قط للغة من اللغات أن عاشت بكتاب واحد مدى هذه السنين ، فلم تعش لغة اليونان خمسمائة سنة بكتاب هوميروس ، ولم تعش لغة اللاتين بعض هذه السنين بلغة فرجيل وهوراس ، وذهبت لغة فارس ولغة الهند وفيها من الكتب ما لا يقرأه اليوم غير كهان المحاريب ، وماتت لغات أخرى كانت تعيش قبل الإسلام ، وبقيت لغة القرآن حية فى عالم الديانة وفى عالم الكتابة وفى عالم الثقافة ، وستحيا غدًا كما حييت بالأمس إلى ما شاء الله ، وصح فيها قول الأستاذ الفقيه : «إنها ليست فى هذا المقام عربية الإقليم والجو ولا عربية النسب إلى أصل ينتسب إليه الجنس . . . وصارت عربية الشخصية المعنوية المكونة من عنصرى العروبة والإسلام . . .» .

ولما تكلم عن غايته من التعليم فى المعهد الأكبر الذى تولاه قال : «نريد تخريج تبريز لأئمة فى اللغة وفروعها وأئمة فى الفقه وأصوله ، نريده تخريجًا أساسه النظر العميق والاجتهاد العلمى الذى يكوِّن الشخصية الفقهية والشخصية اللغوية العربية ، لا نريده تخريجًا نلتزم فيه مخلفات الماضى من آراء ومذاهب ، بل يجب

أن نجتهد وأن نؤمن بأن حاجة اليوم فى الفقه واللغة وعقائد الدين غيرها بالأمس ، وأن نؤمن بأن فضل الله فى كل ذلك لم يكن وقفًا على الأولين» .

ونستعير من أسلوب الفقيد فنقول إن الاجتهاد كما أراده هو الاجتهاد بعناصر «شخصيته» على تمامها كما ينبغى أن يضطلع به المجتهد فى جميع العصور ، وهو أتم من ذلك بالنسبة إلى عصرنا هذا الذى نعيش فيه ، وبالنسبة إلى العصر المقبل الذي يواجه المجتهدون عما قريب .

فما من عنصر من عناصر الاجتهاد إلا قد ظهر له فى هذا العصر باعث يستدعيه لم يكن ظاهرًا بهذا الجلاء وهذه الضرورة فى عصر من عصوره الماضية .

فها هنا عنصر النظرة الموحدة إلى الكتاب المبين فى العصر الذى ارتفعت فيه حواجز الاستعمار الأجنبى ووجب أن تحل فى مكانها روابط القربى بين أمم الإسلام على تباعد الديار وتباعد الشيع والمذاهب التى لابقاء لها مع توحيد النظرة إلى كتاب المسلمين أجمعين .

وها هنا عنصر اللغة فى عصر النهضة العربية ، وقوامها كله نهضة الثقافة العربية التى تتحد بها ثقافة الإسلام فى جميع اللغات .

وها هنا عصر «الاستقلال» فى عصر الحرية الفكرية أو عصر «الإنسان» الحر فى الجماعة الحرة ، وقد مضت الجماعات فى طريقها إلى الخلاص من طغيان الاستبداد وطغيان الاستقلال .

وها هنا العصر الذى أصبح فيه معهد الإسلام الأكبر كما قال الشيخ رحمه الله : «يضم السودانى ، والمغربى ، والحبشى ، واليمنى ، والشامى ، والفلسطينى ، والأندونيسى ، والتركستانى ، والسعودى ، والأفغانى ، والتركى ، والروسى ، واليونانى ، واليوغسلافى ، والكردى ، والعراقى ، والتركى ، والإيرانى ، والسيامى ، والباكستانى ، والفلبينى ، والملاوى ، والبرمى ، والأردنى ، واللبنانى ، والزنجبارى ، والأوغندى ، والليبى ، والتونسى ، والجزائرى ، والمراكشى ، والإريترى ، والسنغالى ، والصومالى ، والنيجيرى» . إلى غير هؤلاء ممن وفدوا إليه أو يتوافدون مع الأيام بلا انقطاع . لا جرم كان من بشائر الأمل - كما أسلفنا فى غير هذا الموضع - أن ينهض الشيخ شلتوت بمشيخة الأزهر فى الزمن الذى تفتحت فيه الطرق بين البلاد الإسلامية بعد أن تحررت من الطغيان الأجنبى عليها وبين هذا المعهد الذى لا معهد فى العالم الإسلامى أولى منه بضم الشمل وتقريب مسافة الخُلف بين المسلم والمسلم حيثما كان فى أقاصى البلدان .

ومن عرف الإمام الفقيد عرف أنه قد تزود لهذه الرسالة بزاد غير علمه الغزير وشجاعته الصادقة ، وهو زاد القلب الطيب والسجية الكريمة تجمع الخصوم على الألفة والثقة كما تجمع الأصحاب والأنصار .

ولقد عرفنا الشيخ الأكبر سنوات فى مجمع اللغة العربية فتعودنا أن نعرفه «قرآنيًا» فى دراسته لأسرار اللغة ، قبل أن نعرفه «لغويًا» فى دراسته لأسرار القرآن ، وكنا نسمعه يقول : إن القرآن معجز بما هو به قرآن ، ويعنى بذلك نسقه الذى ينتظم ألفاظه ويوحى من معانيها بما ليس فى مفردات الكلم ولا فى أجزائه التى يقتضيها الإعراب فى كل عبارة . فليست الكلمة الواحدة هى محل الإعجاز ، وليس محل الإعجاز هو الكلمتين أو الكلمات الثلاث التى تتم بها جملة الفعل والفاعل أو المبتدأ والخبر والجار والمجرور أو المضاف والمضاف إليه ، ولكنه نسق دقيق يتخطى لوازم العلاقة بين الألفاظ فى النحو والصرف إلى لوازم العلاقة بين المعنى والوجدان ، وبين الوحى والبصيرة ، بما لا تدركه ولا تبلغ إليه بلاغة الإنسان . وبهذه البصيرة المتفتحة تسنى له أن يفهم القرآن كتابًا للمسلمين جميعًا يرجعون إليه فيرجعون إلى مصدر واحد يبطل فيه الخلاف ، أو يختلف فيه المختلفون ولكن كما يختلف العقل الواحد بينه وبين نفسه فى وجهات نظره بين حين وحين ، وبين اعتبار واعتبار .

وبهذه النظرة «القرآنية» عمل الشيخ الأكبر فى تنظيمه للدروس بمعاهد التعليم ، كما عمل على هذه الهداية فى علاقته بالأمم الإسلامية وعلاقته ببلاد العرب أجمعين . والجديد فى خطته على هذه الجادة القديمة أنه فهم أن اللغة العربية ، أو اللغة القرآنية ، شىء يتعلمه العربى المسلم كما يتعلمه المسلم غير العربى ، فلم يكن علي المسلمين غضاضة فى هذه المساواة الشاملة ، ولم يكن للعربى إيثار على غيره ، لأن عروبته فى هذا المنهج هى عروبة القرآن الذى يتساوى فيه المسلم والمسلم من كل جنس ، وبكل لسان .

ولئن مضى الإمام المجتهد ولم يعقب برنامجه المفصل للتطبيق الشامل «العملى» فى المستقبل الذى سيواجهنا عما قريب - لقد عمل وعلّم وأعقب المثال الذى يهتدى به من عمل معه ومن تعلم على يديه ، ومن يقدر على مجاراته فى اجتهاده والزيادة عليه بما يتهيأ لهم من وسائلهم ولم يتهيأ له فى حياته ، وإنهم لكثيرون بعون الله يجزيهم الله وإياه .

* * *

المَاديّة تنْهَدِم[1]

سئل رهط من علماء الغرب عن مصير الإنسان ، فقال العالم المشهور «سير جوليان هكسلى» ما فحواه : إن أدوار التطور الكبرى قد انتهت بالنسبة إلى النوع الإنسانى ، إلا ما يكون منها خاصًا بالدماغ والفكر ، فإن النوع الإنسانى لا يزال قابلاً فى هذه الوجهة للمزيد من التقدم والنماء ، وليس المنظور أن يكون هذا التطور «عضويًا حيويًا» فى بنية الدماغ ، فإن حكم الدماغ من حيث النماء الجسدى كحكم سائر الوظائف الحيوية ... ولكن الأفكار التى تتولد من مباحث العلم والفن على الأجيال المتعاقبة تزيد محصول الإنسان من المعرفة فتزداد قدرته على التفكير الصحيح تبعًا لذلك ، ويحدث التجاوب بين العارفين فى البيئة الواحدة فيصحح بعضهم تفكير بعض ويأتى من تجمع الأفكار وتصحيحها ما هو منتظر للنوع الإنسانى فى مجموعه من تطور العقل وصحة التفكير .

والذين خالفوا السير جوليان هكسلى فى تطور الدماغ من البنية الجسدية لم يخالفوه فى اعتقاده أن التقدم سيأتى من معالجة التفكير ، وأن مرانة الذهن على التفكير فى مصاعب الحياة هى التى يرتبط بها النماء فى حجم الدماغ وفى قدرته على الفهم والإدراك ، ثم فى تعوده أن يعمل بداهة وارتجالاً ما يعمله اليوم بعد التنبه والاجتهاد .

وقرر هكسلى وموافقوه من العلماء والمفكرين الذين سئلوا عن مصير الإنسان أن هذه الآراء جميعًا أبعد ما تكون عن «المادية» أو عن تلك الفلسفة التى تربط مصير الإنسان بجسده ، وبالمعيشة المادية التى تعيشها الجماعة وتفرضها على عقول أفرادها .

فلا عمل للمادية فى توجيه مستقبل الإنسان ، وإنما هى الأفكار والعلوم مناط التقدم كله ، ومناط الاتجاه – من ثم – إلى أطوار من الرقى والنماء تعلو على أطواره اليوم .

وعقب المفكرون الدينيون على هذه الآراء فوافقها الكثيرون منهم ، ولكنهم قالوا : إن نجاة النوع الإنسانى مما يهدده غدًا لن يكون معلقًا بأفكاره العلمية ولا بمباحثه فى شئون الفلسفة الطبيعية ، لأن هذا النوع الإنسانى إنما يأتيه خطر الفناء من جانبين اثنين : أحدهما كوارث الكون الكبرى ولا حيلة له فى دفعها بعلومه وفلسفاته ،

---

(١) الأزهر فبراير ١٩٦٣ .

والجانب الآخر كارثة الحرب الذرية ، وهى بعض آثار التقدم العلمى ولن يكون خلاص النوع الإنسانى منها على يد العلم المتقدم ، لأنه هو مصدر الخطر ووسيلة الكارثة المرهوبة ، وسلاح الحرب الشعواء التى تودى بحياة هذا النوع أو تبقى ما بقى منه فى حالة كحالات الهمجية الأولى . وقد سئل أينشتين مرة : ماذا يكون سلاح الحرب العالمية الرابعة إذا كانت الذرة هى سلاح الثالثة ؟ فقال جاداً غاية الجد وساخراً غاية السخرية : تكون سلاحها الحجارة! يشير بذلك إلى رجعة الإنسان كرة أخرى إلى العصر الذى سبق عصر القوس والسيف ، فضلاً عن عصر الطيارة والصاروخ .

قال أولئك المفكرون : إن الخطر إذا كان من نفس الإنسان فلا نجاة له بعلوم العقل ومخترعات الصناعة ، وإنما تكون نجاته بعلم من عالم الروح تنتفع به الضمائر والعقول .

إنما تكون نجاته بالدين ، وبالإيمان الدينى والعقيدة الإلهية ، ولا نجاة له فى غير هذا الطريق .

وكل هذه الآراء من أقوال كبار المفكرين إنما تهدم المادية باسم الفكر والمعرفة وتعتمد على الفارق بين جانب الإنسان العقلى وجانبه الجسدى لترجيح القول باعتماده فى تقدمه بعد اليوم على الناحية الفكرية منه ، أو على الناحية التى تأتى من تجمع المعلومات والانتفاع بها فى حياته العلمية .

ولكن الفلسفة المادية – فيما نرى – لن تنهدم من ناحية التفكير وحده ، ولا من ناحية الدماغ المفكر دون النظر إلى مادة بدنه ومادة الكائنات الطبيعية من حوله ، بل تنهدم الفلسفة المادية لا محالة من كل نظرة واقعية ننظرها إلى حقيقة تركيبها مستقلة عن الفكر ، بل عن الدماغ وهو محمول على المادة من بعض نواحيه .

إن المادة نفسها ليس لها قوام أصيل يقاس بغير مقاييس الفكر المحض ، كما تقاس الفكرة عن الروح وعن عالم التجريد والمجردات .

فقد كان العلماء وغير العلماء يقيسون المادة بالشبر أو بالشعرة وبالقصبة أو القيراط وبالمتر أو جزء من ألف من المتر ، وكان هذا كله مما يوصف بالامتداد ويدخل في العقل الإنسانى بقياس الامتداد فى الفضاء أو الامتداد فى الزمان ولكن هذا الامتداد من ناحيته الزمنية أو المكانية يزول اليوم أمام المقاييس التى تقاس بها ذرات المادة وخلايا الحياة فى تركيباتها الجسدية ، ويوشك أن يعود العلم بالمقاييس جميعًا إلى شىء لا امتداد له كالنقطة الهندسية التى يعرفها الرياضيون بأنها شىء

لا طول له ولا عرض ولا عمق ولا اتساع ولا امتداد على الإجمال وإنها مع ذلك أساس جميع الأبعاد .

لقد وصلنا اليوم إلى القياس بوحدة الأنجستروم Angstrom وهو قياس واحد على عشرة آلاف من الميكرون Micron .

وما الميكرون بالنسبة إلى المقاييس التى تفهم بالامتداد؟

الميكرون هو جزء واحد من ألف ألف جزء من المتر الواحد .

فهناك إذن أشياء يبلغ من دقتها أن تقاس أو تحسب بحساب جزء من عشرة آلاف مليون من أجزاء المتر الواحد . . .

فما الفرق فى التصور بين هذا الجزء وبين المعانى الذهنية التى تدرك بالتقدير الرياضى أو التقدير الفلسفى المجرد من كل مادة محسوسة؟ إن هذا الفرق ينتهى بما نسميه «المادة» إلى نهاية لا تدرك بغير التقدير والتفكير ، بل يسهل تقدير الروح والتفكير فيها بمقياس المعانى الذهنية ويظل إدراكنا لوحدة الأنجستروم صعبًا عسيرًا لاختلاطه اللاحق به من عالم المحسوسات .

ويقال أيضًا فى الكلام عن تفجر الذرة : إن هذه الشرارة تنقدح فى جزء من عدة آلاف جزء من الدقيقة ، وإنها تصل بالإشعاع إلى جزء من عدة آلاف جزء من السنتيمتر بسرعة الشعاع .

فكيف يدرك هذا الجزء بحساب الامتداد الزمنى أو حساب الامتداد فى الفضاء؟

إن دقة واحدة تستنفد الثانية ، ونحن نقسم الثوانى إلى ثوالث فلا نتصور كيف تكون الدقة بعد انقسامها إلى ستين ثالثة فكيف نتصور الجزء من الآلاف الكثيرة بحساب هذا الامتداد .

وماذا بقى من الفارق بين حقيقة المادة وحقيقة الروح؟ وماذا بقى من الفرق بين نهاية عالم الخفاء ونهاية عالم الشهود على يد التجارب العلمية ولا نقول على يد السبحات الصوفية أو التجليات الروحية؟

على أن هذه الأجزاء المادية التى تحسب بالملايين لا تدرك بالبصر الإنسانى حين تتجمع تحت المنظار الكبير ، وإنما تدرك إذا عولجت بالأصباغ الكيمية ثم ظهرت لونًا تلمحه العين ولم تظهر بغير هذه الصورة إلا مقدورة مفروضة بعلم الحساب .

وكذلك تدرك الناسلات وتدرك الصبغيات التى سميت بهذا الاسم ؛ لأن الصبغة هى الوسيلة الوحيدة التى تقرب الملايين منها إلى عالم الإدراك أو عالم المحسوسات .

وإلى هنا يمكن أن يقال : إن العالم المحسوس يشملها ما دامت الصبغة تظهر منها الملايين أو أضعاف الملايين .

ويصح هذا القول إذا كانت الصبغة تظهر لنا الخصائص التى تحتويها الناسلة الواحدة من جملة هذه الملايين .

والناسلة الواحدة لا تظهر منها خاصة واحدة للصبغة ولا للحساب ، لأن هذه الخاصة لا تنتقل دفعة واحدة من الخلية إلى مكانها المقدور فى تكوين جسم الإنسان ، بل تنتقل ثم تنقسم مرة ثم تنقسم ألوف المرات ، ثم تخرج منها فى كل مرة صورة بعد صورة بعد مئات الصور يتولد منها فى النهاية كل ما احتوته واشتملت عليه قبل هذه التقسيمات .

فالناسلة التى يتولد منها الجنين وتنشئ فى النهاية لون العين أو لون الشعر أو لون البشرة لا تنتقل بهذه الخاصة مباشرة أو على صورة واحدة ، ولكنها تخرج منها خاصة بعد خاصة بعد أخرى على الترتيب الذى لا يختلف فى حالة من الحالات ، وتمضى الناسلات بخواصها المختلفة في حيزها الصغير فلا يختلط بينها عمل واحدة بعمل الأخرى ، ولا يتيسر للنظر ولا للصبغة ولا للحساب أن يفصل فى لمحة واحدة بين هذه الأحوال .

فإذا كانت الصبغة تدخل عشرات الملايين من هذه الجزيئات فى عالم الحس بالمنظار الكبير ، فأين من عالم الحس تلك الخاصة التى تفرقت فى كل جزء من هاتيك الجزيئات التى لا ترى بالصبغة ولا بغير الصبغة؟

كل ما يلزمنا لإدراك المعانى المجردة يلزمنا هنا لإدراك الناسلة بخاصتها التى كمنت فيها وراء العين ووراء الحدس ووراء الحساب .

وعلى هذه الوتيرة تنتهى المادة على أيدى الماديين فى صميم علومهم التى عزلوها قديمًا عزل الأبد عن عالم المعنى وعالم الروح وعالم الخفاء .

ولقد صح عند الذين استخدموا المادة لنكران كل عالم غير العالم المحسوس ، أن القرن التاسع عشر كان عصر الكفر بما وراء الطبيعة أو بما وراء المادة . وعصر الإيمان بالمادة دون سواها ودون ما وراءها ، وأصح من ذلك أن القرن العشرين هو عصر الكفر بالمادة وعصر العودة إلى ما وراءها ، وعلى أساس المقررات المادية يجوز للباحث «الطبيعى» أن يقول : لعل القرن الحادى والعشرين سينفذ بالعقول والضمائر إلى عالم الروح من خلال الذرة على شعاع من نور .

❊ ❊ ❊

إفْلاسُ مَذهَب(1)

لا طاقة «للمادية الشيوعية» بالبقاء

قام المذهب الشيوعى فى روسيا قبل نهاية الحرب العالمية الأولى منذ اثنتين وأربعين سنة .

فكل من فى روسيا اليوم من رجال ونساء ولدوا فى ظل هذا المذهب ، وتربوا على عقائده وآدابه ، وانعزلوا منذ طفولتهم إلى أن جاوزوا سن الرشد عن كل مذهب يعارضه أو يصده عن طريقه ، لا يستثنى منهم أحد غير الشيوخ الذين ناهزوا الستين وما بعدها .

فالذين بلغوا الأربعين من الرجال والنساء ولدوا بعد إعلان المذاهب بسنتين ، فلم يعرفوا مذهبًا غيره منذ تعلموا النطق بالحروف .

والذين بلغوا الخمسين كانوا عند قيام المذهب فى الثامنة من العمر ، فتعلموا القراءة فى مدارسه ولم يتعلموا شيئًا قبل أن يتعلموه ويعيشوا عليه .

والذين ناهزوا الستين كانوا فى نحو الثامنة عشرة يوم قام المذهب الشيوعى فى بلادهم ، مضى عليهم ثلاث سنوات منها فى الحرب العالمية ، وبلغوا الأربعين فالخمسين فما فوقها وهم شيوعيون ظاهرًا وباطنًا ، أو شيوعيون بالتعليم والتربية والمعيشة ، لا يعرفون مذهبًا يخالف الشيوعية ويدعو إلى عمل ينقضها .

أمة كل من فيها من رجال ونساء وشيوخ وشبان وأطفال تخضع للدعوة الشيوعية وللتربية الشيوعية ، ولا تسمع شيئًا يعارض الشيوعية .

فإذا قلنا : إن الثورة الشيوعية أبقت على أحد من غير أنصارها فالذين أبقت عليهم هم الآحاد المتفرقون أبناء الستين وما فوقها ، لا يقدرون على مناهضة المذهب بدعوة ولا نفوذ ولا وسيلة عملية أو أدبية يحسب لها حساب .

---

(1) الأزهر مايو ١٩٥٩ .

والفرض مع هذا بعيد الاحتمال . فإن الثورة الشيوعية أعلنت منذ قيامها «أن من ليس معها فهو عليها» وأبادت كل من توقف عن تأييدها وإن لم يكن له عمل فى مقاومتها . ولكنه سواء كان فرضًا بعيد الاحتمال أو مقبولاً فى الحسبان لا ينتهى إلى نتيجة ذات بال ، وكل ما ينتهى إليه أن يكون عدد المخالفين للشيوعية فى قلوبهم بضعة ألوف معزولين عن وسائل النفوذ بين الملايين من الرجال والنساء الأشداء يقودون أزمّة الأعمال والآراء .

مائة وخمسون مليونًا ، أو يزيدون ، كلهم مولودون فى ظل المذهب منقطعون عن مذاهب العالم ، عائشون فى جوه نيفًا وأربعين سنة .

تلك «وحدة مذهبية» لم يعرف لها نظير فى تواريخ الأمم منذ كانت ، وتلك فرصة أتيحت للثورة الشيوعية لم تتهيأ قط لحركة من حركات المبادئ والدعوات الاجتماعية ، فلو كان فى هذا المذهب الشيوعى صلاح للاستقرار على دعائم الحرية وضمان الحقوق لوجب الآن أن يكون على غاية من الاستقرار والطمأنينة ، وأن يكون ولاته جميعًا من الكفاة القادرين على تدبيره المخلصين فى تنفيذه ، الصادقين فى الإيمان به والقيام على شئونه ، وإلا فكم من الزمن يكفى لتخريج الكفاة المخلصين الصادقين ، ومن أى المذاهب تستعيرهم الشيوعية ، إن كانت لا تستطيع أن تنشئهم فى مهادها بين أبناء العشرين إلى أبناء الستين؟

نعم – يجب أن تكون للمذهب اليوم حكومته الحرة المطمئنة وحكامه الكفاة المخلصون!!

فهل هذا هو الواقع المشاهد فى البلاد الروسية؟ هل هذا هو الواقع المشاهد فى أقوال الروس أنفسهم ، بل فى أقوال حكام الروس أنفسهم ، فضلاً عن أقوال الأعداء والمعارضين؟

كلا ، ليس هذا هو الواقع المشاهد كما يصفه حكام الروس ، ولا يفرغون من وصفه وإعادة وصفه منذ عهد ستالين إلى عهد خروشيف الأول والأخير .

ستالين قضى على المئات والألوف بتهمة الخيانة والغدر بالشعب والعدوان على مصالحه وشريعة حكمه ، وخليفته خروشيف يقول إنه كان ظالمًا عاتيًا سفاحًا يخوض فى دماء الأبرياء ويفترى الكذب على خدام الأمة الأمناء ، ولكن خليفته هذا لم يلبث أن صنع بشركائه فى الحكم مثل صنيع ستالين ، ولم يزل يقتل وينفى

ويعزل ويلقى تهم الخيانة على زملائه وأعوانه قبل أن يفرغ من حملته على السياسة التى سماها سياسة البغى والإجرام والتلفيق والافتراء .

أعادل زعيمه ستالين أم ظالم؟ وصادق خليفته أم كاذب؟

كلا الأمرين سواء .

إن كان ستالين عادلاً فهناك ألوف من رؤساء الشيوعية خونة أنذال مفسدون .

وإن كان ستالين ظالمًا فهناك حكومة تتولى أمور البلاد على سنة الإرهاب والغش والتضليل .

أما خروشيف فصدقه طامة وكذبه طامتان ، ومحاكاته لستالين بعد الحملة عليه دليل عجيب على تأصل الشر فى أركان الدولة إلى أعمق الجذور .

إن صدق هذا الرجل يدمغ المذهب الشيوعى فى أساس تكوينه ، لأنه يرينا أن الحكم الشيوعى يخول الحاكم المستبد طغيانًا لم يخوله أعتى القياصرة فى أظلم عصور الظلم والاستغلال .

وأشد من ذلك أن يكون كاذبًا على زعيم وعلى أمة وعلى حكومة كاملة ولا يفتضح له كذب ولا يمتنع عليه بعد ذلك أن يتمادى فى السياسة التى أنكرها كاذبًا على جميع هؤلاء .

وعلى أى وجه من الوجوه لا مفر من الجزم بأن الشيوعية أفلست فى سياسة مجتمعها غاية الإفلاس الذى يصاب به مذهب مجعول لسياسة المجتمعات ، وأن الشيوعيين فى بلاد كلها شيوعيون لا يقدرون بعد أربعين سنة أن يجدوا للحكم إلا باغيًا كاذبًا سفاحًا ، بين قائم منهم بالأمر أو معزول ، وأن نظام الشيوعية من أساسه شر من كل نظام عرف فى ظل الاستبداد ورأس المال ، لأنه لا يأبى أن تتولاه أداة حكومية قائمة على الإرهاب والتضليل ، يتأتى فيها للحاكم الفرد ما ليس يتأتى من قبل لأمثال نيرون وجنكيزخان .

هذا هو الواقع الذى تبديه لنا أعمال الحاكمين فى روسيا وأقوالهم ، ولا حاجة به إلى رأى يقول به عدو أو ناقد من بعيد .

مذهب قامت على قواعده أمة كاملة من الرضيع إلى الشيخ الذى جاوز الخمسين ، ولم يزل حكامه بين خونة وظلمة ، ولم يزل فى وسع الإرهاب والتضليل أن يتيح لحاكمه المطلق أن يجنى على الأرواح والأعراض والأرزاق كما يشاء .

ومن الواضح أن التضليل هنا يستند إلى الإرهاب ولا يقوم على براعة الحيلة التى تجوز على غير المضطر للخضوع . فإن دعواهم - ظالمين ومظلومين - على السواء أظهر من أن يقبلها سامع برىء من الخوف أو التغفيل .

وليس هذا هو الواقع الذى تنكشف عنه نتائج الحكم فى صميم البلاد الروسية وحدها ، بل هو الواقع فى كل مكان بسطت عليه روسيا شيئًا من نفوذها وحسبته بين ملحقاتها . ونظرة عاجلة على المستعمرات الروسية ، وأشباه المستعمرات الروسية ترينا أنهم لا يبسطون نفوذهم على بلد يفصلهم منه حاجز من الحواجز الجغرافية . فكل مستعمراتهم وأشباه مستعمراتهم ، آسيا وأوربا تقع من بلادهم على مد الذراع من قوة الإرهاب المسلح ، ولم يستطيعوا بالتضليل وحده أن يستغنوا عن الإرهاب المسلح أو الجاسوسية المسلحة ، ولهذا تمكن «تيتو» فى يوغسلافيا من الخروج عليهم والاستخفاف بأنظمتهم وتعليماتهم ، فتحداهم وأفلح فى تحديهم ، وهو يدين مع هذا بمذهب من المذاهب الاشتراكية!

وكلما استطاع هؤلاء الشيوعيون أعداء الاستعمار والاستغلال كما يقولون - أن يخضعوا بلدًا غريبًا بقوة السلاح ، حكَّموا فيه القمع والإرهاب تحكيمًا لا يستبيحه شر المستعمرين فى القرون الغابرة ولا فى هذا القرن العشرين ، فالبلاد التى دخلها المستعمرون تعانى من عسفهم ما يثيرها عليهم للمقاومة والانتقاض ولكنها على أية حال تقاوم ويسمع لها صوت وتذاع لها فى العالم قضية . أما حيث نزل الروس فلا بقية بعد السيف للمقاومة والانتقاض ، وخطتهم هنالك للمحق والإبادة لن تكون أرحم من خطتهم فى صميم بلادهم . أين بلجانين؟ أين بريا؟ أين ملنكوف؟ أين مولوتوف؟ أين قبل هؤلاء مئات ومئات من الأنداد والنظراء ، وممن تخشى محاسبتهم أو مقاومتهم فى وقت من الأوقات؟ إن الحاكم الذى يزيل هؤلاء عن طريقه فى وضح النهار لن يترك فى بلاد المغلوبين رأسًا يرتفع للحساب والمقاومة ، ولن يدع فيها أحدًا يهم بالحركة أو يقدر عليها إن همَّ بها .

غول من الوحشية والشيطانية تبلى به الأمم فى هذا الزمن ولا سلامة لها منه إلا بالقضاء عليه ، وتلك هى «تصفية الختام» للمذهب الذى ملك أمة فلم يقدر على حكمها بغير الإرهاب والتضليل ، ويريد أن يحكم الأمم جميعًا - والعياذ بالله - على هذا المنوال .

* * *

تحدّى الإله وَمَعْنَاه[1]

من أنباء الملاحدة الماركسيين أن أحدهم وقف فى إحدى محطات الإذاعة فنادى «الله» : إنه ليتحداه إن كان موجوداً لينسفن هذا البلد وليمحون تلك الدولة ، أو فليعلم الناس جميعًا أنه خرافة ليس لها وجود .

إن هذا الملحد المتحدى لا يفهم ما يفهمه الناس من كلامه بغير حاجة إلى التأويل الطويل .

إنهم يفهمون منه مبلغ ما يدركه الملحد الماركسى من معنى الربوبية ومعنى القدرة ومعنى «السلطة» على التعميم .

فهو لا يفهم من تحديه الإله على هذا الوجه إلا أن الإلهية سلطة غاشمة يثيرها التحدى فلا يسعها إلا أن تظهر قدرتها أو تنزل عن كل حق فى إثبات وجودها .

فهذا الملحد الماركسى لا يعقل أن يوجَد الإله ويقدر على كل شىء ثم يترك من يتحداه سليمًا بعد ذلك طرفة عين ، دون أن ينكل به ويعجل برد تحديه إليه .

وما الذى يمنع السلطة الغاشمة أن تبطش بمن ينكرها؟

لا يمنعها عنده إلا مانع واحد ، وهو أنها كما قال ذلك الملحد الماركسى خرافة ليس لها وجود .

هذا هو الفهم الوحيد الذى يفهمه لمعنى الإلهية من يفوه بذلك التحدى على مسمع من العالم ، وهو يحسب أنه قد أفحم به من يؤمنون بالله .

وإلا فكيف يفوه بذلك التحدى عاقل يفهم أن الإلهية «سلطة» لها نظام ولها حكمة ولها مشيئة تتبعها ولا تنحرف عنها لاستثارة أو استرضاء؟

من كان يؤمن بأن الإلهية سلطة لها نظامها وحكمتها فمن اليسير عليه أن يعلم أنه لا يهزها بتحديه فيخرجها من ذلك النظام ويذهلها عن تلك الحكمة .

---

(١) مجلة الأزهر سبتمبر ١٩٥٩ .

وقد يسع الطفل الصغير أن يكف عن مثل هذا التحدى لأبيه إذا عرف له صفة من صفات العقل والحكمة ، فليس بالطفل الذكى من يقول لأبيه : إن كان لك قدرة اضرب فلانًا حتى يهلك أو انهض بهذا الحمل حتى آذن لك بإلقائه!

فمن اليسير على الطفل الذكى أن يدرك أن أباه خليق ألا يجيب هذا التحدى على هواه ، ولا ينفى ذلك عنه أنه ذو قدرة وأنه يستطيع أن يهلك فلانًا وأن ينهض بالحمل المقصود إذا أراد .

فالملحد الماركسى أسخف من الطفل حين يخطر له أن يتحدى إلهًا حكيمًا يضع الأشياء فى مواضعها كما يقدرها فيزعم أنه «غير موجود» لأنه لو كان موجودًا لأبطل تلك الحكمة وأوقع الخلل فى ملكه ، خوفًا من الريب فى وجوده ، وفرارًا من الملحدين أو المؤمنين أن يظنوا به الظنون .

ومن كان يفهم الإلهية على أنها سلطة رشيدة فلن يتحداها أن تفعل غير ما أرادت أن تفعله منذ الأزل ، وغير ما تريد أن تفعله إلى آخر الزمان ، لأنه إذا استطاع بكلمة من كلمات التحدى والاستثارة أن يغير ما تأبى تغييره فذلك هو البرهان الذى ينفى وجودها أو ينفى حكمتها على أقرب الفروض .

فلو شاء الله أن ينكشف وجوده للفكر والضمير كما تنكشف الأشياء لجميع الأبصار لفعل ذلك بإرادته منذ وجدت الأفكار والضمائر والأبصار ولم ينتظر حتى يفعله منقادًا للخوف من الاتهام أو طمعًا فى التملُّق والثناء .

ولقد يحق للملحد الماركسى أن يسأل فى هذا المقام : ولمَ لا يشاء؟ ولمَ يترك الناس ينكرون ويثبتون أو يبحثون ويرتابون؟ ولمَ لا يكشف لنا جميعًا حقيقة وجوده على نحو يبطل فيه الخلاف وتزول الفوارق ويمتنع الشك والضلال؟

إن هذه الأسئلة أقرب إلى العقل من ذلك التحدى الأحمق الذى يثبت حماقة صاحبه ولا ينفى حكمة الإله .

ولكنها أسئلة لا تحتمل اللجاجة فيها بعد قليل من التبصر والروية ، بل بعد قليل من التصور إذا استطاع السائلون أن يتصوروا كيف يكون هذا الإيمان ، وكيف تكون الضمائر التى تهتدى إليه .

إنها لا تكون إلا كما تكون الآلات أو كما تكون العجماوات .

إن العلم بوجود الله كما نعلم بوجود المنظورات بالعين يلغى الضمائر والعقول ، ويبطل جهود النفس الإنسانية فى امتحان الخير والشر والهداية والضلال .

والمعرفة بحاسة البصر معرفة يتساوى فيها الإدراك كما يتساوى إدراك الآلة وإدراك الحيوان ، فهل هذه هى المعرفة التى تليق بالإنسان المسئول عن ضميره ، الباحث عن هدايته المترقى بسعيه واجتهاده؟ وهل يطلبون أن يتساوى الناس فى مدركات الضمير وحدها ، أو يطلبون أن يتساووا فى مدركات الحواس وملكات الأجسام والأفهام ومقادير الأعمار والأيام؟ وهل هذا العالم الإنسانى الذى يتألف من نسخة واحدة متكررة هو عندهم عالم المثال المنشود ، وهو العالم الذى تثبت به حكمه الله ووجوده ويستقيم عليه أمر الوجود؟

أن أهون ذرة من التراب لا تعطينا حقيقتها الكاملة فى لمحة عين ، ولا نستغنى فى عرفانها والانتفاع بها عن جهود العمل والتفكير والتحليل لندرك منها بعض ما يدرك ولا نقول كل ما يدرك ، لأننا نجهل كنه الذرة الترابية وغير الترابية حتى الآن ، ولعلنا سنجهل هذا الكنه فى قراره ومداه إلى أن يشاء الله .

ويحدث هذا ولا يرى فيه الملحدون الماركسيون عجبًا منكرًا ولا شذوذًا عن الوضع الصحيح والرأى السديد ، بل يقيسون التقدم الذى يدعونه بمقدار ما حصلوه ويحصلونه من هذه الحقائق ولو كانت معلقة بأهون الأشياء .

وإن الشمس على جلائها لتخفى عليهم الآن بعد أن خفيت على الأقدمين دهورًا بعد دهور ، ولقد كانوا يحسبونها كقرص الغربال فأصبحوا يعرفون اليوم أنها أكبر من الأرض والقمر والسيارات ، وكانوا يحسبونها تدور فأصبحوا يعلمون أن الأرض هى التى تدور . وكانوا يجهلون سرعتها ومسافاتها فأصبحوا يعلمون الآن كم هى بالدقائق وكم هى بالأميال .

إلا أنهم لا يزالون يجهلون منها أضعاف ما عرفوه ، ولا يزالون يبحثون عن مصدر حرارتها فيخلطون بين النقيضين ويزعمون مرة أنه من تكوين العناصر ، ومرة أخرى أنه من تفتيت العناصر وانشقاقها ، ولا يدرون على التحقيق هل يندفع اللهب من باطنها إلى ظاهرها أو يرتد من ظاهرها إلى جوفها ، ولا يستغربون من نظام الكون أن تكون شمسه الساطعة بهذا الخفاء ، وأن تحار فيها العقول هذه الحيرة ، وهى أم الضياء .

فما بالهم يريدون من الحقيقة الإلهية أن تكون أقرب منالاً من حقائق هذه الكائنات التى لا يدعون لها عظمة الربوبية ولا جلالة الأبدية!

وما بالهم ينتظرون من حقيقة الحقائق أن تحيط بها لمحة عين ، ويستنكرون السعى إلى غاية الحقائق من متناول الأسماع والأبصار!

إن العلم بوجود الله مطلوب ، ولكنه علم لا قيمة له إذا كان يلغى العقول ويعطل الضمائر ويبذل لمخلوق لا فضل له فى إدراك أقرب الحقائق وأبعدها على الآلة والحيوان .

وقبل أن ينتقد الناقد ما ينتقده من هذه العظائم الجلّى عليه أن يتعلم كيف يقترح وكيف يصحح ما ينقده ولا يرتضيه .

إن بحث العقول والضمائر عن الله منتقد عندهم وغير مفهوم .

فلنقل ما يقولون هنيهة لنسألهم : وما هو المفهوم المنزه عن الانتقاد؟ أهو إدراك الله بغير بحث؟ أو الاستغناء عن البحث فى أمر الله وحده أو فى جميع الأمور؟ وهل عندهم أن الإله الموجود الحكيم هو الإله الذى تقاد مخلوقاته الكبرى أو الصغرى بحبال الغريزة على غير فهم ولا محاولة ولا تمييز بين ما يظهر وما يخفى ، وبين ما يكبر وما يصغر ، وبين ما تتصرف فيه المدارك وما يسلبها التصرف والاختيار؟

أهذا عندهم هو الإله الموجود الحكيم؟ تعالى الله عما يصفون!

فما من شىء هو أثبت لوجود الله من تنزيه مخلوقاته عن هذا العطل فى العقول والضمائر ، وما نتحداهم أن يؤمنوا وهم غير أهل للايمان ، وإنما نتحداهم أن يتصوروا إلهًا حقيقًا بالعبادة على الصورة المرتضاة لديهم ، فإنهم ليعلمون إذن راغمين أن الإله الذى لا يستحق البحث هو الإله الذى يأباه العقل السليم ، وأن الإله الذى نبحث عنه لهو هو الإله الموجود .

* * *

رماد ولا نار[1]

يقول الشيوعيون : إنهم كفروا بالأديان لأنهم درسوا التاريخ وفسروه ، ودرسوا الأديان وعرفوا خباياها .

فإذا ثبت من كلامهم أنهم لم يدرسوا التاريخ ولم يدرسوا الأديان فالأمر الذى لاشك فيه إذن أنهم أناس مأجورون مُسخَّرون ، وأنهم من أخس طغام الأجراء ؛ لأنهم لا يبالون قداسة الدين ولا شناعة الكفر فى سبيل المال الحرام .

وقد نشر بعض اللصقاء بالإسلام فى العراق رسالتهم التى سموها «بالرسالة الرمادية» وترجموها ـ أو ترجمت لهم ـ من لغة أجنبية فثبت منها أنهم أجهل خلق الله بتاريخ بلادهم وما جاورها فضلاً عن تواريخ الأمم الأخرى ، وثبت منها إلى جانب هذا أنهم لا يعرفون شيئًا عن تاريخ مكة وتاريخ النبى عليه السلام ؛ لأنهم يذكرون (اللخميديين) ولا يعرفون أنهم اللخميون أقرب العرب الأقدمين إلى وادى النهرين ، ويذكرون قبيلة (السقيف) وهى ثقيف قبيلة الحجاج الثقفى أشهر من حكم العراق ، ويذكرون القريشيين ولا يوجد إنسان على شىء من الاطلاع على تاريخ مكة وتاريخ بيت النبى فيها يجهل من هم القرشيون أو ينسبهم تلك النسبة التى تنم عن جهل باللغة كالجهل بالتاريخ .

أهؤلاء مسلمون درسوا تاريخ دينهم فأنكروه وبعد أن عرفوا خباياه ، أم هم أذناب فتنة مسخرون يهرفون بما لا يعرفون ، ويقترفون الكفر البواح وهم لا يبالون ما يفعلون؟ .

لا حاجة إلى البحث عن التاريخ للعلم بحقيقة هذا الكفر وحقيقة هذه الدعوة ، فإن الحقيقة التى ينطق بها كل حرف من حروف الرسالة (الرمادية) أنهم «كفار للبيع» . . . دراهم معدودات من كل باذل مال ، ولابد أن يكون بيعًا رخيصًا وصفقة خاسرة ، لأنها صفقة جهل يصطفق عليها جهلاء .

---

(١) الأزهر ديسمبر ١٩٥٩ .

وفيما يلى أمثلة شتى تدل على أن هؤلاء «الباحثين العلميين التقدميين العارفين بالتاريخ والدين» لم يطلعوا على كتاب الإسلام ولم يكلفوا أنفسهم مداراة جهلهم بالرجوع إليه بعد وصول الرسالة الرمادية إلى أيديهم ، لأن المهم فى الأمر أن تصل النقود إلى تلك الأيدى وعلى الدين والدنيا بعدها العفاء!! .

يقول الرماديون : «واحتفظ الإسلام أيضًا بعبادة الأرواح والجن فى حين أن أسماء الآلهة القديمة أصبحت نعوتًا لله . وهكذا أصبح اسم الإله رحمانا الذى كانت تمارس طقوسه قبل أن ينشر مسيلمة تعاليم الحنفيين فى مكة ويثرب واليمن» .

هكذا يقال بكل ثقة الجاهل المكابر ، ولو كلف أصحاب هذا المقال أنفسهم نظرة فيما جاء من القرآن الكريم عن الجن لقرءوا فيه من سورة الأنعام : ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ وقرأوا فيه من سورة الصافات : ﴿ **وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩)** ﴾ .

ولم يقرءوا فيه كلمة واحدة عن الجن توجب لهم عبادة أو رعاية فى أعناق المسلمين .

أما تعاليم «الحنفيين» كما قالوا فمتى نشرها مسيلمة فى مكة والمدينة؟ ومتى دان المكيون باسم الرحمان وقد اعترضوا فى صلح الحديبية على ابتداء الكلام باسمه ولم يقبلوا البسملة فى مفتتح الكلام؟

ومن هو هذا الإله صاحب الطقوس والشعائر التى استعارها النبى ﷺ من اليمانيين؟ أكانت هذه الطقوس والشعائر عبادة وحدانية كالتى جاء بها الإسلام؟ فمن هو النبى الذى جاء بها إلى أهل اليمن ، ولماذا أحجم هؤلاء عن الدعوة الإسلامية التى استعيرت منهم وجاءتهم باسم ربهم المعبود فيهم؟

أم تُرى كان (الرحمان) صفة مستعارة من اليمن ، فمن أين يا ترى استعيرت صفات الله التى جاوزت التسعين؟

كل ما فى هذه الأسطورة أنها تخريفة من تخريفات اثنين من المستشرقين موردتمان ومولر Mordtman and Muller يفهمان الأسماء العربية كما فهم

بعضهم اسم أبى بكر رضي الله عنه فقال : إنه سُمِّى بذلك لأنه كان والد الفتاة البكر التى بنى بها النبى ﷺ ! أو كما فهم بعضهم اسم الصعيد فقال إنه سُمِّى بذلك لأنه مصر «السعيدة» أى Egypt Felix أو كما فهم بعضهم معنى القصيدة فقال : إنها سميت بذلك لأنها معنى مقصودا! .

هذان الخرفان خلطًا فى قصة سخيفة عن البسملة يدعى رودويل Rodwel مترجم القرآن أنه فهمها من دراسته للكتاب وفهم ـ من ثم ـ لماذا بدئت السور بسم الله الرحمن الرحيم ثم عدل النبى عن ابتداء السور بها فى أخريات أيامه ، فقال رودويل هذا فى هامش الصفحة الحادية والسبعين بعد المائة من ترجمته : (إن الكفار سمعوا محمدًا يبتهل قائلاً : يا الله يا رحمن . فحسبوا أنه يدعو إلهين اثنين ، ولما سقط هذا الابتداء من سور القرآن الأخيرة أصبح مفهومًا أن محمدًا كان يريد أن يقرن اسم الرحمن باسم الله ثم خشى أن يحسبهما الناس إلهين اثنين فأمسك بعد ذلك عن ذكر الرحمن) .

ثم قال برودويل : «إن الحميريين كانوا يصفون أربابهم بهذا الاسم ، ولكن جذور هذه الكلمة غير موجودة فى اللغة الحبشية» .

أرأيت دراسة التاريخ؟ أرأيت دراسة الدين؟ أرأيت التحقيق العلمى التقدمى الذى يخرج المؤمن من دينه ويذهل الموقن عن يقينه؟ .

إن محمدًا قد ترك البسملة وأسقطها من السور الأخيرة لأنه خاف من اسم الرحمن المستعار أن يشارك اسم الله فى عبادات المسلمين ، فما هى السور الأخيرة التى سقط منها اسم الرحمن؟ وكم سورة هى؟ ولماذا لم يحذف هذا الاسم من بقية السور التى بدئت بالبسملة ولم تزل مقروءة محفوظة فى حياة النبى وبعد وفاته صلوات الله عليه؟ .

إن العلامة اللبيب مترجم القرآن ودارس اللغات العاربة والمستعربة قد فهم كل هذا من ورود سورة واحدة هى سورة التوبة بغير بسملة ، وسببه كما يعلم كل مطلع على الكتاب أن النبى ﷺ لم يأمر بها وقال ابن عباس رضي الله عنه : «إن البسملة فيها رحمة وأمان وهذه نزلت لرفع الرحمة والأمان عن المشركين» . فلما نزلت ولم يسمع المسلمون البسملة فى مستهلها تحرجوا من وضعها وحسب بعضهم أنها مكملة لسورة الأنفال كما هو معلوم .

ومثل هذا التحرج البالغ فى إثبات كلمات الكتاب المبين خليق أن يعلم المفترين أنه كتاب لا يزاد فيه حرف لم يسمع فى موضعه ، ولو سمع مثله فى كل سورة ، ولكن الافتراء أسهل شيء على هؤلاء الجهلاء المضللين ، فلا حرج عندهم بعد علمهم بهذه الأمانة الإسلامية فى نقل القرآن أن يهذروا فى كراستهم الرمادية قائلين : «إن هذا الكتاب يحتوى على ١١٤ فصلاً بأطوال مختلفة ألف فى عهد الخلفاء ، فقد وجدت حتى فى القرن التاسع أو العاشر نسخ من هذا الكتاب تختلف عن النسخة الشرعية . . . ولم يستطع مؤلفو القرآن إخفاء تلك الاعتراضات بل اكتفوا بحذف بعض الكلمات غير المقبولة» .

ولا أدل على سهولة التهجم عند هؤلاء الناس من علمهم بهذا الحذر الشديد فى جمع آيات القرآن ثم ادعائهم أن الخلفاء يجترئون على تأليفه وأن المسلمين ظلوا إلى القرن العاشر للهجرة ينقحونه ويحذفون منه ويضيفون إليه ، فلو كان لهم ذرة من التحقيق التاريخى الذى يزعمونه لما أقدموا على هذه الدعوى بغير سند من الواقع يثبتونه ويثبتون حجته والبينة عليه ، وأقل ما ينبغى من السند الصحيح فى مثل هذه الدعوى أن يكونوا على علم باسم الخليفة الذى اشترك فى التأليف المزعوم ، وعلى علم بنص الآية التى مسها التنقيح مع موجباته ودواعيه ، أو مع بيان الوسائل التى استطاع بها الخليفة (المؤلف) أن يخفى الأمر على قراء الكتاب المتداول فى أيدى الملايين والمحفوظ فى صدور الألوف . فأين هو هذا السند؟ وأى سند أقل منه يكفى للاجتراء على تلك الفرية بتلك الثقة؟ .

ومن سوء النية والإصرار على الاتهام والتخبط فى التهم بين المتناقضات أن هؤلاء الناس الرماديين يعلنون أن القرآن الكريم غير قاطع فى تحريم الربا ولا يسألون أنفسهم ولا يخطر لهم أن أحدًا سيسألهم : وكيف يكون النص على تحريم أمر من الأمور إذا كانت نصوص القرآن فى أمر الربا غير قاطعة فى تحريمه؟

فالآيات القرآنية التى يعلقون عليها تقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ ﴾ .

فكيف تراهم يكتبون نص التحريم ليكون النص قاطعًا فيه؟

إنهم يقولون فى كراستهم : «إن بعض آيات القرآن تحرم المراباة حماية للفقراء والمحتاجين ، وكان ذلك جزءًا من سياسة الأنبياء لجلب رضى الفقراء . وتعتبر السياسة ناقصة ، فما الفائدة من تحريم المراباة عند وجود الآية : وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون؟ . .» .

وتعجب حين تقرأ هذا التعليق فلا تدرى ماذا فهموا منه؟ هل يفهم منه أحد أن القرآن يبيح الربا لأنه يزجر من يأخذه ولا يبيح له غير أخذ الدين من مدينه بغير زيادة؟ أهذا هو النص الذى يبطل فائدة التحريم؟ فما هو النص الذى يفيد فيه .

ولا يخفى تخبط القوم فى الاتهام بكل وسيلة ، بل فى الاتهام بالحجة ونقيضها فى وقت واحد .

فهل جاء الإسلام من إقطاعيين يحافظون على مصالح الاستغلال والمراباة بالأموال؟ .

هل جاء الإسلام من هؤلاء أو هو قد جاء من الفقراء والمحتاجين ليرضيهم ويغضب المرابين والمستغلين؟

ينبغى أن يكون قد جاء من هؤلاء ومن هؤلاء فى وقت واحد ، وأن يكون الاتهام قائمًا على كل حال ، ولا لزوم للدليل فى أية حال ، بل لا لزوم للالتفاف إلى التناقض بين الدليلين ، لأن الالتفاف إلى تناقضهما يسقط الاتهام ، وماذا يصنع القوم بغير اتهام كيفما كان ، ببرهان أو بلا برهان؟ .

ويوشك القوم أن يلحقوا بالقرآن كل خبر من أخبار الدول الإسلامية يدخل فى شعائر الدين أو ينسب إلى ذى شأن أو غير ذى شأن من المسلمين .

قالوا عن ثروة الخلفاء : «إنها لم تقتصر على المال فحسب ، بل شملت بعض المخلفات الثمينة كالسيف والعصا والعباءة التى قيل إنها كانت تعود إلى النبى محمد . وقد أثبت تحقيق علماء البرجوازيين أن تلك المخلفات كانت مزورة . فقد ذكر (بيريت) فى كتابه «الإسلام» فى صحيفة ١٤ مجلد ١٧ نشر فى برلين سنة ١٩٢٨ بأن الأدلة تجعلنا نشك فى صحة الأسطورة القائلة بإعطاء الرسول لعباءته إلى الشاعر كياجو بن ذكير والتى كانت الأساس

لاعتبار الإسلام لتلك العباءة إحدى الذخائر ، ولا يوجد فى أى من المراجع القديمة حتى فى كتاب ابن هشام كلمة واحدة عن إعطاء العباءة أو تقديسها ، ولم تذكر هنا شيئًا عن المضاربات التى دارت حول هذه الذخيرة . فقد بيعت عباءة الرسول عدة مرات بربح وعرضت للجمهور بعد احتراقها فى بغداد على يد المغول سنة ١٢٥٨م فى مسجد العبادة المقدسة فى اسطنبول ، وليست أسطورة هذه العباءة بفريدة بين غيرها من الطلاسم والدكاكير فى الإسلام وفى غيره من الأديان الأخرى» .

فالذين نشروا هذه الكراسة الرمادية من اللصقاء بالإسلام فى العراق يجهلون اسم كعب بن زهير الشاعر المشهور وينقلونه فى مصادرهم المحققة باسم (كياجو بن ذكير) ويدلون بذلك حقًا على أنهم غربلوا التاريخ وفسروه ونفذوا إلى أسراره ومضامينه ولم ينكروا الدين إلا لأنهم فهموه حق فهمه من هذه الدراسة التاريخية على أوفاها !!

وهؤلاء هم الذين عرفوا تاريخ النبى ﷺ وعرفوا كل ما روى عنه من الحقائق والأباطيل ، فعرفوا من بينها شاعرًا لم يخلقه الله يسمى كياجو بن ذكير ، وعرفوا بعلمهم الزاخر أنه اسم عربى يتسمى به العرب فى صدر الإسلام .

وهؤلاء هم أصحاب الإلحاد المفسرون الماديون للتاريخ ولا شىء عندهم غير المادة والتاريخ .

فإذا صح كل ما قالوه ونشروه عن هذا (الكياجو) العربى فما هو ذنب الإسلام؟ وما هو ذنب النبى ﷺ ؟ وما هو ذنب المؤرخين أو ذنب مؤرخ النبى ابن هشام؟

بردة قيل إن النبى خلعها على شاعر معلوم أو مجهول ، ولم يقدسها النبى ولا جاء فى كتب دينية أنها من المقدسات أو المحفوظات للتقديس والتبريك . فماذا فى وجود هذه البردة من مطعن فى الكتاب أو فى السنة أو فى شرائع المسلمين؟

وإذا ظهر أحد - مثلاً - بخطاب صحيح أو مدسوس على كارل ماركس فتغالى به أتباعه وتوارثته المتاحف بأثمانه وما فوق أثمانه ، فماذا فى ذلك من التفنيد للمادية والماديين ومن البرهان المتين على بطلان هذا الدين؟ وما الذى

يوجب على المؤمنين بالمادية الاقتصادية أن يدحضوا هذه الإشاعة الشيوعية أو البرجوازية؟

كان للنبى ﷺ بردة خلعها على شاعر . لم يكن للنبى ﷺ بردة خلعها على شاعر .

كان بعض الناس يصدقون فى هذه الرواية أو يكذبون فيها ، وكانوا يستغلونها على الحالين فيحسنون أو يسيئون استغلالها .

على كل فرض من هذه الفروض ، ماذا فيها جميعًا من النقد العلمى الذى يتحراه طلاب الحقيقة عن دعوة الإسلام؟ بل ماذا يصنع الشيوعيون اليوم فى متاحفهم التاريخية إذا عرض عليهم أثر من تلك الآثار النبوية للشراء؟ أليس فى متاحفهم ما يشترى لقيمته الأثرية بالمال الطائل والجهد الجهيد؟ أليس الضريح الذى شيدوه للزعيم لينين تراثًا له تكاليفه وله حجاجه وطلاب البركة لديه؟ أليس فى متاحف العلوم المادية حول الكرة الأرضية مخلفات وموروثات تحسب أثمانها بالألوف والمئات وتفتح أبوابها كل يوم للزائرين والزائرات والمعجبين والمعجبات؟ فلماذا يضنون بشرف كهذا الشرف أو بخير كهذا الخير على المسكين «كياجو بن ذكير»؟

أما إنه لشاعر بليغ هذا الكياجو الذى لا هو فى الأحياء ولا فى الأموات .

إنه لشاعر يكفى اسمه المختلق لتمزيق الكراسة الرمادية على رءوس ناشريها ، وإظهارهم بحقيقتهم التى يكتمونها وإن لم يجهلوها .

حقيقتهم أنهم تجار فى سوق الجهل والضلال يبيعون جهلهم لمن هو أجهل منهم ، لأنه يشتريه بالمال ، وهو عندهم رب الأرباب وموئل الآمال .

* * *

الإنسَانيّة مِن مَاضيهَا إلى مَصيرها[1]

ماضى الإنسانية مسافة شاسعة ، بعيدة الآماد والأطراف ، سواء حسبناها بالأيام ، أو بالأماكن ، أو بالأنفس ، أو بالأوراق المكتوبة عنها ، لن يكون الحساب إلا بالملايين وأضعاف الملايين .

ولكننا نحسب مع هذا أنها ، على اتساعها وامتدادها ، قابلة للتلخيص فى سطرين ، إذا كان لها معنى .

فإذا كانت حياة الإنسانية عبثًا ، ولم يكن لها وجهة ولا نظام ، فذلك ما يقال فى سطر واحد .

وإذا كانت ذات وجهة منتظمة فهذه الوجهة تتلخص فى فكرة كبيرة ، وهذه الفكرة الكبيرة توضع فى كلمات معدودات ، ولو بالعنوان .

هذه المحاولة هى التى حاولها عالم من أكبر علماء التاريخ فى زماننا ، إن لم يكن من أكبر علمائه فى جميع الأزمنة ، وهو الأستاذ «أرنولدتوينبى» صاحب الكتاب المشهور «بدراسة فى التاريخ» .

بدأ المؤلف العلامة تأليف هذا الكتاب فى سنة ألف وتسعمائة وإحدى وعشرين ، بعد نشوب الحرب العالمية الأولى بسنتين ، وأتمه وأصدر آخر أجزائه قبل ختام السنة الماضية ، فانقضى عليه فى تأليفه ثلث قرن كامل ، وتم الكتاب كله فى عشرة أجزاء لا تقل صفحاتها عن سبعة آلاف صفحة ، ولم ينته من أجزائه الأخيرة حتى بدا له أن يعيد النظر فى بعض الآراء التى ظهرت فى الأجزاء الأولى ، ولكن المهمة شاقة والتكاليف كثيرة . فتبرع له بعض المعاهد العلمية بالنفقة اللازمة للسياحة فى مواطن الحضارات الدائرة والإقامة حيث تلزم الإقامة زمنًا بين آثار المكسيك والشرقين الأقصى والأدنى ، ولا تنتهى هذه السياحات التاريخية قبل سنتين من ظهور آخر جزء فى الكتاب .

---

(١) الإذاعة ١٩٥٥/٧/١٦ .

مجهود من مجهودات الجبابرة ، وعلم واسع يؤهل صاحبه للحكم على دلالة التاريخ الإنسانى من مبتدئه إلى عصره الحاضر ، أو يؤهله لاستخراج الوجهة المرتسمة من حوادث التاريخ ، ثم استخراج الفكرة التى تتجلى فيه عصرًا بعد عصر وحضارة بعد حضارة ونزاعًا بعد نزاع وسلامًا بعد سلام ، وهذا هو الذى سميناه تلخيص التاريخ الإنسانى فى سطر أو سطرين . فما هى الفكرة التى يلخصها السطر والسطران فى رأى هذا المؤرخ الكبير؟ ما هو الرأى الذى يراه فى تاريخ الإنسانية أحق علماء التاريخ بإبداء هذا الرأى فى القرن العشرين؟

خلاصة هذا الرأى سطر واحد وهو «أن التاريخ هو طريق الإنسانية إلى الله» .

هذا هو الإجمال الذى شرحه المؤرخ الكبير فى سبعة آلاف صفحة ، وقرر فى ذلك الشرح أن تواريخ الأمم والحضارات والعقائد والأخلاق لا معنى لها إن لم يكن معناها هداية النفس الإنسانية إلى حرية الضمير برعاية الإله .

فكل أمة ، وكل حضارة ، وكل عقيدة فإنما تأتى لترفع فى الطريق مصباحًا صغيرًا أو كبيرًا ينير الطريق وينير ساحة الكون كله للعلم بحقائق الوجود ، أو للعلم بحقيقة الحقائق وهى مصدر الخلق والتدبير فى الوجود .

ومن تقريرات المؤرخ الكبير أن الإنسان قد يصطنع الأعمال والحرف ويخلق العلوم والمعارف ، ولكنه لا يخلق عقيدته الدينية بل تأتيه العقيدة مفروضة على سريرته وشعوره ، قابلة للبحث فى بعض جوانبها غير قابلة لشىء سوى التسليم فى جوانبها الكبرى ، ولهذا تسخره العقيدة ولا يسخرها كما يهوى ، وإن خيل إليه أنه يعمل فى تسخيرها بهواه .

وضرب المثل لذلك بعقيدة الإسلام : أراد الفرس الذين دخلوا الإسلام أن يستخدموها فى إحياء القومية الفارسية فاستخدمتهم هى فى توطيدها ودراسة معارفها ، وجاء المغول إلى بلادها من أقصى الشرق ليقيموا «سلطتهم» على أركانها فأصبحوا حراسًا لتلك الأركان ، ولا يتأتى تسخير عقيدة ما إلا إذا غلبتها عقيدة أقوى منها وأحق بالعمل فى تاريخ الإنسانية ، فليس أقوى من الإيمان على تسيير الإنسان والارتقاء به على معارج الحضارة فى طريقة إلى الله .

وعند العلامة «توينبى» أن هذه «المهمة» الأبدية مهمة «تعاون» بين الحضارات والعقائد ، يؤدى كل منها بعض الواجب لتحقيق الواجب كله فى النهاية ، ولكن

هذا الواجب يكبر مع الزمن كلما كبر الإنسان ، فلا يزال الإنسان فى سعى متواصل ، ولا يزال متطلعًا إلى الكمال .

وستأتى القرون بعد القرن العشرين فلا تذكر منه أنه قرن الصناعة الكبرى ، ولا أنه قرن الطيارة وعجائب المخترعات ، كلا ، بل لا تذكر منه أنه قرن الذرة والقذيفة الذرية وإنما تذكر منه أنه القرن الذى أصبحت فيه الدعوة إلى «الأخوة الإنسانية» موضوعًا من موضوعات العلم والعمل ، وبرنامجًا من البرامج الواقعية التى يتعاون عليها الأقوياء والضعفاء ، ولا يستغنى فيها قوى عن ضعيف .

هذه هى أمانة الماضى لدى القرن العشرين فى رأى مؤرخ القرون والأجيال ، فما هى أمانة القرن العشرين يا ترى لدى القرن الحادى والعشرين أو الثانى والعشرين أو ما يلى من القرون؟

هل جاء القرن العشرون يا ترى ليحمل لها الهلاك والدمار فى قذائفه الذرية؟ أم جاء لها بمصير أكرم وأسلم من هذا المصير؟

وهنا ننتقل من ماضى الإنسانية إلى مصيرها .

ننتقل إلى المصير بمثل السرعة التى انتقلنا بها - مع العلامة توينبى - من مواضى الإنسانية جميعًا إلى وجهتها المرسومة .

ولكننا لا ننتقل فى صحبة توينبى ودراسته التاريخية ، بل ننتقل بين الحاضر والمصير فى صحبة المئات من المتسائلين الحائرين ، وإن العلماء بين الحائرين لأكثر من الجهلاء ، وإن الحكماء لأكثر من الحمقى .

مئات من الناس يتساءلون اليوم : ما مصير الإنسانية؟!

وكلما حدث حادث فى كتلة الشرق أو كتلة الغرب عادوا إلى السؤال المتكرر المتحير : ما مصير الإنسانية؟ ما مصير الإنسانية؟

هل تنفجر براكين الحرب العالمية؟

وإذا انفجرت هذه البراكين فهل يستخدمون فيها القذائف الذرية؟

وإذا استخدموا فيها القذائف الجهنمية فما نتيجتها بالنظر إلى المنهزمين؟ وما نتيجتها بالنظر إلى المنتصرين؟ وما نتيجتها بالنظر إلى سائر الأمم التى لا تحسب مع هؤلاء ولا مع هؤلاء؟

بل يتساءل المتسائلون المتحيرون : هل يكون فى تلك الحرب المرهوبة منتصر ومنهزم؟ وهل تبقى من الدنيا بقية تساوى ثمن النصر وتكافىء وبال الهزيمة؟

ويحق للمتسائل العالم قبل الجاهل ، والحكيم قبل الأحمق ، أن يحار فى العاقبة وأن يفزع من المصير .

فمن المتفق عليه أن قذيفة «هيروشيما» تعد سلاحًا مأمونًا بالقياس إلى القذائف المجهزة للاستعمال فى الوقت الحاضر . فإن لم تكن هذه القذائف مجهزة فعلاً ففى الإمكان أن تجهز القذيفة التى تساوى فى قوتها خمسة وعشرين ألف ضعف وزيادة من قذيفة هيروشيما .

ومن المتفق عليه أن أخطار القذيفة الجهنمية لا تنحصر فى موضعها ، ولا فى المقصودين بها ، لأنها ترسل فى الهواء ذرات من القوة الإشعاعية تعود فتنحدر إلى الأرض غبارًا صاعقًا لا يبقى ولا يذر .

ومن المتفق عليه أن مجال الاختراع متسع متجدد ، وأن القذيفة الهيدروجينية ستتبعها أنواع شتى من القذائف ، وأن استخدام العناصر الأخرى فى توليد الطاقة الذرية قد يتيسر غدًا لأمم كثيرة ، ولن يكون استخدام هذه الطاقة مقصورًا على عنصرين أو ثلاثة . ويومئذ تقل تكاليف القذائف وتتسع ميادينها وتتفاقم أخطارها ، وتصبح القذيفة الموجودة اليوم كأنها سلاح الأمس بالنسبة إلى أسلحة القرن العشرين .

فما مصير الإنسانية بعد هذه النذر والأراجيف؟

لا فائدة من منع السلاح ، بل الفائدة المرجوة كلها معلقة - فى رأى الخبراء - على منع الحرب بأنواعها ، أو منع الحرب العالمية بكل ما يستطاع .

فهل منع الحرب العالمية مما يستطاع؟

وإذا لم يكن مستطاعًا فهل يستطاع منع السلاح الذرى وتحريم القذائف الذرية فى جميع الميادين؟

إن سوابق الدول فى الحروب لا تبشر بالخير ، ولكن سابقة واحدة يرجى أن تبعث التفاؤل فى نفوس طلاب الخير ، وهى تحريم الغازات السامة وإجماع الدول على اجتنابها فى الحرب الأخيرة ، فإذا كانت الدول المتقاتلة قد فهمت أن الغازات

الخانقة خطر لا يؤمن ، فهى أحرى أن تفهم الخطر الأكبر ، وأن تحرص على اجتنابه حرصًا أشد وأبقى من حرصها على اجتناب تلك الغازات .

وعبرة أخرى قد تميل بالدول إلى الحذر من الحروب ، وهى خسارة المنتصرين فى الحروب واضطرارهم إلى معونة المنهزمين والمنكوبين ، فى عالم متشابك متضامن ، لا ينفرد فيه بالضرر صاحب قوة أو صاحب مال .

ونكاد نقول : إن ساسة الدول يدفعون بالأمم إلى الانتحار إذا أقدموا على الحرب العالمية واستخدموا فيها القذائف الذرية . ومتى استطاع ساسة الأمم أن يدفعوا إلى الانتحار ، فهم والأمم التى تطيعهم أهل للهلاك والدمار .

إن الصورة التى تتمثل لنا أبشع من أن نتصورها قياسًا على ما عرفناه من كوارث الماضى والحاضر ، وتكاد تخرج بنا من حيز الواقع إلى حيز الخيال المستحيل ، ولو أن صورة تستحيل فى العقل لفرط بشاعتها لاستحالت هذه الصورة المنكرة ، ولكن البشاعة المفرطة لا تمنع شيئًا أن يكون إذا كان وقوعه من الممكنات ، وكل ما لدينا من أسباب الطمأنينة أن نقارن بين المصيرين أيهما أقرب إلى الإمكان : مصير الإنسانية إلى الانتحار أو مصيرها إلى التغلب على قوة السلاح بقوة الحكمة وقوة الأخلاق مجتمعين . ومن حسن الرجاء وحسن التقدير معًا أن نرجح المصير المأمون على المصير المحذور .

إن المادة الصماء لن تخلق الإنسان ؛ لأن الشىء لا يخلق ما هو أحسن منه وأكمل . فلنعد إلى خلاصة التاريخ الإنسانى متفائلين : إن التاريخ الإنسانى - كما قال أكبر المؤرخين العصريين - إنما هو طريق الإنسانية إلى الله . وفى هذا الطريق يستطيع العقل أن يخلق اختراعًا من جنس القذيفة الذرية يقاومها ويكبح شرورها ويستبقى منافعها ، ويستطيع العقل أن يأخذ بزمام المادة وعناصرها ليقترب بها إلى الله .

* * *

العَـالم العَـربـى اليَـــوْم[1]
The Arab World To-day

«العالم العربى اليوم» اسم كتاب بالإنجليزية ألفه الأستاذ مورو بيرجر Morroe Berger أستاذ علم الاجتماع بجامعة برنستون والمشرف على برنامج دراسات الشرق الأوسط فى تلك الجامعة .

ويقع كتابه هذا فى قرابة خمسمائة صفحة حافلة بالمعلومات الواقعية عن العالم العربى ، مستمدة من مراجع الإحصاء والمشاهدة ، معروضة على أسلوب النظر العلمى فى جملتها ، ولكنها تنظر من وجهة نظر غربية كلما رجع الأمر إلى اختلاف التقدير .

والكتاب مفتتح بفصول متعددة عن القومية العربية فى الزمن القديم ، والقومية العربية فى الزمن الحديث ، وعن العلاقة بين هذه القومية وبين الإسلام بعد بعثة محمد ﷺ ، وموجز ما يقال فيها :

إن الإسلام تقبل كثيرًا من شعائر اليهودية والمسيحية ولكنه نقلها إلى العالم العربى ثم استبدل أواصر العقيدة بأواصر النسب والعصبية التى كانت تجمع قبائل العرب كما كانت تفرق بينها .

والمؤلف يصف الديانة الإسلامية بأنها ديانة «مستقيمة بسيطة» أو بعبارة أخرى «مباشرة فى اتجاهها غير معقدة» وأنها لاستقامتها وبساطتها لا تزال إلى الآن سهلة الاتجاه إلى «الجاهليين» فى القارة الأفريقية ، ولكنه يعود فيقول : إن تقدمها بين هؤلاء الجاهليين ، لا يرجع إلى مجهود مقصود من جانب الإسلام باعتباره قوة عالمية مركزة ، كما يرجع إلى القدوة المباشرة التى تأتى من اتصال المسلمين بغير المسلمين فى أرجاء القارة الأفريقية .

---

(١) الأزهر ، يوليو ١٩٦٣ .

والموضوع المهم فى الكتاب كله هو موضوع الدين الإسلامى والحركات التى يسميها الغربيون بالعلمانية أو الدنيوية Secular وتسمى أحيانًا «باللادينية» عند المقابلة بين سلطة الكهنوت ورجال اللاهوت وسلطة الدولة والحكومة .

ويقرر المؤلف أن الإسلام لم يواجه الخرافات «اللادينية» للمرة الأولى .

فقبل احتكاك المسلمين بالعالم الغربى فى القرن العشرين كانت لهم صلات كثيرة بالأمم التى خالفتهم فى العقيدة وفى آداب الحضارة ، وآخر هذه الصلات من وجهة المبادئ الاجتماعية الفكرية ودساتير السياسة والحكم صلة الإعجاب بالثورة الفرنسية وما نجم عنها بين المسلمين من التنبه لحقوق الفرد وحقوق حرية التفكير ودعوات التجديد والتخلص من القديم .

إلا أن الجديد فى الحركة اللادينية الأخيرة أنها «داخلية» فى العالم العربى الإسلامى وليست بالخارجية الطارئة عليه من غير قومه وبلاده .

فقد كان المسلم يواجه ثقافة اليونان وثقافة الدول الأوربية وثقافة الثورة الفرنسية وهو يستعد لها بالمقاومة على سنة الأمم مع الطارئ الغريب ، أو الطارئ الذى يستدعى المقاومة لأنه يتغلب عليها ثم يخضعها لسيطرته على غير إرادة منها .

أما «اللادينية» بعد جلاء الحكام الأجانب عن البلاد فمصدرها من الداخل لا من الخارج كما كان منذ أوائل القرن الثانى عشر إلى أوائل القرن العشرين ، وليس لها من يقاومها غير المحافظين الذين يكرهون الجديد أو المحافظين الذين يقربون بين القديم والجديد ، ويسميهم الغربيون بالمستحدثين أو «المودرنيست» Modernist .

ومن أهم فصول الكتاب فصل عقده المؤلف للبحث عن الإسلام فى ناحية التشريع هل هو عقيدة دينية دنيوية أو هو كغيره من الديانات التى تنفصل فيها عقائد الإيمان عن شئون الحياة ومزاولات المعيشة ولا سيما شئون الحكم والسياسة؟

وربما ورد السؤال على صورة أخرى فيقال : هل أحكام التشريع فى القرآن مسألة نظام وإدارة حكومية؟ أو هى مسألة أخلاق وسلوك دينى يستحق به المسلم حسن الجزاء فى الآخرة؟

قال المؤلف فى الصفحة الحادية والأربعين : «إن الصلة المكينة بين الإسلام والمجتمع العربى نشأت كما رأينا منذ قام محمد - صلوات الله عليه - بخلق دولة تنتظم العقائد الدينية والمعاملات التى فى الأصل عليها العرب ، وقد شمل الإسلام على الدوام كل

جوانب الحياة الاجتماعية باعتباره قسطاس أخلاق وآداب ولكنه لم ينجح قط فى تقرير شريعة متناسقة من العلاقات بين الناس في مجتمعات المسلمين المختلفة . وقد نبه يوسف شاخت - وهو الباحث الحجة فى هذا المطلب - إلى رأى يقول : إن النبى لم يحاول تبديل العرف القانونى عند العرب ، بل أراد أن يعلم الناس كيف يعملون فى الحياة الدنيا لكى يظفروا برجحان الكفة فى حساب الآخرة» .

قال مؤلف الكتاب ما فحواه : إن الإسلام لا يكون على هذا الاعتبار دينًا دنيويًا ، أو شريعة اعتقاد معيشة «علمانية» فى وقت واحد ، لأن المعاملات كما يوجبها على المسلم هى فرائض أخلاق وعبادة لا يلزم من اتباعها أن تكون دستورًا للإدارة العملية فى نظم الحكومات .

ولكن الكثيرين من الغربيين يحسبون أنه قانون عملى ، لأنه يوصى بما يوصى به من الأحكام والآداب التى تتناولها القوانين .

والمشكلة «العلمانية» فى العصر الحاضر كما يراها المؤلف هى محاولة المسلم المستنير أن يدرك الحقيقة ويحسن تطبيقها عملاً فى هذا الموضوع .

فهل يعتبر هذا المسلم أن دينه تكفل للمسلمين بنظام المعيشة والحياة العملية ، كما تكفل لهم بشئون الإيمان والعبادة؟ أو يتبع فى نظام المعيشة قانونًا موضوعًا لا يرتبط بنصوص الكتاب؟

إن المؤلف يقسم المستحدثين أو «المودرنيست» أمام هذه القضية إلى طائفتين ، طائفة سابقة من أبناء الجيل الماضى ، وطائفة لاحقة من أبناء هذا الجيل .

والفرق بينهما أن أبناء الجيل الماضى الذين درسوا علوم الحضارة الغربية قد درسوها فى ديارها وعاشوا بين أهلها وكانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى من نشأ بعدهم من المتعلمين العصريين ، فعادوا إلى بلادهم غرباء عنها وكادت الصلة بينهم وبين الجمهرة الكبرى من مواطنيهم أن تنقطع كل الانقطاع .

والطائفة التالية من تلاميذ الحضارة الغربية قد عرفوها وهم فى أوطانهم لم يفارقوها ، وقد عرفوها فى دور التعليم كما عرفوها فى بيئات المعيشة الحضرية على الأكثر ؛ لأن هذه البيئات قد تغيرت مع الزمن وتشابهت مظاهرها فى مدائن الشرق ومدائن الغرب على نحو يقارب التشابه بين مظاهر الحضارة فى أمم الغرب نفسه ، حسب اختلاف مواقعها وتقاليدها .

وقد ضعفت دواعى المقاومة للحضارة الغربية بين أبناء هذا الجيل لهذا السبب الواضح ، ولسبب آخر يرجع إلى تقدم المسلمين فى سبيل الاستقلال عن سلطان الحكم الأجنبى ، فإن مقاومة الحضارة الأوربية كانت فيما مضى وجهًا من وجوه التمرد على أبناء تلك الحضارة القابضين على أزمة الحكم والإدارة . فلما زال هذا السلطان ، أو خفت وطأته ، زال معه سبب كبير من أسباب العداء للتجديد العصرى والاستحداث فى فهم الدين .

ويختم المؤلف صفحات الكتاب بأسطر قليلة يقول فيها : إن مستقبل العرب سيكون من صنع أيديهم بعد اليوم ، وسيتولونه ويتولون أمور دينهم ودنياهم كما يفهمونها ، وسيكون للجمهرة الكبرى شأن لا يتجاهله المصلحون بين ظهرانيهم ، لأن هذه الجمهرة قد أصبح لها خطرها المحسوس ، وإن تكن فى بعض البلدان قد أصبحت مهمة فى تقرير سياستها قبل أن تتدرب على ولاية الأمر بأيديها .

قال المؤلف قبل أن يستطرد إلى الفصل الأخير عن التجديد أو الاستحداث وعلاقته بالجماهير :

«إن الحكومات الغربية فى الشرق الأدنى لا تستطيع أن تجد بين العرب طوائف ذات صبغة ديمقراطية حقة - ليبرالية - تسندها وتؤيدها ، وكذلك يرى الباحثون فى الإسلام من الغربيين أنه لا أمل للإسلام المتجدد على الرغم من اعترافهم باعتقادهم فى الإسلام قوة الخلق والحيوية» .

ويتحفظ المؤلف فى إبداء رأيه بين هذه الآراء ، ولكنه لا يجزم برفض ذلك الرأى الذى يرويه عمن سماهم بالباحثين فى الإسلام من الغربيين ، ولا نخاله يستطيع أن يخلص من عادة الوزن بالميزانين فى القضية الواحدة كلما تعلقت بالشرق والغرب فى شئون العقائد ومذاهب الاجتماع .

فهؤلاء الباحثون الغربيون يقدرون أن «استغراب» المسلم أو أخذه بنظام من نظم الحضارة الغربية لا يتأتى على غير وجه واحد : وهو الإعراض عن دينه أو الانقلاب عليه .

فأما استغراب المسيحية فغير مستحيل مع بقاء الغربيين على ديانتهم وهى شرقية كالإسلام فى مصدرها ، وكأنما وُجدت هذه الديانة «الشرقية» غربية منذ اللحظة الأولى ولم «تستغرب» مرات فى كل عهد من عهود التاريخ ، وأول هذه المرات لم يجاوز القرن الأول للميلاد عند انتقالها من فلسطين إلى آسيا الصغرى ثم

بلاد اليونان ، وآخرها فروع المذاهب «الإنجيلية» فى العالم الجديد ، وهى فى أصلها «استغراب» فى بلاد أوربة الوسطى واستغراب فى أمم الشمال وأمم السكسون .

والمسلم فى حساب هؤلاء الباحثين الغربيين يبدو لهم كأنه شخص واحد ولد فى عهد البعثة المحمدية ، وهو بعينه يولد ويعاد ميلاده من جيل إلى جيل ، ومن أمة إلى أمة ، كذلك «اليهودى» التائه الذى تزعم الأساطير أنه عاش منذ أيام السيد المسيح ويعيش إلى يوم عودته فى آخر الزمان!

فهذا المسلم فى عهد البعثة المحمدية هو المسلم الذى يتكرر ميلاده على عهد التابعين ثم على عهد الأمويين ، ثم على عهد الأندلسيين ، ثم على عهد الحضارة الأوربية فى القرن العشرين! فإما أن يحمل معه زمانه قبل أربعة عشر قرنًا أو ينتقل إلى زمان آخر فلا يبقى على عقيدة الإسلام .

ولو نظر هؤلاء الباحثون هذه النظرة بعينها إلى علاقة الحضارة بديانات الأمم على اختلافها لاستقاموا على جادة البحث وإن أخطئوا التقدير . نعم إنهم يستقيمون على جادة البحث لو قالوا مثلاً : إنهما طريقان لا تلتقيان فى كل عقيدة وكل أمة : طريق الحضارة والعلم وطريق التدين والإيمان .

يستقيمون على جادة البحث النزيه وإن أخطئوا الفرض والتقدير .

ولكن الأمر الذى يستحيل عندهم هو بقاء المسلم وحده على التدين مع أخذه بأسباب الحضارة ، ولهذا نقول عنهم : إنهم يزنون بميزانين ، لا يساوون بين الحكمين فى القضية الواحدة .

إنهم لا يقولون : إن الانتماء إلى الدين على سنة التدين فى جميع العصور مستحيل على أمم الحضارة العصرية .

كلا! إنهم لا يقولون ذلك فلماذا يقولون : إن حضارة المسلم وتدينه هما المستحيل بين أمم العالم وحضاراته؟

يقولون ذلك لأنهم يذكرون غيرهم ولا يذكرون أنفسهم حين يتحدثون عن المشرق والمغرب ، وأول ما ينسونه أن الديانة المسيحية التى بقيت فى الغرب هى ديانة شرقية المنبت ، شرقية الأصول والجذور ، شرقية الروح والفطرة ولكنها استغربت مع الزمن مرة بعد مرة ، ووجدوها غربية قبل أن يظهروا هم إلى عالم الوجود غربيين .

❊ ❊ ❊

ديمُوقراطية رعَاوية في شمَال الصومَال[1]

هذا الكتاب واحد من مئات الكتب التى تصدر اليوم تباعًا عن القارة الأفريقية باللغات الأوربية . وقد بدأ التأليف فى هذا الموضوع بالإجمال عن القارة فى عمومها تاريخًا واقتصاداً وسياسة وأخلاقًا وعادات أو عبادات فى المجلد الواحد والمجلدين ، ثم تشعبت البحوث واتسع نطاق العناية بها بين قراء الغرب حتى بلغ بها التخصص والتحديد أن يصدر المجلد الضخم عن شعائر القبيلة الواحدة فى القطر الواحد ، مع التزام الشعائر الدينية الاجتماعية دون غيرها من شئون تلك القبيلة فيما يتصل بالجغرافية أو السياسة أو العلاقات التجارية والاقتصادية ، وصدرت عن الصومال وحدها - فى شمالها دون سائر جهاتها - مؤلفات عدة يستغرق بعضها مئات الصفحات ، ومنها هذا الكتاب فى (دراسة الأحوال الرعاوية والسياسية بين أبناء الشمال) وقد فرغ لتأليفه (أ . م . لويس) بعد أن قضى عشرين شهرًا فى الرحلة بين أقاليم القبائل التى خصها بالكتابة فى هذا المجلد ، واطلع قبل الرحلة وبعدها على مراجع شتى من رحلات السياح والجغرافيين والمستطلعين . ولا ننسى أن البحث عن (أحوال الإسلام) يتقدم البحوث فى كل كتابة عن القارة الأفريقية وعن الأقاليم التى يسكنها المسلمون أو يجاورونها بين أرجاء القارة من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، وقد تعد الكتابة عن هذه الأقاليم التى يسمونها (قرن أفريقية) كتابة خاصة بالإسلام والمسلمين ، سواء اتصلت بحوثها بالأقطار الأثيوبية أو بالجنوب الذى يسكنه أناس على دين الفطرة وتتخلله الدعوة الإسلامية أو دعوة المبشرين من حين إلى حين .

والمؤلف لا يخفى إعجابه بغيرة أبناء الصومال على العقيدة الإسلامية ، ويقول فى مقدمة كتابه : «إن الغريب عن الديارلا يسعه أن يتجنب الشعور بإخلاصهم الصادق لعقيدتهم الدينية وامتزاج الفخر بالإسلام عندهم والفخر بالانتساب إلى السلالة الوطنية . ولا يجهل الصوماليون أنهم شعب من شعوب كثيرة تدين بهذا

(١) الأزهر فبراير ١٩٦٢ .

الدين ، ولكنهم يتخذون من حماستهم له أداة لإبراز ما هم مطبوعون عليه من الشعور العميق بكرامة الأنساب» .

ويقول الرحالة : إن المسلم الصومالى ينتمى - عادة - إلى إحدى الطرق الصوفية ويرعى فيها النظام الدقيق الذى يمتاز به الصوماليون فى اجتماعاتهم العامة ، سواء منها اجتماعات القبيلة لتدبير المصالح المشتركة أو اجتماع أبناء الطريق لإقامة الشعائر والعبادات . ولكن الصومالى قد يجمع بين طريقتين فى وقت واحد ويؤدى شعائره فى كلتا الطريقتين ، لأنهما تتفقان فى اتباع السنة وقضاء الفرائض المرعية فى أحكام القرآن ، وقد يقع الخلاف بين الطريقتين إذا اشتبكت أسبابه بأسباب الخلاف على مسائل المجتمع أو مسائل القبيلة (الرعاوية) ولكنه خلاف قليل الحوادث إذا قيس بالخلاف على المذاهب فى غير هذه الديار .

ومما يجد من أضرار هذا الخلاف أن مشايخ الطرق مسئولون فى العرف العام عن التوفيق بين الخصوم والإصلاح بين القبائل وولاة الأمور فيها أو فى البلاد الحضرية التى انفصلت بعض الانفصال عن تقاليد الريف والبادية ، وليس لأحد من وجوه القوم مكانة تعلو مكانة رجل الدين بين قبائل الصوماليين ، ولكن العرف الصومالى يدين بتقسيم (السلطات) بين مكانة الشيخ ومكانة رئيس العشيرة أو سلطان الإمارة ، فإذا استجاب المتخاصمون إلى وساطة الإمام الدينى فالعهود التى تبرم بينهم إنما يتم إبرامها على أيدى الرؤساء والسلاطين ، ويتولى الإشراف على تنفيذها وكلاؤهم وأعوانهم الاجتماعيون ، إلا أن يصل الأمر إلى التحكيم على وجه من وجوه الخلاف المتفق عليها فلا يرى الجميع بُدّاً من قبول الاحتكام إلى أئمة الدين .

ويحترم الصوماليون ذكرى الآباء والأجداد ، ويقيمون الأضرحة والمزارات لكل جد عظيم من جدود القبيلة المذكورين ، ويتفق فى هذه الحالة أن يكون مزار الجد العظيم كمزار الولى الدينى فى القداسة والتوقير وإقامة الموالد إلى جواره مع التصدق بالذبائح والقرابين فى كل موسم مشهود ، يحضره أبناء ذلك الجد كما يحضره غيرهم من المقيمين إلى جوار المزار . ولعل هذا الاشتراك بين شعائر القداسة وشعائر الولاء قائم على اشتهار أولئك الأجداد بفتح البلاد للدعوة الإسلامية واستحقاقهم للذكرى بفضل الغيرة على الدين والقدرة على تمكين السلطان السياسى لعشيرة من العشائر الوطنية أو عشائر المهاجرين الأولين .

ويدل اسم الكتاب (ديمقراطية رعاوية) A Pastoral Democracy على الغرض الأول من تأليفه ، فهو وصف النظام الديمقراطى الفطرى فى بلاد القبائل الراعية ، أو قبائل الرعاة التى تحسب فيها الثروة بعدد ما تملكه من الأنعام والماشية وقطعان الحيوان على الإجمال . وقد يصف المؤلف مجالس الحكم والمشاورة فى هذه القبائل كما يصف علاقات الحكام بالمحكومين وعلاقات القبائل المتعددة بعضها ببعض فى السلم والحرب وأيام الرخاء وأيام الجدب والشدة ، فيخلص من مشاهداته الكثيرة إلى الإيمان بصدق العنوان (الديمقراطى) حين يطلق على سياسة القبائل وآدابها الاجتماعية ، وإن تكن (ديمقراطية) فطرية تدين بالعرف المأثور قبل أن تدين بالنص المكتوب .

ويقول المؤلف : إن مصالح القبيلة (الرعاوية) لها اعتبارها الأول عند تطبيق الأحكام والحقوق وبخاصة فى مسائل الدية والثأر ومسائل التوريث والتمليك ، ويحرص أبناء الصومال على تطبيق أحكام الميراث كما شرعها الإسلام ، فتعطى المرأة حقوقها على حسب هذه الأحكام ، ولكنها لا تتولى رعاية الإبل ولا حيازة الأرض المخصصة للرعى والسقاية ، وقد تملك الماشية وتملك الدار والمسكن من مخلفات الآباء والأزواج ، ولكنها - هى باختيارها - لا تطالب بولاية أمر الإبل والمراعى والسقايات ، ولعلها تؤثر ذلك لأن الملكية هنا تستتبع الحماية بالسلاح والاستعداد لدفع الغارة وصد العدوان والانتقال من حوزة إلى حوزة كلما وجبت الرحلة من حمى إلى حمى آخر ، تبعًا لأحوال الخصب والجدب أو أحوال الرى والجفاف .

ومما يجعل للملكية فى هذه الحالة حكمًا خاصًا لا تنهض المرأة بأعبائه أن تدبير الغارة موكول إلى نظام صارم لا يعفى منه أحد من القادرين على حمل السلاح ، فإذا وجب القتال وتخلف عنه أحد من شبان القبيلة فهو عرضة لاستباحة ملكه من الأنعام والماشية ، وإذا اجترأ جماعة من القبيلة على شن الغارة على قبيلة أخرى بغير إذن الزعيم حق له أن يعاقبهم ويحرمهم غنيمتهم ، إلا إذا تقدموا بأنفسهم مختارين لقسمة الغنيمة بينهم وبين إخوانهم الذين خالفوهم ولم يشتركوا فى اغتنامها ، فقد يشفع لهم ذلك فى رفع العقاب وتخفيف التعويض المفروض .

وقد تحول الصوماليون من سكان بقاع الشمال من نظام المراعى إلى نظام الأرض الزراعية ، فكان لذلك أثره فى تعديل أطوار المعيشة وأحكام الديمقراطية الرعوية ، ولكنه تعديل ظاهر لم يتعمق إلى أصول العادات والأخلاق .

ويستطرد المؤلف في حديثه عن العرف الاجتماعى إلى الحديث عن الشعر الصومالى ووظيفة الشاعر الاجتماعية بين البادية والحاضرة ، فإذا هى صورة أخرى من صور الحياة العربية فى عصورها الأولى ؛ لأن الشاعر يثير النخوة للقتال ويستفز الغضب للأخذ بالثأر ورد العدوان بالعدوان ، وقد يلجأ إليه أحيانًا فى تهدئة الثوائر الجامحة وتزيين الصلح والمسالمة كلما جنح الحكماء ورؤساء الدين إلى علاج المشكلة بالتوفيق والترضية ، ولا يندر فى أغراض الشعر عند الصوماليين نظم القصائد حمدًا للأولياء وترتيلاً لأناشيد الدعاء والثناء على عباد الله الصالحين .
ومن أمتع فصول الكتاب تلك الصفحات التى يروى فيها المؤلف طرفًا من سير الشيوخ والنساك الذين قادوا الثورة على الحكم الأجنبى كما قادوا الثورة على فساد الأخلاق ومساوئ التفرنج بين أناس من الصوماليين بعد احتكاكهم بالجاليات الأوربية ، فإن أحاديث المؤلف عن أولئك الشيوخ والنساك تصحح التاريخ المفترى عليهم وتدفع شبهة الهوس التى علقت بهم من روايات الصحفيين عنهم ، وأولهم (الملا محمد عبد الحسن) الذى لقبوه بالملا المجنون ، وما كان به من جنون إلا أن يكون الجنون عندهم فرط الغيرة على الصلاح وفرط الغضب من دسائس التبشير والاستعمار .

وأهم ما فى الكتاب من وجهة النظر إلى الحياة العصرية تحقيق المؤلف عن الأحزاب السياسية وأسباب التقارب أو التباعد بين أعضائها ، وخلاصته أن العصبية القبلية هى الصلة الكبرى التى تربط بين الهيئات السياسية فى الشمال ، وأن العوامل المحلية ونفوذ «الشخصيات» التى تهيمن عليها تحل محل هذه الصلة فى الأقاليم (غير الرعاوية) وأن المذاهب الأوربية التى نجحت فى اجتذاب بعض الصوماليين إليها إنما نجحت لتوكيدها شريعة المساواة بين الأجناس البشرية أو لتوكيدها مبادئ الديمقراطية بين الحكومات ورعاياها ، ولا يخفى أثر الإسلام فى كل عامل من هذه العوامل بين المسلمين وغير المسلمين .

❋ ❋ ❋

أسْبَانيا المغربيّة(١)

لأنريك سوردو

كتاب «أسبانيا المغربية» موضوع فى وصف حضارة الأندلس على عهد الدول الإسلامية ، وأكثر العناية فيه منصرفة إلى وصف حضارة العمران وحضارة المعيشة وما تتسع له من مظاهر العرف والعادة ومظاهر العلاقات بين أبناء المدينة وأبناء الأسرة ، وأكثر ما يكون ذلك فى مدنها الثلاث الكبرى ، وهى قرطبة وأشبيلية وغرناطة ، وإن كان المؤلف يلم أحيانًا بما يتصل من قريب بهذه الحضارة فى المدن الأخرى من قبيل طليطلة وقادش وبلنسية ، وما عداها من أطراف الريف .

ويعجب القارئ وهو يتصفح هذا الكتاب ويقلب ما احتواه من الرسوم والنقوش والصور والتماثيل التى بولغ فى الاعتناء بها على مثال لا يقع النظر على ما يشبهه فى غير الآثار المقدسة عند أبناء الغرب من المسيحيين .

ماذا يزيد عليه الكاتب العربى الأصيل لو كتب فى هذا الموضوع وأراد أن يودع فصوله وثنايا سطوره ما يجيش فى صدره من خوالج الحنين والفخر والإعجاب بآثار ذلك الماضى العزيز على بنيه ، إذ يكاد القلم العربى أن يقصر عن الزيادة عما أودعه المؤلف كتابه من تلك الخوالج الناطقة خلال السطور فى غير تكلف ولا انتباه ، ولولا خطرات هنا وهناك يلوح فيها أن المؤلف مخالف للعرب فى دينه ولغته وجنسه لسبق إلى ذهن القارئ أنه يستمع إلى أغنية من أغانى الحنين الذى قيل فى زمانه :

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يا زمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلك إلا حلمًا ... فى الكرى ، أو خلسة المختلس

ويبدو مما يورده المؤلف من بعض الأمثال الجارية على الألسن إلى اليوم أنه ليس بالغريب المنفرد بين أبناء قومه بتلك الأحلام التاريخية ، فإنه يذكر أن أبناء غرناطة فى هذا العصر لا ينسون الأسوة بمصاب غرناطة العربية كلما حزبتهم فاجعة قومية يتطلبون

(١) الأزهر يناير ١٩٦٤ .

فيها حسن الأسوة ، فإنهم يرددون بينهم كلمة تسير فى لفظها ونغمتها مسير الأمثال ، ويقولون : «لقد كانت البلية بغرناطة أفدح وأنكى» كأنهم ورثوا هذه الكلمة عن ألسنة العرب ثم تناقلوها بغير تبديل فيها ، أو كأنهم ذكروا البلد ونسوا من هم أولئك المصابون فيه ، ولا حاجة بهم إلى جهد من الذاكرة يلفتهم إلى هذا النسيان ، لأن معالم المعيشة البيتية فى أكثر العواصم الأسبانية على عهد العرب لا تزال على ذلك العهد إلى اليوم ، سواء فى تنظيم طرقاتها أو تقسيم بيوتها والانتفاع بمساكنها ، وكأنما بقيت محارم الحجاب على حالها كما كانت تبنى فى أيام العرب ، فلا تزال المنافذ بين الغرف والحجرات وبين الشارع والسوق كأنها تلك المنافذ التى تستر وراءها مقاصير الحريم .

ويحاول المؤلف ، لو استطاع ، أن ينسى من سبق العرب إلى إقامة الحضارة بتلك البلاد ، ومنهم أسلاف من الرومان والقوط ، ولكنه ينازع القلم إلى ذكراهم ليقول : إن العرب قد صنعوا ما لم يصنعوه ، وقد سبقوهم فى شوط الارتقاء وإن لحقوا بهم فى أزمنة التاريخ ، فيقول عن صناع الأندلس اليوم : إنهم لا يزالون ينتفعون بما تعلموه من العرب والبربر من صناعات النسيج والفخار والآنية والجلود وصياغة المعادن وتزيين الأخشاب ، ويثبت للرومان فضلهم فى تنظيم موارد الماء للرى والشرب والسقاية ، ولكنه يعود فيقول : إن غلبة «الماء» فى النوافير وفى الجداول المصنوعة وفى الحدائق العليا والسفلى إنما كان ظاهرة «الصحراء» التى يبلغ الماء فيها ما ليس يبلغه فى مكان ، من إرواء غلة الأعين والصدور .

ويشيد المؤلف بما اتسمت به الحضارة العربية من قوة الشعور بالحياة الحسية والحياة الفكرية فى آن .

ويطيل الوقوف عند ظاهرة «الطرب» للسماع ونغمات الأصوات والآلات ، فيروى ما يرجحه بعضهم من أنها أصل كلمة «الطربادور» التى تطلق على الشعراء المنشدين بين جنوب فرنسا وشمال البلاد الأسبانية ، ويشير إلى ما تخيله بعضهم من أنها تتصل بمادة «طاب» العربية بمعنى «طيب العيش وطيب الشعور» ، ثم يعود فيقول : إن هذا الشعور الذى يدل على قابلية النفس للامتلاء بالحيوية والإحساس بجمال الحياة لم يخلقه اليوم غير ثورة الحس فى حلبات مصارعة الثيران ، وغير أناشيد الرقص فى الحانات ، تتخللها صيحات «وولى . وولى .» عند النشوة والاستحسان ، وما هى إلا تحريف لكلمة الجلالة التى كان من عادة العربى أن يهتف بها لإبداء إعجابه بكل جميل : الله . الله .

ويسرف المؤلف فى تعظيم هذه «الحاسة» الجميلة عند العربى فيروى من أقاصيصها ما يصدق وما لا يصدق من أخبار الخلفاء والأمراء ، ويغفل من ذلك ما قيل عن شق الثياب والصياح بنداء الباعة والخروج عن الحشمة والعربدة على الندماء ، ويضيف إلى ذلك ما يرويه عن أمراء بغداد ودمشق وأمراء المغرب وأفريقية ، وأعجبه ما رواه عن رجل من حاشية الملوك التى تحسن ضبط الشعور فى مواقف الطرب والغضب ، فنقل عن أحدهم أنه نسى نفسه فهجم على المغنى فى حضرة الملك وأخذ فى تقبيله ، وعرض نفسه بذلك للقتل العاجل ، لأن ذلك المغنى كان سجينًا متهمًا بالخروج على الأمير ، واحتال على إسماع الملك بعض غنائه لعله يعفو عنه ويستبقيه .

أما الحياة الفكرية فقد أطنب المؤلف فى سرد أخبارها ، كما أطنب فى سرد أخباره عن الحياة الحسية . ومن ذاك أن قرطبة كان فيها مائة وسبعون امرأة يكسبن رزقهن بنسخ الكتب غير الرجال ، وأن المدينة كانت تخرج فى كل سنة ما لا يقل عن ستين ألف كتاب من المصنفات المنسوخة أو المنقولة أو المؤلفة ، وأن عدد الكتب فى بعض المكتبات التى جمعها خليفة من الخلفاء لم يكن يقل عن أربعمائة ألف كتاب ، وكانت منها كتب كثيرة فى غير المباحث الدينية ، أثارت جماعة من الفقهاء المتزمتين فأرضاهم المنصور بإحراق المئات منها .

ويرى المؤلف أن الثقافة العربية غلبت على كل ثقافة تقدمتها فى بلاد الأندلس المغربية ، ولكنها كانت فى بعض المدن تنتزع المدينة من صبغتها الرومانية التاريخية لتقيم فيها نمطًا من الحضارة يغلب فيه التوازن بين الغرب والشرق كما غلب من قبل فى القسطنطينية وعواصم الدولة البيزنطية .

وانتقل المؤلف من الثقافة عامة إلى ثقافة الفنون الجميلة ، فنفى كل ما يشاع فى الغرب عن تحريم الإسلام للاشتغال بالفن الجميل . وقال : «إن الغرب تشيع فيه فكرة عامة فحواها أن الديانة الإسلامية تحرم كل التحريم صور الأحياء ، وكل ما ثبت ثبوت اليقين فى هذا المعنى أن التماثيل الدينية محرمة فى هذه الديانة ، وفيما عدا ذلك لم ترد فى القرآن آية واحدة تؤيد ما يشيع بين الغربيين ، وإنما ورد فى الأحاديث النبوية التى يرجع استقصاء الكثير منها إلى القرن الحادى عشر للميلاد ما يفيد استنكار والتصوير» .

ثم يتوسع المؤلف فى بيان الموانع التى تقبل فيها الرسوم والنقوش مع انتفاء شبهة العبادة والتقديس .

ويشتمل الكتاب على أكثر من مائة صفحة كبيرة محلاة بالصور الملونة أو بالنقوش الهندسية المحكمة ، تلحق بها الشروح التاريخية والتحليلات الفنية ، ويوشك أن تحيط بكل ما بقى فى بلاد الأندلس من الآثار الإسلامية ولاسيما المساجد والقصور ، وتظهر فى بعضها نقوش الكلمات العربية واضحة للقراءة مع تتبع الخطوط بينها وبين ما حولها من رسوم الزينة وعقود البناء ، وهى - فيما نرى - أفصح من كل ما اقترن بها من الشروح والتحليلات فى الارتفاع بإعجاب المعجبين إلى ذروة الشعور بجمال تلك الحضارة ، وغاية الاستحسان لذلك الذوق الفنى الذى انبعثت منه ، وفرط الحنين إلى تصور العهد الذى كانت فيه هذه الآثار عمارًا حيًا يزدحم بمن فيه ، وتحيط به الدنيا المقبلة وهى مترعة بالنعمة والرخاء .

* * *

وكتاب «أسبانيا المغربية» الذى أخرجه طابعوه فى هذا الوضع من الزخرف الجميل والأناقة الفنية إنما هو حلقة من سلسلة متناسقة معدة لإبراز الآثار الفنية فى مثل هذا الموضوع ، ونعنى به موضوع المخلفات المأثورة فى مدن الحضارات التى يطول الحنين إليها بين أبناء العصر الحديث حنين القلوب والضمائر تارة وحنين العقول والأذواق تارة أخرى ، ومنها أثينا اليونانية ، والبندقية وبومبى اللاتينيتان ، وبكين الصينية ، ومن العواصم الإسلامية مكة المكرمة Mecca the Blessed والمدينة المنورة Maidina the Rodiant ملحوظًا فى ترجمة اسميهما أن يكون كل منها متبوعًا بصفته التى اشتهر بها فى اللغة العربية .

ولم نطلع بعد على هذين الكتابين الأخيرين ، ولا ندرى كيف يهتدى مؤلفاهما إلى التمييز بين ما فى المدينتين من معالم القداسة ومعالم الحضارة ، ولكننا نعتقد مما اطلعنا عليه من نماذج هذه السلسلة أن عرض الحضارة العربية على هذه الصورة فى الغرب أصلح لتعريف الغربيين بمفاخرها من نشر التواريخ المفصلة ، لأن الالتفات إلى مظاهر الفخامة المحسوسة وآيات الفن الرائعة أعم وأقوى بينهم من الالتفات إلى مآثر الروح والضمير .

* * *

فى مَطالع الأعوَام: نَظْرةٌ إلى التنجيم

فى العالم المتمدن[1]

كان علم النجوم فى زمن من الأزمنة الغابرة يسمى بالعلم السماوى ، أو العلم العلوى ، أو العلم الإلهى . وكان علمًا واحدًا ينطوى على عدة علوم : أولهما علم الدين ، لأن الأقدمين كانوا يعبدون الكواكب ويخصون كل نجم بالربوبية على جزء من أجزاء الطبيعة أو قوة من قواها .

ومن علوم النجوم «علم الفلك» الذى يبحث فى حركات الكواكب ومواقيت طلوعها واحتجابها .

ومنها علم الملاحة لاعتماد السفن على رصد الكواكب واختلاط الأمر يومئذ بين دراسة الفلك ودراسة الظواهر الجوية على إطلاقها .

ولقد كان علم الزراعة يرتبط بعلم الفلك لاعتقاد الزراع قديمًا أن المحاصيل الزراعية تنمو بفضل البروج والمنازل السماوية التى تشرف عليها وتقترن أحيانًا بمواعيد الأمطار والفيضانات .

وأما العلم الذى كان فى الواقع يغطى على علوم الفلك جميعًا فهو «علم التنجيم» أو علم الطوالع وما تنطوى عليه من أرصاد السعود والنحوس . فقد كانت كلمة التنجيم إذا أطلقت تعنى فى عرف الأكثرين علم النظر فى الغيب واستطلاع السعود والنحوس ، وتدبير أسباب الوقاية التى يزعم المنجمون بطلاسمهم وأباطيلهم أنها تنفع فى هذه الأمور .

ولقد مضى الزمن ، وتقدم الناس أو تقدم المتمدنون منهم ، فتركوا عبادة النجوم وعرفوا الحقائق عن علوم الملاحة والزراعة ، وعرفوا ما لم يعرفوه قط - من قبل - عن حركات الأفلاك ومنازل الفضاء ، فأصبح للفلك علم مستقل غير علوم اللاهوت وعلوم الملاحة والزراعة وانقطعت الصلة تمامًا بين هذا العلم الواسع وتلك الخزعبلات التى كانت تسمى بعلم التنجيم ، واضطر علماء الغرب أن يفصلوا بينهما فى

(١) الأزهر يوليو ١٩٦٣ .

لغاتهم ، فأصبح علم «الأسترونومى» أى علم الفلك غير علم «الأسترولوچى» الذى يطلق على التنجيم .

وكان المظنون أن أبناء الغرب المتمدنين قد فرغوا من أمر التنجيم وخرافاته ، وقد عرفوا من حقائق الأفلاك فى هذا الزمن ما يعرفونه عن تلك الخرافات التى صدقها أسلافهم ، لجهلهم بأقرب الكواكب إليهم وخلطهم بين مواقع النجوم التى تُرى بالعين المجردة ، وهم لا يعرفون أبعادها ولا يدركون آفاقها .

أما اليوم والأرصاد الفلكية تكشف الآفاق إلى مدى الملايين من السنين الضوئية وعلماء الفلك يعرفون عن تكوين الكواكب مثل ما يعرفون عن تكوين هذه الكرة الأرضية ، ويتحدثون عن السفر إلى تلك الكواكب كما يتحدثون عن الممكنات أو عن الصعوبات التى تقبل التذليل ، فلا ندرى كيف يعقل الإنسان المتمدن أن أسرار السماء والأرض فى الحاضر والمستقبل ، يكشفها المنجمون الجهلاء وينبئ عنها من غاب عنه كل كشف جديد من كشوف السماء ، ولكن الواقع العجيب أن المصدقين بالتنجيم اليوم بين المتمدنين في الغرب يزيدون كلما ازدادت كشوف الفلك الحديث ، وأننا لا نزال نتلقى من المطبوعات الأوربية والأمريكية أشتاتًا من التقاويم والمجلات وجداول الأرصاد والطوالع ، مخصصة كلها لمسائل التنجيم ونبوءات الحاضر والمستقبل ، ودلالات الأفلاك على مصائر العظماء ومقادير الدول والحكومات ، وفى كل لغة من اللغات الحية تصدر التقاويم السنوية ، وتصدر المجلات الدورية ، وتصدر الكتب والمصنفات وتصدر دوائر المعارف ومراجع التاريخ ، وينتظم صدورها كما ينتظم صدور أمثالها من المطبوعات المخصصة لمباحث العلوم والآداب والفنون ، ويشتريها طلاب الطوالع بالأثمان الغالية التى تزيد أحيانًا على أثمان كتب العلم والصناعة ودراسات الفنون والصناعات .

وقد عنيت إحدى المجلات السيارة بإحصاء هذه الظاهرة العجيبة ، فتبين لها أن الاهتمام بالتنجيم فى ازدياد ، وأن الأمم الأوربية والأمريكية لا تقل عن أبناء القارات الأخرى فى إقبالها على قراءة كتب التنجيم ، وعلى استشارة المنجمين فى أخطر الشئون ، ومنها مشروعات التجارة والاقتصاد ، واختيار الشركاء والأزواج .

وإذا صح الإحصاء الذى اعتمدته المجلة فقد ازداد عدد المقبلين على استشارة المنجمين فى الولايات المتحدة - بعد الحرب العظمى - من ثلاثة ملايين إلى عشرة ملايين ، وأصبح عدد المكاتب المفتوحة لقراءة الطوالع يقارب خمسة آلاف ، ويقدر عدد المؤمنين بالطوالع الفلكية فى ألمانيا بنسبة سبعة وعشرين فى المائة من مجموع سكانها ، وأن رجال

السياسة فى إيطاليا كثيرًا ما يزورون مكاتب المنجمين تحت جنح الظلام ليسألوهم عن طوالع الأحزاب والحكومات ، وأن دور الملاحة فى اليابان لا يندر أن تستشير المنجمين لاختيار الساعة الملائمة لإنزال السفن الجديدة إلى الماء ، وأن الناشرين اليابانيين وزعوا فى سنة واحدة ثمانية ملايين نسخة من خرائط الطوالع التى تسمى بالاصطرلاب ، وأن فى إيطاليا عشرين مجلة منتظمة لا تنشر شيئًا غير النبوءات وما يتعلق بها من أسئلة القراء وأجوبة المنجمين ، وأن طائفة غير قليلة من أصحاب الأعمال يتذاكرون إلى اليوم مقدرة المنجمة إيفانجلين آدمز Evangelin Adamz التى كانت تقنع مورجان صاحب الملايين بنبوءاتها عن تقلبات السوق ، ولا يبالون من أجل ذلك أن يجازفوا بأموالهم معتمدين على أرصاد المنجمين والمنجمات .

وقد أرادت المجلة أن تلتزم جانب الحيدة العلمية فى رواية تلك الأخبار ، فنقلتها على علاتها ولم تظهر للقارئ أنها تستخف بها ولا أنها تصدقها وتطمئن إليها ، ولكنها نقلت كذلك أخبارًا أخرى عن بعض المنجمين بمثل هذه الأمانة فى الحكاية ، وفيها ما فيها من التشكيك على الأقل بفريق من المحترفين لصناعة التنجيم .

قالت : إن ثلاثة من سبعة من كبار المنجمين المشهورين رسموا خريطة السيارات الشمسية فوضعوا الأسفل منها فى موضع الأعلى ، ولا تدرى المجلة - كما تقول - أعن جهل كان ذلك أم إهمال؟

وقالت عن عالم برازيلى أنه ضجر من إلحاح بعض الناشرين عليه ليرسم له خريطة سماوية ومقرونة بالطوالع ، فتخلص منه بإحالته إلى سكرتيره ليقنعه أو يريحه من إلحاحه ، فاخترع له السكرتير خريطة من عنده نقلها من بعض المهملات المهجورة ، ولا تزال هذه الخريطة المخترعة تباع وتستشار فى مهام الأمور .

ويتساءل كاتب البحث عن التنجيم : ترى ماذا يصنع المنجمون فى أمر التوائم الذين يتشابهون بأسماء الأمهات والآباء وساعات الميلاد وأماكن الولادة ، ولا يمكن أن يتفقا فى حوادث الحياة؟

ويعجب الكاتب : لماذا يذكر الناس قليلاً من الأخبار التى تصح ببعض التأويل بل لا تصح إلا مع التعسف فى التأويل ، ثم هم لا يذكرون عشرات الأخبار التى كذبت كل الكذب ، ومنها أخبار المنجمين فى القرون الوسطى عن نهاية الدنيا وهى قائمة بعد تلك النبوءات لا تزال؟

إلا أن المجلة فى الواقع قد بالغت فى احترام تلك الخرافات وفى مناقشتها كما يناقش الجد الذى تخفى أباطيله أو تحتاج إلى بحث يكثر فيه القال والقيل .

إن الأساس الذى يقوم عليه التنجيم قد تهدم ، ولم يبق للمطلع على أبسط بسائط الفلك ذرة من الشك فى بطلانه .

فهم يبنون علوم التنجيم على السيارات السبع ، ويعدونها فيخطئون لأنهم يحسبون القمر من السيارات وليس هو منها ، ولا يحسبون الكرة الأرضية وهى فى وسطها .

وكان المنجمون الأقدمون يجهلون ثلاثًا من السيارات لأنها لم تكشف قبل اختراع المنظار المقرب أو التلسكوب . وهى أرانوس الذى كشفه وليام هرشل سنة ١٨٧١ ، ونبتون الذى كشف فى منتصف القرن الماضى ، وبلوطس الذى كان معروفًا بالظن ولم يعرف على وجه التحقيق قبل سنة ١٩٣٠ . وأدل من ذلك على جهل المنجمين الأقدمين أنهم يذكرون بروج الفلك ويذكرون سلطان كل برج منها كأنه ثابت فى مكانه ، لأن معلوماتهم عن دائرة البروج ترجع إلى ما قبل الميلاد بمائة وخمسين سنة ، ولأن الفلكيين قبل ذلك التاريخ كانوا يحسبون أن مدار الأرض فيها ثابت على اتجاه واحد ، ولكن الفلكى هيباركس Hipprchus أثبت أن البروج تنتقل من أماكنها ، وثبت بعد ذلك أن خط البروج انتقل قبل ألفى سنة من برج الحمل إلى برج الميزان ، وأنه الآن ينتقل من برج الحوت إلى برج السنبلة ، ولا تزال تتقهقر حقبة بعد حقبة حتى تعود إلى أماكنها ، فلا يتم انتقالها إلا مرة فى كل ستة وعشرين ألف سنة ، ولا تتفق طوالع المواليد اليوم وطوالعهم قبل ألف سنة ولا قبل مائة بسنة ، لأن مواضعها فى أفلاك البروج لا تزال فى انتقال واختلاف .

هذه الحقائق الفلكية قد أصبحت أكثر من مجرد حقائق علمية يدرسها الرياضيون فى مراصدهم ، لأنها وقائع تلمس آثارها كل يوم فى أرصاد الأجرام السماوية وأدوار المذنبات وحساب الكسوف والخسوف ، وبها يستطيع الفلكيون أن يقدروا بالساعة والدقيقة مواقيت الحوادث الماضية فى المنظومة الشمسية كما يقدرون أمثالها بعد ألف سنة ، وكل حقيقة منها تنقض أباطيل المنجمين عن السيارات والبروج وعن الشمس والقمر من غير السيارات ، وتثبت لنا أن أولئك المنجمين قد جهلوا ظواهر الفلك الواضحة فضلاً عن أسراره المستورة عن النظر أو فى مجاهل الغيب .

فهم لم يكشفوا السيارات نفسها فضلاً عن أن يستعينوا بها على كشف الحاضر والمستقبل من حوادث الدنيا وضمائر الناس .

وهم قد جهلوا مراكز الأرض بين الأجرام السماوية ، فضلاً عن مراكز الأحياء والأموات الذين يعيشون ، أو كانوا يعيشون على ظهرها .

وهم قد جهلوا أن البروج تنتقل من أماكنها فضلاً عن الأماكن التى تتسلط عليها تلك البروج كما يزعمون ، ومنها يتنبئون بتقلب الناس فى الحل والترحال ، وما يعترضهم فى أسفارهم من السعد والنحس أو من الكسب والخسارة ، وإن العلم الذى يخطئ فيما يعلمه الآن كل إنسان هيهات أن يحيط بالمجهول الذى لا يعلمه أحد ، ولا يتأتى علمه لغير علام الغيوب .

إلا أن التنجيم الذى يقبل عليه المتمدنون فى هذا العصر يعلمنا شيئًا يعنينا جدًا أن نعرفه عن أسرار النفس البشرية فى كل زمن وفى كل بلد . ويبين لنا خفايا الضمير التى تبين على غير قصد من المنجمين ولا من طلاب التنجيم .

إن عبرة الإقبال على التنجيم فى عصر العلم أن النفس البشرية لا تحب أن تنقطع عن عالم الغيب ولا تشعر بأن الظواهر المكشوفة تغنيها عما وراء الحجاب من مقادير الوجود ، وقد يشبع العلم رءوس الناس ولكنهم لا يزالون بقلوبهم جياعًا إلى غذاء آخر يستمدونه من قوة أخرى ، وهو الذى يلتمسونه من هنا وهناك بين الصواب والخطأ وبين الهداية والضلال .

إن التنجيم باطل ، ولكن شوق النفس البشرية إلى المجهول صحيح ، وليس من النافع لها أن تكف عن طلبه ، ولكن من النافع لها أن تميز بين طريق الهداية وطريق الضلال ، وأن تطلب الحق حيث يطلب وإن طالت بها شقة الطريق . فليس يضيرها إذا استقامت على الجادة أن تطول الطريق .

ولا ندرى ما هى النسبة العددية التى تظهر لنا بالمقارنة بين الأمس واليوم ، هل يزيد الإقبال على التنجيم فى بلادنا أو ينقص؟ وهل يصدق علينا ما ترويه المجلة الغربية عن العالم الغربى أو لا يصدق على ذلك المثال؟

ولكننا ندرى ـ إن شاء الله ـ ما يجب علينا فى هذا المقام .

ندرى أننا سبقنا الغرب إلى معرفة التنجيم آلاف السنين ، فمن حقنا أن نسبقهم إلى العلم بأباطيله ، وأن نقنع منه بنصيبنا فى الماضى فلا نشاركهم فى بقيته الباقية بعد اليوم .

* * *

الحج قبلَ الإسْلام وبَعْدَهُ[1]

الحج فريضة قديمة فى الديانات ولم يوجد قط إلا فى ديانة كبيرة ، لأنه يستلزم انتشار الديانة فى أماكن متعددة كما يستلزم قدمها وانتظام العمل بها فى الأزمنة المتعاقبة عامًا بعد عام أو موسمًا بعد موسم ولا يتهيأ هذا وذاك إلا لديانة قد تأصلت فى مكانها وزمانها .

وأشهر الديانات القديمة التى وجدت فيها فريضة الحج اثنتان : ديانة البراهمة فى آسيا الشرقية وديانة بنى إسرائيل فى آسيا الغربية .

أما الحج فى الديانة البرهمية فلا صلة له بالإسلام ولا مشابهة بينه وبين الفريضة الإسلامية فى مناسكها ولا فى حكمتها ، لأنه يقوم على عقيدة تناسخ الأرواح والتطهر من الأوزار فى هذه الحياة استعدادًا لرجعة الروح إلى جسد أكمل وأنقى ، وعند البراهمة أن الحاج يذهب إلى نهر «الكنج» ليغتسل فيه فيتطهر من ذنوبه ويرجو بهذا التطهر أن يعاد إلى حياة أشرف من حياته الحاضرة فى هذه الدنيا .

وذلك كما قدمنا أصل من أصول الحج بعيد من العقيدة الإسلامية ولا وجه فيه للمقارنة بين العقيدتين وإثبات مواضع التطور بينهما مع اختلاف الزمن وتجدد البعثات .

أما الحج فى ديانة بنى إسرائيل فمرجعه الأقصى إلى دعوات إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وموسى عليهم السلام ، وهو السابقة التى لحق بها الإسلام ليتمها ويصححها ، ومن هنا تتأتى المقارنة بين فريضة الحج كما بقيت عند بنى إسرائيل ، وبين هذه الفريضة كما أقرها الإسلام فأبقى منها ما أبقى ونسخ منها ما نسخ ثم تبين فى بدء هذا التطور مبلغ التقدم الذى جاء به الإسلام فى شعائر الدين ومناسك العبادة .

وأول الفوارق التى يتبين منها مدى هذا التطور أن الحج فى بنى إسرائيل إنما كان وسيلة لتدعيم سلطان الهيكل وكهانه ، وإنما كان فى أهم مناسكه فرصة لتزويد

---

(١) مجلة الرياض عدد ذى الحجة ١٣٧٣ .

أولئك الكهان بالضرائب والإتاوات والقرابين ، وقد صرحت بذلك مأثوراتهم كما رووها فى العهد القديم ، وفيه «إنه إذا قرب أحد قربانًا يأخذ الدقيق ويسكب عليه الزيت ويجعل عليه لبانًا ويأتى به إلى بنى هرون الكهنة ويقبض منها ملء قبضته من دقيقها وزيتها مع كل لبانها ويوقد الكاهن تذكارها على المذبح لتنبعث منه رائحة سرور للرب ، والباقى من التقدمة هو لهرون وبنيه» .

ومن أكبر الفوارق بين الحج كما دان به بنو إسرائيل وبين فريضته التى دان بها الإسلام أن مواسم الحج الإسرائيلية كلها مواسم زرع وحصاد ، أو كما جاء فى العهد القديم :

«ثلاث مرات تعيد لى فى السنة : عيد الفطير ... وعيد الحصاد ... وعيد الجمع فى نهاية السنة ...» .

وفى جميع هذه الزيارات تؤدى الإتاوة لكهان الهيكل .. «ولا تظهروا أمامى فارغين ..»!

ومن سخافات المبشرين والمستشرقين أنهم يأخذون على الإسلام رمى الجمرات وينسون أن شعائر الضحية كما يرتبها الكهان الإسرائيليون تتجاوز الاعتراف بوجود الشيطان إلى تقديم القربان إليه ، فإذا كان يوم الكفارة جاءوا بجديين وفضلوا أحدهما بالقرعة فتقربوا به إلى الله ثم تقربوا بالآخر إلى عزازيل ، أى الشيطان .

وأبعد من ذلك عن نزاهة التوحيد أنهم يتصورون الذبيحة طعامًا للإله جل وعلا ، فيقولون : إنه سبحانه وتعالى يتنسم منها رائحة الرضى ، وإنها سرور له متاع !!

ولقد خطا الإسلام بالضمير الإنسانى شوطًا بعيدًا فى جميع هذه المناسك والعبادات .

فالمسلم لا يحج إلى الكعبة ليعزز فيها سلطان الكهان أو ليقدم إليهم القرابين والإتاوات ، وإنما هى فريضة للأمة وفى مصلحة الأمة وعلى شريعة المساواة بين أبناء الأمة ، وهى بهذه المثابة فريضة اجتماعية تعلن فيها الأمم الإسلامية وحدتها ، والمساواة بين الكبير والصغير أمام الله وعند بيت الله .

وليس المقصود بالضحية فى الإسلام أنها طعام للكهان أو طعام للإله أو قربان لكسب الرضى من عزازيل ، ولكنها صدقة أو سخاء من النفس فى سبيل العبادة

يشير بها الإنسان إلى واجب التضحية بشيء من الدنيا فى سبيل الدين ، متجشمًا لذلك مشقة الرحلة وتكاليفها جهد المستطيع .

ويمتاز الحج فى الإسلام بدلالته الروحية التى لا ترتبط بمواسم الزرع والحصاد ، فإنه يتفق فى جميع المواسم والمواعيد ، ويأتى فى الشتاء أو الصيف كما يأتى فى الربيع ، وهو بهذا المعنى علاقة سماوية روحية تناسب مقصدها الأسمى من تحقيق الرابطة بين الأمم التى تدين بعقيدة واحدة فى أرجاء الكرة الأرضية ، على تباعد مواقعها واختلاف أجوائها وفصولها ، فهو رابطة من روابط السماء تؤمن بها أمم وحدتها العقيدة السماوية وإن فرقت بينها شتى المطارح والبقاع .

والواقع أن فرائض الإسلام جميعًا تقوم على الصلة الاجتماعية مع قيامها فى الوقت نفسه على ضمير الفرد بينه وبين الله .

والحج أظهرها وأجهرها بهذا المعنى ، ولكنه كذلك معنى يظهر فى كل فريضة من فرائضه الخمس المشهورات ، فمن قال : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله» فإنما هو إشهاد تلاحظ فيه الجماعة كما تلاحظ فيه ضمائر الأفراد ، وليست صلاة الجماعة منسية مع الصلوات التى ينفرد بها المسلم إذا تعذر عليه الاجتماع ، وفريضة الزكاة لا تكون إلا فى مجتمع يتعاون فيه الغنى والفقير ، وصيام رمضان ينتهى بالعيد الذى يجتمع فيه المسلمون كافة ، فما من فريضة إذن فى الإسلام إلا وهى فريضة الأمة بأسرها على نحو من الأنحاء .

ولقد طال بحث المؤرخين الغربيين عن أصول الحج إلى الكعبة قبل الإسلام ، وتواترت الأقوال بتعدد الأبنية التى كانت من قبيلها فى الجزيرة العربية ، ومنها كعبة صنعاء التى يقال إنها كانت فى موضع مسجد غمدان وكعبة نجران التى كشفها الرحالة المعروف الشيخ عبد الله فلبى (فى سنة ١٩٣٦) وغير هاتين الكعبتين مما ورد فى بعض الأخبار الضعاف بغير سند من دلائل الثقات .

وأيا كان القول الفصل فى تاريخ الماضى فالحج الإسلامى فى عصرنا هذا هو الفريضة الوحيدة الباقية من قبيلها فى جميع الأديان الكتابية .

فهيكل بيت المقدس قد تهدم منذ القرن الأول للميلاد ، ولم يرد فى الأناجيل المسيحية نص على مكان مقدس مفروض على المسيحيين أن يحجوا إليه ، وكل ما عرف بعد القرون الأولى فإنما اتبع فيه الخلف سُنة الملكة هيلانة

أم الإمبراطور قسطنطين التى قيل إنها وجدت الصليب الأصيل فى فلسطين عندما توجهت إليها لزيارة آثار السيد المسيح ، وهى قصة يكفى للدلالة على قيمتها التاريخية أن رواتها جميعًا نقلوها بعد عصر الملكة هيلانة ، وأن مؤرخ العصر الأكبر يوسيبيوس Eusebius لم يشر إليها بكثير أو قليل على شدة اهتمامه باستقصاء الأخبار التى لا تذكر بالقياس إلى هذا الخبر العظيم .

ثم تتابعت القرون والدول التى تنتسب إلى المسيحية تتذرع بالأماكن المقدسة لترويج مطامعها السياسية ، فروسيا القيصرية تدعى حمايتها على مذهب الكنيسة الشرقية وملك فرنسا يدعون حمايتها على مذهب الكنيسة الغربية ، ولما ذهب هؤلاء الملوك وتبعتهم دولة الجمهورية «اللاتينية» كانت الغيرة على الحج فى عهدها على أشدها وأقواها ونشأت فى أيامها صحيفة الحاج pel erin التى بلغ المطبوع من أعدادها مئات الألوف وامتلأت صفحاتها بأنباء المعجزات والكرامات التى تشاهد فى أرض الميلاد ، وتضافرت الدولة والكنيسة على ترويجها خدمة لمطامع الاستعمار .

ثم تقلبت الأيام حتى رأينا دعاة الاستعمار يسلمون الأماكن المقدسة إلى أيدى الصهيونيين!

أما فريضة الحج الإسلامى فقد بقيت لها رسالتها التى لا عبث فيها ولا موضع للمكر والدسيسة من ورائها ، وإن رسالتها اليوم فى العالم الإسلامى لأعظم وألزم من رسالاتها فى جميع الأزمنة ، لأنها العهد المجدد فى كل عام بين شعوب الإسلام ، وفى عصرهم أحوج ما يكونون فيه إلى الوفاق والوئام .

❋ ❋ ❋

أفغانستان وانتشار الإسلام في الهند

في مقالنا عن استقلال الأفغان ، قلنا : إن الخالق سبحانه وتعالى هو الذى كتب وثيقة الاستقلال للأمة الأفغانية حين أودع العزة فى نفوس هذه الأمة العريقة ، وخلقها عصية على الفاتحين وأعصى من ذلك كثيرًا على الحاكمين المستعمرين .

وللتاريخ مواضع استفهام عن أطوار الأمم تخطر للسائل ، ويلتمس الجواب عنها من هداية فكره ، ومن دلالة الحوادث والمقابلة بين نقائضها وأشباهها .

وبعض مواضع الاستفهام هذه فى تاريخ الأفغان أنها أمة قوية ، تصبر على الشدائد ، وتقتحم المكاره ، ولكنها قنعت من القوة فى أكثر العصور ، بأن تجعلها أداة لحفظ الحرية ومناعة الحوزة ، قليلاً ما جعلتها أداة للغلبة والطموح إلى توسعة الملك وبسط السلطان على الآفاق المترامية من حولها .

لم تكن هذه نظرتها إلى القوة ولم تكن لها نظرة إليها كنظرة الفاتحين من أبناء الأمم المشهورة بالإقدام وشدة المراس وقلة الاكتراث بمخاطر الحروب والفتوح؟

ليس عن قصور فى الهمم ولا عن زهد فى العظمة كما كانت مفهومة فى أزمنة الفتح والغلبة .

ولكنها ظاهرة من ظواهر التاريخ يفسرها موقع الأفغان ، ثم يفسرها الدور الذى اختارته لنفسها بين دول المشرق الكبرى ، وقد كانت كلها محيطة بالأفغان من الشرق والغرب والشمال والجنوب .

* * *

كانت الأفغان شعب قبائل متعددة لا تلتقى فى وحدة حكومية ، وكانت الدول من حولها «إمبراطوريات» شاسعة الأطراف : بين إمبراطورية أبناء السماء وإمبراطورية الراجات ، وإمبراطورية الفرس أيام استقلالها وأيام دخلت مع العرب فى دولة واحدة هى دولة الإسلام .

فماذا تصنع الأفغان بين هذه الدول الكبار ؟

إذا استطاعت أن تؤلف بين قبائلها للمحافظة على استقلالها ودفع الطغيان عنها فقد وفت بحق الكرامة وأدركت منها ما يعز على سواها فى مكانها .

ولكنها استطاعت هذا وزيادة .

استطاعت أن تتولى شئونها وأن تتولى معها مهمة الرئاسة الفعالة فى كل دولة اشتركت فيها ، واستطاعت مع هذا أن تنهض للفتح فى جوارها كلما دعتها إليه ضرورات الموقف أو حوافزه التى لا تهمل فى زمانها .

* * *

واستطاعت ذلك كله على ثلاث صور بينة فى تاريخها مع الدول الإسلامية .

أولهما أنها كانت ميزان الدولة التى تترجح فيه كفة البقاء أو كفة الزوال .

فالدولة الأموية زالت ، وقامت فى مكانها الدولة العباسية ، يوم أعرضت خراسان عن الأولى ، وجنحت إلى الثانية ، والدولة العباسية عادت فضعفت ، وتعرضت للزوال ، يوم فقدت معونة خراسان .

والصورة الثانية التى أثبتت بها مكانها فى الدولة أنها أخرجت للعباسيين بيوت الوزارة والولاية من البرامكة والطاهريين والسامانيين .

والصورة الثالثة أنها تكفلت لدولة بغداد بفتح الهند ونشر الإسلام فيه ، فكان جانبها هو الجانب الوحيد الذى اتسع بالفتح وانتشار الإسلام ، يوم كانت جوانب الدولة الأخرى تنتزع منها قطعة بعد قطعة ، ويجور عليها الأعداء من خارجها أو المتمردون المنتقضون عليها من داخلها .

والدول الأفغانية الثلاث التى نهضت بفتح الهند هى دولة بنى «سبكتكين» ودولة الغوريين ودولة آل قيلجى ، ولاسيما علاء الدين .

* * *

وليس سبكتكين من صميم أبناء الأفغان ، ولكن نشأته أفغانية ودولته أفغانية وقوته التى اعتمد عليها فى نجاح حكمه ونجاح فتوحاته أفغانية ، ولا يمكن أن تعرف بنسبة أخرى إذا وجب أن تنسب إلى قبيل أو نظام .

إن الإسلام دخل الهند من طريقين : طريق الفتوح وطريقة الرحلة والتجارة .

وبعد فتح السند فى أيام الأمويين لم تعرف للإسلام فتوح ذات بال غير الفتوح التى قامت بها الدول الأفغانية ولكنهم فى الواقع لم ينشروا الإسلام بالسيف ، بل كان السيف يفتح لهم باب البلد ، وتتكفل السياسة الرشيدة والمعاملة الحسنة بالبقية التى يعمل فيها الإقناع وحسن القدوة ما لا تعمله السيوف والعروش .

* * *

ولقد كان نصر المسلمين فى الهند آية عند الهنود من آيات المشيئة الإلهية ، وكثير ممن آمنوا منهم بصدق الإسلام إنما أقنعهم بمصدره الإلهى أنه انتصر على

جيوش تفوقه فى العدد والعدة وتقيم فى مواطنها ومعاقلها بين موارد تموينها وأمداد الجند والمال المتوالية عليها ، وكانت فتوح الإسلام أشهر من فتوح القادة الأقدمين الذين بقيت فى الهند ذكراهم مقرونة بالإعجاب والرهبة ، ولا استثناء فى ذلك للإسكندر فى أوج شهرته ، فإن الإسكندر لم يصل إلى «الدكن» التى وصل إليها قادة الأفغان ، ولم يبق بعده أثرًا من فتوحه كما بقيت آثار الفاتحين من المسلمين فى حياتهم وبعد حياتهم ، ولا تزال باقية فيها إلى هذه الأيام .

فلم يكن قادة الدول الأفغانية فاتحين للبلدان وكفى ، ولكنهم كانوا فاتحين للقلوب وفاتحين للعقول ، وربما اجتمع فى بلاط أمرائهم - فى جيل واحد - أقطاب من طبقة الفارابى والبيرونى والفردوسى والعنصرى والعسجدى وأبو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى ، وما زالوا يقربون إليهم فى كل وطن فتحوه صفوة أبنائه من الحكماء والفضلاء على اختلاف النحلة واللسان ، ومن اثار فتوحهم أنهم نقلوا إلى الهند لغة من أشيع لغاتها الحاضرة وهى اللغة «الأردية» التى يتكلمها من المسلمين وغير المسلمين عدد لا يضارعه عدد المتكلمين بإحدى لهجاتها الإقليمية .

وعرف خلفاء بغداد هذا الفضل لقادتهم المفلحين فكان من الألقاب التى خلعوها عليهم لقب أمين المملكة ويمين الدولة فضلاً عن ألقاب السلطنة والإمارة ، وفى واحد من هؤلاء يقول أبو الفتح البستى يرثيه :

قلت إذ مات ناصر الدين والد	ولة حياه ربه بالكرامة
وتداعت جموعه بافتراق	هكذا هكذا تكون القيامة

ولكنها قيامة كانت تقيم الموتى وتبعث الحياة ويتلوها عمار وازدهار فى مختلف الأقطار .

وبعد ، فموضع الاستفهام عن قوة الخلق الأفغانى هذا جوابه :

إنه خلق قوى لم يعوزه الطموح ، وعلو الهمة ، ولكنه أثبت نصيبه من الطموح وعلو الهمة فى خير صورة تلائمه وتنفعه ويؤدى بها أمانته القومية .

كان شعبًا من قبائل لم تجمعها فى عهد الدول المحيطة بها وحدة حكومية ، وأحاطت بها دول كبار كدولة أبناء السماء ودولة الراجات ودولة الأكاسرة والخلفاء . فإن لم تقنع بحريتها وحماية حوزتها فلابد لها من الغلبة على الصين والهند وأرجاء الدولة الإسلامية ، وإن قنعت بحريتها وحماية حوزتها فقد وفت بحق الكرامة .

ولكنها وفت بحق الكرامة وزادت عليه ، فحفظت وجودها فى حدودها ، وأثبتت وجودها وراء تلك الحدود بما وراء النهر شرقًا إلى ما وراء النهرين غربًا ، وفتحت بلادًا يسكنها الآن من المسلمين عشرة أمثال أبنائها فى وطنهم العريق .

* * *

العليّة الجَديدة فى نيجيريا[1]

ألف هذا الكتاب الأستاذ هيو سميث مدرس علم الاجتماع وعلم الأجناس البشرية بكلية بروكلن ، وساعدته فى تأليفه الأستاذة مابل سميث مدرسة علم الاقتصاد بكلية مدينة نيويورك ، واسم الكتاب « العلية الجديدة فى نيجيريا» يشير إلى موضوعه ، وهو استقصاء تاريخ الطبقة المتعلمة التى تستولى الآن على مقاليد الحكم فى بلاد نهر النيجر بعد إعلان استقلالها منذ شهر أكتوبر من السنة الميلادية الماضية (١٩٦٠) .

وقد تناول المؤلفان دراسة أحوال النيجيريين المسلمين بمقدار مساسها بهذا الموضوع فى حدوده الواسعة ، فهما لا يبحثان فى الدين الإسلامى ولا فى شعائر الإسلام الدينية ولكنهما يبحثان فى الأحوال الإسلامية التى كان لها أثر اجتماعى سياسى فى تكوين طبقة الرؤساء والقادة بين النيجيريين ، ولاسيما أبناء الشمال من بلاد نهر النيجر ، لأنها مقر العشائر المسلمة هناك .

ألمع المؤلفان فى مقدمة البحث ، إلماعا خفيفًا إلى الفارق بين الشمال والجنوب فى عناصر الدراسة العامة التى تحيط بأطراف هذا الموضوع . فإن استجماع هذه العناصر فى الجنوب سهل ميسور من الوجهتين الجغرافية والاجتماعية ، لأن مواصلاته الطبيعية كثيرة مفتحة الأبواب ، وشئونه الاجتماعية لا تخفى على الأوربيين بعد انتشار التبشير بين العشائر الوثنية وتحويل بعض أبنائها إلى المذاهب المسيحية ، ومنهم من ارتقى إلى مناصب القساوسة والأساقفة ، ومن أهلته معلوماته الحديثة التى استفادها من مدارس المبشرين لولاية الوظائف الحكومية والاختلاط بالرؤساء البريطان وسائر النزلاء .

أما بلاد النيجر الشمالية فمواصلاتها الطبيعية غير ممهدة ، ولم يذكر المؤلفان أن الحكومة الأجنبية أهملت تذليل صعوباتها لحذرها من التقريب بين عشائرها ، وقلة

---

(١) الأزهر يونية ١٩٦١ .

اطمئنانها إلى رؤسائها الدينيين المسلمين ، وندرة الموظفين من أبنائها لإعراضهم عن مدارس التبشير ، ولكن هذا الإهمال من جانب الحكومة ملحوظ من مراجعة فصول الكتاب وإن لم يذكره المؤلفان .

ويضاف إلى صعوبة المواصلات صعوبة أخرى اجتماعية هى انتظام العلاقات السياسية والحكومية فى أنحاء الشمال على قواعد العادات الإسلامية ، ومنها الحجاب وشرائع الزواج والطلاق والميراث ، وقد يكون منها قلة الاختلاط بين قادة المجتمع ورؤساء الدواوين ، وندرة العارفين باللغة الإنجليزية من أبناء الشمال فى أول عهد الاستعمار ، خلافًا للجنوبيين الذين أقبلوا على هذه اللغة وغيرها من اللغات الأوربية واستخدموها للتفاهم بينهم عند تعذر التفاهم باللهجات الوطنية .

ويرجع المؤلفان إلى أقوال المؤرخين عن أصول العلية الأولين فيذكران أقوال المرجحين لقدومهم من بلاد البربر وأقوال الآخرين الذين رجحوا أنهم طوائف من أبناء صعيد مصر هاجروا إلى المغرب ثم إلى الجنوب منذ ستة قرون ، ولكن المحقق فى العصور التاريخية القريبة أن قبائل زغاوة زحفت خلال القرن السابع للميلاد إلى وادى النيجر فاستولت على مقاليد الحكم حول بحيرة شاد وما جاورها من الأقاليم الزراعية ، وأشاعت بين هذه الأقاليم لغة وطنية تمتزج فيها العربية والبربرية وتستخدم الآن لتبادل المعاملات التجارية من غانة إلى بلاد القمرون ، وقد كانت ذبابة مرض النوم حائلاً دون القبائل المغيرة التى تعتمد على الخيل فى غزواتها ، لأنها تصيب الخيل كما تصيب الإنسان .

وقد أطلق اسم «الفلانية» على المسلمين الوافدين ومن دخل معهم فى الإسلام ، وظهر منهم من تسمى باسم أمين المؤمنين ، وهو «ساركن مسلى» فى تلك اللغة الممزوجة بكثير من الألفاظ العربية والبربرية ، وتعتبر عشيرة «الهوسا» الفلانية أقوى طوائف النيجر الشمالية ، تعيش معها أكثر من عشرة بطون صغيرة يدين معظم أبنائها بغير الإسلام .

والفوارق بين الشمال والجنوب - كما تدل عليها معلومات المؤلفين - تتلخص فى فارق واحد يشملها وقد يغنى القارئ العجلان عن تفصليها : وذاك أن الآداب الدينية فى الشمال أقوى وأعم من الآداب الوطنية أو النزعة القومية ، وعلى نقيض ذلك تشتد المطالب الوطنية فى الجنوب وتضعف المقاومة الدينية ، وهو أمر معقول يوافق المنتظر من أناس ليست لهم ديانة ذات «دعوة» تقاوم دعوة المبشرين ، وليس

بينهم عشيرة واحدة تستطيع أن تعمم عقائدها الدينية أو أساطيرها الموروثة ، بين جميع القبائل التى بقيت على الوثنية . ويأتى بعد هذا الفارق الشامل فارق آخر يشمل الأقاليم الشمالية ويكاد أن يضم الاعتبارات المحلية الجغرافية إلى اعتبارات العقيدة والألفة الاجتماعية ، وذلك أن طوائف المسلمين المعروفة باسم الفلانية تعودت أن تأوى إلى المدن المسورة وهى على الأغلب الأعم تخلق أسباب الوحدة «المدنية» بين سكانها ولو كانوا من نحل متعددة ، فإذا كان الدين الغالب هنالك بين أبناء المجتمع المدنى دينًا قويًا يقابل دعوة التبشير بالمقاومة أو يقابلها بدعوة تماثلها فمن الطبيعى المنتظر فى هذه الحالة أن تسودها الآداب الدينية الغالبة وأن تسرى غيرة الكثرة العظيمة على عقيدتها إلى شركائهم فى الوطن من قبائل الوثنيين ، دفاعًا عن كيانهم الاجتماعى أو السياسى مع جيرانهم من أبناء الكثرة القوية ، أو المسلمين .

وقد أحس الشماليون بما يتعرضون له من هضم الحقوق الوطنية وجرائر الابتعاد عن وظائف الدولة إذا طال اعتزالهم لمدارس التعليم الحديث ، فنهضوا لتدارك هذا النقص وأسسوا (سنة ١٩٢٣) جماعة أنصار الدين ثم نشروا فروعها فى المدن الكبيرة وتمكنوا من الإشراف على المدارس الحكومية وغير الحكومية ، ونشطت منهم هيئة - على مثال النقابات - لجماعة المعلمين ، فأصبحت نواة للحركة السياسية وأسهم القائمون بها فى الحركة الوطنية سواء إلى جانب الحكومة أو إلى جانب المعارضة ، بعد قيام الحكم الدستورى وإعلان الاستقلال .

وتتألف العلية الشمالية من جماعة المتعلمين ومن كبار التجار وأصحاب المزارع والموظفين وربما سرى إليهم شىء من وعى «الطبقة» على اعتبارهم جميعًا حكامًا أو مرشحين للحكم قبل إعلان الاستقلال أو بعد إعلانه ، ولكنهم على الرغم من وحدة الطبقة لا ينفصلون عن قبائلهم ولا يزال أدب التوقير والرعاية بين شيوخهم وشبانهم ، وبين كبارهم وصغارهم ، يجرى على سنة الأسرة العريقة ولا يسمح للنزعات المتطرفة بالظهور .

ومن الأحاديث التى نقلها المؤلفان فى هذه المسألة ، وفيما يرتبط بها من مسائل الدرجات الاجتماعية - حديث منسوب إلى زعيم تنقل بين البلاد الأوروبية بضع سنوات وسئل عن آثار حياة المدنية فى آداب قومه فقال : «إن الناس يفدون إلى المدن طلبًا للعلم أو طلبًا للمال أو رغبة فى المعيشة على مثال أفضل وأيسر من معيشة

القرية الريفية العتيقة . ولكنهم يظلون على الرغم من هذه الشواغل مستمسكين بعادات الاحترام والرعاية لكبراء السن والمقام ، ويحبون أن يحتفظوا بالتراث القديم» .

وقال زعيم آخر من أسرة حاكمة : «إن الشعور بأواصر العشيرة يتغلغل فى أعماقنا . وتقوم عليه قواعد حياتنا السياسية ، وهو القوة المسيطرة فى البلاد النيجيرية الآن» .

* * *

والمؤلفان ينسبان إلى التقاليد الإسلامية تخلف الشمال فى حركة المقاومة ، أو حركة المعارضة للحكم الأجنبى ، ويقولان بعد الإشارة إلى النظام الإقطاعى : «إن بلاد الشمال الإقطاعى يندر فيها المتعلمون من الطبقة العالية وهم - على الجملة - حذرون متأدبون ، بل خاضعون أحيانًا فى علاقتهم بالحكام البريطانيين . ومما يؤخر ظهور النزعة المستقلة بينهم أن المناصب الكبرى هناك يشغلها البريطانيون . وقد عودتهم مأثوراتهم الإسلامية عادات الاحترام من التسليم والسجود والانحناء وخلع النعال ، حتى ليغلب عليهم دون التفات منهم إلى ما يصنعون أن يبادروا إلى توقير كل من هو أرفع مقامًا كيفما كان» .

وأغرب ما فى هذا التعليل أن يفهم المؤلفان أن خشوع المسلم فى صلاته يعوده أن يسجد لغير الإله المعبود ، وقد كان الأحرى بهما أن يعلما حقيقته فلا يفوتهما أن هذا الخشوع فى موقف العبادة خليق أن يذكر الإنسان باجتناب عبادة الإنسان ويحذره من التورط فى الكفر بالتسوية بين الصلاة للخالق والصلاة للمخلوق ، ولكنهما لو ذكرا للخضوع أو للخشوع سببًا آخر لكشفنا عن سبب لا يرضيهما أن يعترفا به وما فيه من المساس بالحكم الأجنبى ونظام التبشير وعلاقته بالسياسة الاستعمارية فى البلاد الأفريقية والبلاد الإسلامية منها على التخصيص .

فالسياسة البريطانية تقوم فى المستعمرات على الحذر من أصحاب الدولة الأقدمين وعلى الحذر قبل ذلك من الثقافات الاجتماعية التى تقاوم ثقافة الأجنبى وتوحى إلى أبنائها مذهبًا من مذاهب الحكم والنظام يعارض المذهب الطارئ عليهم من أساسه ويستطيع أن يزود المحكومين بنظام يناظره ويتحداه . وقد صرح أساطين الاستعمار البريطانيون بخطتهم السياسية - الهندية - هذه غير مرة ، فقال لورد

ألنبرو : «ليس يسعنى أن أغمض عينى عن اليقين بأن هذا العنصر الإسلامى عدو أصيل العداوة لنا وأن سياستنا الحقة ينبغى أن تتجه إلى تقريب الهنديين» .

وهذه الخطة بعينها هى الخطة التى جرت عليها السياسة الاستعمارية بين الأفريقيين كلما صادفتهم كثرة إسلامية تجاورها قلة متفرقة من الوثنيين أو غير المسلمين على العموم ، فإنهم يتعمدون إقصاء الرءوس المطاعين بين العشائر المسلمة ولا يبالون أن يتبعوا خطة السماحة والإغضاء مع القبائل الوثنية المتفرقة ، لأنها لا تستطيع أن تقابلهم بإجماع متجانس يخافون عقباه . فإذا تولى وظائف الدواوين من أهل نيجيريا الشمالية أناس مستضعفون لا يجدون لهم رءوسًا من أبناء جلدتهم يطيعونها ويأتمرون بأمرها فهذه هى ذلة المستضعف أمام السادة الأجنبيين ، ولا حيلة للواحد أو الاثنين أو الثلاثة من علية الوطنيين المقبولين عند أولئك السادة غير الخشوع والاستسلام . وقد يكون الخشوع والاستسلام ديدنًا معروفًا عنهم قبل أن يظفروا برضوان المستعمر واطمئنانه فيعهد إليهم بالوظيفة المرموقة ولو كانت ذات شأن خطير يخشاه المستعمر إذا تولاه المحكومون غير المأمونين .

واطردت هذه الخطة السياسية إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم تقرر نظام الوصاية والانتداب فاضطر الحكام الأجانب إلى اتباع النظم الدستورية والتعاون مع الزعماء الوطنيين الذين تنتخبهم شعوبهم ولا يتأتى للحاكم الأجنبى أن يتخطاهم مهما يبلغ من تلفيق الدساتير وتزوير الانتخابات ، فكان الاعتراف بزعماء المسلمين قضاءً محتومًا لا سبيل إلى اتقائه بغير الحيلة والمحاسنة ، وكان من أساليب هذه المحاسنة أنهم أخذوا يرحبون بأبناء العلية الأولين ويشجعونهم على إتمام دروسهم بالجامعات الإنجليزية ، وثابروا عدة سنوات على اختيار أربعة من طلاب الجامعات فى كل سنة يتكفلون بهم ويسندون إليهم كبار المناصب بعد عودتهم إلى بلادهم ، ومنهم السيد أبو بكر طفاوة أول رئيس وزارة تولى رئاسة الحكومة الاتحادية بعد إعلان الاستقلال منذ ستة شهور .

وقد أراد الاستعمار أمرًا وأراد الله غيره ، فكان أسبق النيجيريين إلى ولاية الحكم بين أبناء وطنهم أولئك الذين أقصاهم المستعمرون عنه ودبروا بالأمس تدبيرهم الطويل لنفيهم عن الكبير والصغير من وظائف الدواوين .

* * *

مَرّاكِش مُسْتقلة(1)

الأستاذ روم لاندو هو أستاذ الدراسات الإسلامية ودراسات أفريقية الشمالية فى جامعة المحيط الهادى بمدينة كليفورنيا ، وهو سائح باحث قديم عهد بالبحث فى مسائل الديانة عامة ، والديانة الإسلامية خاصة ، وله مؤلفات كثيرة فى هذه المسائل على تعدد أبوابها ، وبعضها مقصور على البحث فى الحياة الإسلامية كما عرفها بين المسلمين من أبناء المغربين الأدنى والأقصى حيث قضى سنوات من حياته ، ولا يزال يقضى ما اتسع له من الوقت فى إحدى حواضرها .

وفضيلة هذا المؤلف فى كتاباته عن المسلمين أنه يشغل نفسه بالتفتيش عن الجانب السليم أو جانب الأمل من الحياة الدينية والدنيوية بينهم ، وليس كل شغلانه بالتفتيش عن الجوانب التى تبعث التشاؤم من الناحية الإسلامية وتبعث التفاؤل من الناحية الأخرى التى تقابلها : ناحية أولئك الذين يتربصون بالإسلام الدوائر من كتاب التبشير والاستعمار .

وعلى سنته هذه جرى فى الكتابة عن حالة المسلم العصرى المثقف ، وغير المثقف ، فى البلاد المراكشية بعد استقلالها ، وبخاصة فيما يتراءى للمراقبين الأوربيين الذين يزورون البلاد وينظرون إلى أثر الحضارة والحرية على قوة العقيدة الدينية بين الشبان المتعلمين . وقد كتب أحد السائحين الإنجليز مقالاً زعم فيه أن طوالع الأحوال كما رآها أخيرًا تدعو إلى اليقين بانفضاض البلاد عن الدين وإقبالها على المراسم الأوربية بعد سنوات قليلة ، فيما يتعلق بنظم الحكم ونظم المعيشة التى تتصل بالمعاملات الأجنبية ، سياسية كانت أو اجتماعية .

فكتب الأستاذ لاندو يرد على ذلك السائح بما وعاه من مشاهداته الكثيرة ، ومنها أحاديث المتعلمين فى وليمة بمدينة مراكش حضرها وذكر أن الحديث على المائدة أوشك أن يدور على موضوع واحد وهو موضوع التصوف ، ثم قال :

---

(1) الأزهر نوفمبر ١٩٦١ .

«شجعنى موضوع هذا الحديث على إثارة السؤال عن حالة الإسلام في مراكش المستقلة ، فبعثت كلماتى حماسة عظيمة وكاد الحاضرون أن ينطقوا بالكلام معًا دفعة واحدة . ثم تكلم الحاكم نفسه - وهو أوفرهم نصيبًا من التربية الأوربية - فأفضى بما يعتبر الرأى الفصل المتفق عليه بين الحاضرين ، وفحواه أن السائح الأجنبى بستحيل عليه أن ينفذ إلى حقيقة الحياة الدينية الإسلامية . فإن الشاب المراكشى قد يشرب ويطلق لسانه بالحديث في مظاهر المعيشة الأوربية ، ولكنه إنما يفعل ذلك حبًا للظهور أو لاختيار نوع غريب من المعيشة . وقد يتخلف عن الذهاب إلى المسجد ولكنه يؤدى الصلوات فى مواقيتها ويدين بالمهم الأساسى من الفرائض الدينية ، وإذا احتاج إلى الهداية الروحية فى أزمات ضميره فإنما يتجه بطلب هذه الهداية إلى القرآن . ولا تزال علاقاته بأبويه وبأهله وبما يؤمن به من فضيلة أو رذيلة هى تلك العلاقات التى يستوحيها من الآداب الإسلامية . وربما خطر له أن يوقع فى روع صاحبه الأوربى أنه رجل (متقدم) يتخلى عن القديم ليأخذ بالجديد ، ولكنه ضرب من الدفاع عن الذات أمام الغريب . إذ هو على يقين أن هذا الغريب يجهل حقيقة الإسلام ويعتبره فى عرفه مرادفًا للرجعية . على أن الغرباء الأجانب إنما يسمعون هذه الأحاديث من فئة قليلة بين الذين يقال عنهم إنهم فكريون Intellectuals ويجوز أن يكون بعضهم قد تحول عن ديانته ليدين بالمذاهب الهدامة . إلا أن هؤلاء الفكريين المزعومين لا يمثلون أحدًا فى الأمة المراكشية غير أنفسهم . فإذا أردت حقًا أن تعرفنا - كما نحن - فإنما تعرفنا هذه المعرفة بمشاركتنا فى حياتنا اليومية . . .» .

وقد سرد الأستاذ لاندو فى الكتاب أحاديث شتى سمعها من الشبان والشابات ، وروى جملة من المشاهدات التى مر بها اتفاقًا من العواصم وقرى الريف ، ومن أعجبها عنده أنه كان يتحدث إلى فتاة متعلمة تحسن الكلام بالفرنسية كإحدى الفرنسيات ، وكانت تشترك فى أحاديث المجلس وهى مقنعة بقناعها التقليدى فسألها : كيف توفقين بين عادة البرقع وهذه الآراء العصرية التى تجهرين بها . فكان جوابها أن الإنسان لا يعتقد ما يعتقده بملابسه وأنها تستطيع أن ترفع القناع ولكنها لا تحب أن تؤلم أباها وأمها بعمل لا يستريحان إليه . وحكى أنه كان يركب أحيانًا إلى منازه المدن فيرى الفتى الناشئ ينزل عن مطيته فى موعد صلاة المغرب لينتحى جانبًا ويؤدى صلاته قبل مواصلة السفر

إلى وجهته ، وحكى عن طائفة الأتباع والخدم الذين عرفهم فى بيته أو فى بيوت أصحابه أنهم يعاشرون الأجانب زمنًا ولكنهم يقومون بفرائضهم ولا يشربون الخمر أو يأكلون المحرمات .

ولم يستطع الرجل أن يحكم على الذين حادثهم واختبر شئونهم من أبناء البلاد بحكم واحد يشملهم جميعًا ، ولكنه استطاع أن يقول : إن الأوربيين المتعجلين يخطئون الظن خطأ بعيدًا إذا اعتزوا بظواهر الفرنجة وحسبوها علامة على المروق من العقيدة ، فإن الظواهر خداعة فى مسائل الدين التى تنطوى عليها الضمائر خلال عصور المحنة وليست هى بالعلامة الصادقة على الشعور الخفى الذى لا يدركه صاحبه أحيانًا ، فضلاً عن الغرباء عنه من أبناء وطنه أو أبناء الأوطان الأجنبية .

فربما شوهدت الغيرة على الإسلام بين أناس يهملون الشعائر ويخالفون الفرائض ولا يحرصون على التقاليد ، وربما كانت الغيرة الوطنية التى تحتدم فى نفوس الكثيرين من الساسة المتطرفين قبسًا من غيرة المسلم على حماه وعلى تاريخه القديم ، ولا يجوز أن يفهم الأوربى أن المسلم يتخلى عن نسبته إلى الإسلام إذا لاح عليه أنه قد تخلى عن بعض الشعائر والتقاليد .

والذى نحب أن نزيده على تعليقات الأستاذ لاندو أن أمثال هذه الظنون التى تخامر بعض الكتاب عن الإسلام قد سلفت فى الأزمنة الخالية غير مرة منذ أوائل الدولة الأموية إلى هذه الأعوام الأخيرة . وقد خفيت على مؤرخى القرون الخالية دلالتها العارضة ودلالتها الدائمة ، فخطر لهم فى كل مرة أنها نذير بزوال الدين أو عَرَض من أعراض النهاية التى يقدرونها لكل عقيدة كما يقدرونها لكل حضارة أو لكل نظام من نظم الاجتماع ، ولو أن المتأخرين استفادوا من عبر الماضى لاجتنبوا الخطأ فى رأى واحد بين سائر الآراء وهو خطأ الظن بأنها «الشيخوخة» قد عرضت للدين نفسه وآذنت بانتهاء حياة الإسلام إلى ما تنتهى إليه كل حياة . فإن العرض الواحد لا يكون من أعراض الشيخوخة عشر مرات .

حدث فى أواخر أيام الخلفاء الراشدين أن المسلمين الذين انتقلوا إلى البلاد المفتوحة فتنوا بمحنة الحضارات المنحلة ، وقارفوا بعض منكراتها وهجروا بعض عاداتهم فخيل إلى أعدائهم كما خيل إلى بعض الغلاة منهم أنها نذر الضياع على

قول فريق ونذر القيامة على قول آخرين ، وجاء «رد الفعل» كما نقول فى اصطلاح هذه الأيام غلوًا من الخوارج فى التشديد وإمعانًا من الأعداء فى الدس الخفى أو فى العدوان الظاهر ، ثم انقضت الدولة كلها - وهى أول دولة إسلامية - وقامت بعدها دولة العباسيين على أساس من الغيرة للدين والنخوة لبيت النبوة . وتكررت هذه الظاهرة على مثال أخطر وأكبر فى إبان دولة العباسيين ، فإن احتكاك العالم الإسلامى بعالم الحضارة الرومية وعالم الحضارات الشرقية المنحلة قد أفشى بين المسلمين من جميع الأجناس بدعًا كهذه البدع التى يذكرها السائحون المعاصرون ، ويرد عليهم الأستاذ لاندو بما أجملناه . كان الرجل منهم يتظرف بالزندقة ليقال عنه إنه من التقدميين على اصطلاحنا فى هذه السنين ، وكان الفكريون المزعومون يلقى بعضهم بعضًا بالسؤال عما يعتقده مذهبًا له كأنما كانت عقائد المذاهب ضربة لازب مع العقيدة الإسلامية العامة كما قال ميسرة بن حسان السمرى يسأل ابن أبى الشيخ :

دخلتنا الشكوك يا ابن أبى شيخ ... بأى الأديان أنت تدين
وإلى أيها تميل يا ابن أبى جعفر ... كم ذا الهوى وذا التلوين؟

وكان «التظرف» يقضى على أدعيائه أن يخلطوا الهزل بالجد فى دعاوى المجون والحكمة وشواغل الأدب وغير الأدب كما قال ابن الرومى فى صاحبه أبى على البصرى :

قولا لطوط أبى على ... بصريِّنا الشاعر المنجم
المتندر المضحك المغنى ... الكاتب الحاسب المعلم
الفيلسوف العظيم شأنًا ... العائف القائف المعزم
الماهن الكاهن المعادى ... فى نصر إبليس كل مسلم

وظن «السائحون» قديمًا من قبيل السائحين حديثًا أن العالم الإسلامى مرق من الإسلام وانطفأت غيرة الإنسان على حوزته من قلوب المسلمين ، ولكن العالم الإسلامى - هذا بعينه - قد وقف بعد ذلك بحقبة قصيرة فى وجه الغارة الصليبية وجاء بشعوبه من أقصى المشرق لرد الغارة بمثلها إلى قلب القارة الأوربية .

ولما مضت على هؤلاء المسلمين فى شرق القارة الأوربية بضعة قرون خيل إلى بقايا الصليبيين أنهم قد «نضجوا» للتبشير وقد أصبحوا على استعداد للنزول عن شريعتهم كما نزلوا عن أحكام معاملاتهم فى تلك الامتيازات «الأجنبية» التى سموها من أجل ذلك «بالتنازلات» Capitulations أو التسليمات!

ولكن هذه التنازلات بعينها كانت بعد ذلك صيحة الثورة على السيطرة الأوربية ، حتى زالت الآن ورجعت عنها الدول الأوربية بدلاً من رجوع الإسلام بعدها عن غيرها من معالمه وتقاليده .

فإذا كان شيوع التقاليد الحديثة أحيانًا باعثًا من بواعث الأسف ودليلاً من أدلة التهاون ، فتلك حالة توجب على المسلمين ، ولا ريب ، أن يبدلوا بها ما هو أوفق منها للآداب الإسلامية ، بل للآداب الإنسانية التى تخالفها التقاليد المعيبة كما تخالف حقيقة الإسلام .

ولكن التشاؤم منها يزيد على قدره الصالح إذا خيل إلينا أنه تشاؤم من مصير الدين كله ، ويزيد تفاؤل المتربصين به أيضًا عن قدره الصالح لهم إذا اعتبروه «عرضًا إسلاميًا» ولم يفهموا من حقيقته قبل ذلك أنه عرض أجنبى يسرى من جانبهم ويوجب عليهم أن يتشاءموا منه لأنفسهم ولا يقصروا شؤمه على مستقبل الإسلام .

* * *

الدّعَوات الإسلاميّة
وَالإسْلام وَوَحْدة الجمَاعَة[1]

عرضت صحيفة «التايمز» الأدبية لكتابين عن الإسلام فى عدد واحد، وهو العدد الصادر فى الحادى عشر من شهر أغسطس الماضى (سنة ١٩٦١) .

والكتابين هما : كتاب «الدعوات والصلوات الإسلامية» Moslem Devotions لمؤلفته السيدة كونستانس بادويك، وكتاب «الإسلام ووحدة الجماعة» Islam and the Intepation of Society لمؤلفه الدكتور مونتجومرى وات، أشهر المؤلفين عن الإسلاميات من المستشرقين الإنجليز فى الوقت الحاضر .

ينقسم كتاب الدعوات إلى ثلاثة أقسام : قسم الدعوات والصلوات المفروضة، وقد جمعت فيه المؤلفة آيات القرآن الكريم، ومن التحيات ودعوات القنوت، التى تتلى فى الصلوات الخمس وفى غيرها من صلوات يؤديها المسلم أحيانًا وإن لم تكن من أركان العبادة .

والقسم الثانى : يشتمل على دعوات توافق دعوات الصلاة وتضاف إليها من قبيلها على سبيل التوسع والتفسير .

والقسم الثالث : تسبيحات مستقلة يتعبد بها المسلم على انفراد أو مع الجماعة، وأكثرها من دعوات الصوفية باللغة العربية، وغير العربية .

والمؤلفة تسمى هذه الأقسام الثلاثة بأسماء ترتضيها وتفضلها للدلالة على غرضها، فمنها قسم داخل الصلاة المفروضة، وقسم على عتبة الصلاة المفروضة، وقسم خارج هذه الصلاة يختاره ولا يلزم أن يكون من باب الفرائض ولا من باب السنة النبوية، بل يجوز لكل مسلم أن يختار له عبارته وعناه ومناسبته على حدة أو مع إخوان له فى الطريق وفى حلقات الأذكار الخاصة .

---

(١) الأزهر سبتمبر ١٩٦١ .

وجملة ما اختارته المؤلفة مقبول عند جماعة المسلمين مع اختلاف المذاهب ، إلا طائفة منه يتمادى بها الشطط إلى القول بالحلول أو القول «بوحدة الوجود» على النهج الذى يرفضه أهل السنة بالإجماع ، وهو ذلك النهج الذى يوشك أن يتطوح بأهله إلى تأليه الكون بمظاهره المادية وبواطنه الخفية ، وليس هذا القسم من الدعوات بالكثير وإن كان ناقد الكتاب يقول : إن دعواته أقرب إلى تسبيحات المتصوفة منه إلى العبادات العامة أو العبادات المقررة للجميع ، وهى على حد تعبيراتهم «العبادات الأرثوذكسية» .

ويقول ناقد الصحيفة الأدبية : «إن نشر هذه الدعوات بين المسيحيين ، وهى مما يغلب عليه اللطف المستحب ، خليقة أن تقرب أسباب التفاهم بين الديانات فيما هو أقرب الأمور إلى جوهرها جميعًا وهو العبادة . وإن العبادة الإسلامية بأسلوبها الصوفى على الخصوص لتحمل كثيرًا من معانى المشابهة والمشاركة بينها وبين العبادة المسيحية» .

ويمضى الناقد قائلاً : «ولم تقصر المؤلفة اختيارها على هذا النوع - يعنى نوع الدعوات الصوفية الخالصة - بل هى تعرض لنا ما يلتبس بشىء من الكثافة فى أوراد المتصوفين المعاصرين ، وأن هذين النمطين من أنماط الدعوات الصوفية ليظهران معًا بين المسلمين كما يظهران متصاحبين فى تقاليد أكبر الكنائس الغربية» .

نقول : إن عيب هذا الكتاب وأمثاله أن مؤلفيها يحشرون فيها كل ما ينقلونه عن الإسلام إلى صعيد واحد ، ولا يكتفون بالجانب الخالص منه متعللين بدعوى الحيدة واجتناب التحيز لهذا الفريق أو ذاك فيما ينسبونه إلى أتباع الديانة التى هم غرباء عنها متهمون بالغرض إذا تشيعوا لفريق من أتباعها على غيره . ولولا هذا الخلط الذريع لكانت هذه الدعوات عنوانًا صالحًا للديانة الإسلامية فى جوهرها ، وهو جوهر العبادة كما قال ناقد الكتاب .

وعندنا أن الإسلاميات التى تنشر فى الغرب تحتمل الترتيب والتقديم بالأولية من وجهة النظر الإسلامية ، فأجدرها بالنشر - وأولها فى هذا الترتيب - أمثال هذه الدعوات والصلوات ، على شريطة السلامة من شوائب التصوف الكثيف كما وصفه ناقد الكتاب ، ومن شوائب التصوف المدخول الذى تطرق إلى الإسلام من بقايا الديانات الشرقية الخالية ومنه ذلك الإغراق فى دعوى الحلول ودعوى «الإلهية الكونية» التى تسمى عند أصحابها بوحدة الوجود ، ولا ينكر المسلم أن يؤمن بالتجلى الإلهى فى آيات الكون بين السموات والأرضين ، فإنه مأمور بالبحث عن

هذه الآيات بنصوص الكتاب ووصايا الأحاديث النبوية ، ولكنه ينكر أن يؤمن بالوثنية الكونية التى تصدق على من يؤله الكون كما تصدق على من يؤله جزءا من أجزائه ، فهو فى تنزيهه للوجود الإلهى لا يرفض عقيدة من العقائد كما يرفض هذه «الوثنيات» .

فإذا سلم كتاب الدعوات الإسلامية من أوراد أدعياء الصوفية ، ومن لوثة الحلول ، ووحدة الوجود فكل ما بقى منها فهو الدين الحق على أفضل ما يكون فى عقل الإنسان وضميره ، وليس لدين من الأديان دعوات ، أو صلوات ترتقى إلى أفق من التنظيم أرفع من أفقها الذى ارتفعت إليه فى الإسلام .

ففى البرهمية سبحات من التصوف الروحانى تعلو إلى الذروة بين الدعوات الدينية ، ولكنها تفارق التوحيد دائمًا كلما أوغلت فى أعماق العقيدة أو رجعت إلى التشبيه بالقوى الطبيعية . وكثيرًا ما ينتهى بها أسلوبها فى التنزيه إلى فناء كالعدم يتساوى فيه الوجود المطلق و «اللاوجود» على الإطلاق !

وفى غير البرهمية من الديانات الكبرى أوصاف للإله تهبط بالخالق إلى مشابهة الخليقة وتنسب إليه أفعالاً كأفعال أرباب الديانات الأولى ، وهذه جميعًا شوائب للإيمان بالربوبية يتنزه عنها الإسلام ولا تخفى على غير المسلمين بل يحسبها بعضهم غلوًا فى «الإبعاد بين الخلق والخالق» !

ودعوات الإسلام حقيقة أن تسكت المتخرصين عليه ممن يتهمونه بالمادية أو بالوقوف عند حدود الحياة «العملية» التى تتجافى بالمسلمين عن صفاء الروح وتلصقهم بنعيم الأرض حتى حين يتصورون نعيم السماء .

ولو أن كتاب الدعوات الإسلامية خلا من الدعوات المدخولة لكان فى الطليعة من الكتب التى يحق لها النشر بين الأوروبيين من وجهة النظر الإسلامية ، ولكننا نستكثر على مؤلف غير مسلم أو مؤلفة غير مسلمة أن يعمل لإبراز الإسلام على هذه الصورة المثلى ، وحسبه أنه يعف عن محاسنه فلا يطمسها .

* * *

أما الكتاب الآخر عن الإسلام ووحدة الجماعة فقد كتبنا عنه منذ شهرين فى مجلة منبر الإسلام ، وخلاصته فى بضعة سطور أن الدعوة المحمدية كانت دعوة تجديد بين أناس غير محافظين ، لأن كفار قريش كانوا قد تبدلوا فى معيشتهم وخالفوا سنن البداوة العربية من قبلهم ولكن الفارق بين تجديدهم وتجديد الإسلام أن

الإسلام أعطى ضمير الفرد «مثلاً أعلى» يستقيم عليه وجوده بين أبناء قومه وبين بنى الإنسان عامة ، وأنه أعطى الجماعة الإسلامية كيانًا يسمى «الأمة» ويجعل لها من ثمة قبلة واحدة وإمامة واحدة تثبت على تقلبات الأيام وصروف التاريخ .

وإنما نعود إلى الكتاب على هذه الصفحات لنعلق على تعليق الصحيفة الإنجليزية ، فإن ناقد التاريخ - على خلاف العادة فى هذه الصحيفة - قد أنحى على الكتاب ومؤلفه إنحاء يكاد أن ينحدر إلى الإهانة والتنديد ، ولعله بهذا المسلك العجيب يعزز الشبهة التى تساور أذهان قراء الصحيفة فى السنوات الأخيرة ، وهى شبهة الهوى المصبوغ بصبغة التطرف الاجتماعى الذى يقترن أحيانًا بالإسرائيليات ونزعات الهدم والفوضى في الفن والأدب . وكأنما استحق الدكتور مونتجومرى ذلك الإنحاء عليه من ناقده المتطرف لأن كتابته فى نظره قد تحسب من قبيل المحاباة للإسلام ، وإن تكن فى نظر القارئ المسلم دون حق الإسلام فى التعظيم والتحقيق .

وأكبر مآخذ الناقد على مؤلف الكتاب أنه نسى «قابلية الدين» للمفارقات وهو يكتب عن الإسلام وعن النظم السياسية والاجتماعية فى تاريخه ، فاستعظم على الإسلام أن ينجو من الاتهام بمصادمة الواقع ومخالفة المعقول ، كأنه كان يطالب المؤلف بتكرار المقال عن جمود النظام الاجتماعى فى الإسلام لأنه لم يقرر مبادئ الاجتماع التى تتابعت بعد قيام دعوته لينقض بعضها بعضًا إلى هذا الزمن الأخير . وليس تعليقنا على هذا التعليق إنكارًا لما ادعاه عن موقف الإسلام من المذاهب الاجتماعية التى ظهرت منذ قيامه ولا تزال تظهر إلى اليوم ، ولكننا نعلق عليه لنقول : إن الإسلام قد استوفى شرط الدين حقًا لأنه عقيدة تثبت على تقلب المذاهب الاجتماعية ولا تزول مع كل عقيدة منها ، وقد يزول نظام رأس المال ويزول غيره من النظم التى تعاديه أو تواليه ، ولكن الإسلام يقيم للمجتمع نظامًا قويمًا لا يعنيه تبدل الأسماء حين يكفل له تحريم الاحتكار ويوجب فيه إنصاف العاملين ومعونة العاجزين عن العمل ، وأيما نظام يمتنع فيه كنز الذهب والفضة وتداول الثروة بين الأغنياء ، ويلتزم فيه المجتمع بأعباء الضعفاء والمحرومين فهو نظام إسلامى مشروع ، وهو كذلك نظام إنسانى متجدد ، والمسلمون الذين يطبقونه أناس مفروض فيهم أنهم خلائق عاقلة ، تنطلق أيديها بتدبير مصالحها ولا تملى عليها قبل ولادتها إملاء الحروف والبنود ، لكى تطاع على السماع ، ولا تسمح لمن تملى عليهم بموقف غير موقف الخضوع والاتباع .

* * *

أطلس العالم العربى والشرق الأوسط(١)

ظهر فى العهد الأخير أطلس العالم العربى والشرق الأوسط باللغة الإنجليزية ، وفيه نحو أربعين خريطة جغرافية للبلاد العربية وبلاد الشرق الأوسط على العموم ، مع بيان مرسوم لمواطن المسلمين فى قارتى آسيا وأفريقية وبعض المواقع الأخرى من العالم المصطلح على تسميته بالعالم القديم .

واختتم الأطلس ببحث مطول عن تاريخ العرب والإسلام كتبه الأستاذ بكنجهام Beckingham أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة منشستر ، وقال فى فذلكته ما خلاصته :

«ويمكن أن يقال عن يقين : إن هناك عوامل ثلاثة هامة كلها جديد بحيث يصح عقلاً أن نترقب منها بداءة صفحة أخرى من صفحات التاريخ العربى ، وهذه العوامل الثلاثة هى الوطنية وحركة التصنيع والحركة (العلمانية) أو حركة الانطلاق من الصبغة الدينية» .

«ففى القرن التاسع عشر أخذت الوطنية من الطراز الأوربى تعمل عملها بين أبناء البلاد العربية الذين تلقوا شيئًا من التعليم على المنهج الأوربى ، وكان الكثيرون منهم ضباطًا عسكريين ، وبدأت الحركة على أقواها فى سورية ومصر . . . وقد أعقب سقوط الدولة العثمانية قيام عدد من الحكومات العربية يحد استقلالها حدًا شديدًا نظام الوصاية من قبل بريطانيا العظمى وفرنسا ويحول دون اتحادها الوطنى تنازع البيوت المالكة ومنافساتها ، ولم تتقرر روابط التعاون بين هذه الحكومات حتى فى مواجهة الصهيونية ، ولا كان زوال البيوت المالكة قاضيًا على منازعاتها ومنافساتها ، ولكن لا خلاف فى استطاعة الدعوات الوطنية أن تثير الشعور فى البلاد وبخاصة بين أبناء الجيل الجديد الذين يكاد هذا الشعور أن يكون بينهم أقوى من الشعور بالإسلام» .

---

(١) الأزهر أكتوبر ١٩٦١ .

«أما حركة التصنيع فقد كانت ضربة لازب بعد الاحتكاك بالغرب وبعد أن تحولت مواطن آبار النفط من بلاده فقيرة إلى بلاد من أغنى جهات العالم المعمور . وقد أصبح الناس فى الجزيرة العربية حيث بقيت أحوال المعيشة على ما كانت عليه قبل الإسلام جمهرة من (البرولتارية) الحديثة أى جمهرة الصناع الفقراء فى مراكز التصنيع . وقد اشتركت كل من حركة الوطنية وحركة التصنيع معًا في التمهيد لظهور الروح «العلمانية» التى أضعفت العقيدة الإسلامية ضعفًا لم تصب بمثله فى جميع أدوارها التاريخية ، ولو أن الوطنية العربية على الإجمال تجنح إلى موالاة الإسلام أكثر من جنوحها إلى أية عقيدة أخرى . ومن المألوف الشائع أن ترى أناسًا من العرب يدافعون عن ديانتهم مدافعة الغيرة والحماسة مع إهمالهم لأداء فرائضها والقيام بشعائرها ، وهى ظاهرة لا نراها مقصورة على الإسلام .

«وإن طائفة من الأفكار ذات الأثر الفعال فى العالم العربى لهى اليوم وليدة الحضارة الأوربية ، فإن فكرة الدولة الوطنية ذات السيادة كانت هى المثل الأعلى الذى توخاه الزعماء الوطنيون عند ثورتهم على السيطرة الأوربية وقد أفلحوا فى تحقيق استقلالهم السياسى باتباع الأساليب الإدارية وأساليب التنظيم والدعاية ، ومناورات السياسة الحديثة ، وهم يعتقدون أنهم إنما يحققون الاستقلال الاقتصادى باتباع الأساليب الفنية والصناعية الحديثة وأن محاولتهم أن ينهضوا بذلك كله دون مساس بتقاليدهم العربية والإسلامية لجديرة أن تكسبهم احترام الأمم الأخرى كما يكسبهم عطفها . . .» .

ونرى كما يرى القارئ - فيما نحسب - أن صاحب هذه الدراسة يتحرى البحث العلمى فى ملاحظاته على تاريخ العرب والإسلام فى العصر الحديث ، وأن الخطأ إنما عرض له من جانب مذهب التفكير ولم يعرض له من جانب سوء النية .

فهو على عادة الكثيرين من المؤرخين المتأخرين يخلط عند الكلام على حركات التاريخ العربى بين الوطنية والقومية ، وهما على اقتراب الشبه بينهما مختلفان بالنشأة والطبيعة ، وقد يقال في التفرقة بينهما على وجه السرعة أن الوطنية أقرب إلى السياسة والاجتماع وأن القومية أقرب إلى العنصر والسلالة ، وأن الوطنية بمعناها فى مصطلح العلوم السياسية ظاهرة متأخرة نشأت فى الغرب

بعد انحلال الدولة المقدسة وانفصال الحكومات عن سلطان الكنيسة ، مع ضعف النبلاء أصحاب الإقطاع وتقرير الحقوق للشعوب بجميع طبقاتها . أما القومية فهى بين العرب على الخصوص سابقة لتكوين الشعوب على الوضع الحديث ومنها القومية التى جمعت قبائل العرب فى وقعة ذى قار لمحاربة فارس ، ومنها كذلك قومية القبائل التى ساعدت بنى قومها العرب المسلمين عند فتح فلسطين وفتح مصر ، إذ كان عمرو بن العاص ينتقل بجيشه من حدود فلسطين إلى المنزلة إلى الفيوم ولا يهتم بحماية ظهره من جنود الروم ، اعتماداً على معونة القبائل العربية فى تلك الأقاليم .

ولا يزال اسم الأمة باللغة العربية دليلاً على صحة فهم هذه الكلمة ورجحانها بالاصطلاح العلمى على الكلمة الأوربية التى تجعل الوطنية علاقة اشتراك فى أرض المولد ، فإن الأمة بلغة الضاد تجعل الوطنية مرهونة بوحدة الوجهة والأمانة ، ولا تعلقها بموطن الميلاد كما تتعلق به عند الأوربيين فى اصطلاحها الحديث .

وعلى هذا الاعتبار يخطئ المؤرخ الذى يتوهم أن الشعور القومى بين العرب طارئ جديد يخشى منه على قوة العقيدة الدينية ، فإنه كان على أقوى ما يكون فى صدر الإسلام بعد فتوح الإسلام الأولى ، ومن أجل هذا قيل إن الشعوبية بين شعوب الإسلام غير العربية كانت بمثابة رد الفعل لقيام الدولة أولاً على العنصر العربى دون غيره من عناصر الدولة المتعددة .

* * *

والوهم فى مسألة «العلمانية» أظهر من هذا الوهم فى مسألة الشعور الوطنى أو الشعور القومى ، إذا كان المقصود بالعلمانية ما يقابل عندهم «الطقوس الكهنوتية» أو مراسم السلطة التى يفرضها رجال الدين على الدولة .

فالإسلام لم يعرف قط شيئًا من قبيل الطقوس الكهنوتية منذ قيام النبى ﷺ بالأمر وقيام خلفائه به من بعده . ولم يرفض خلفاء بنى العباس إدارة الميزانية فى دولتهم على حساب السنة النيروزية ، بل لم يرفضوا الاحتفال بالنيروز فى موسمه المألوف عند الأقدمين ، ولم يتبع أحد من الخلفاء أو الأمراء المسلمين طقوسًا كهنوتية فى شئون الولاية أو فى شئون المعيشة العامة ، بل كانت أزياؤهم وتقاليدهم على سنة الأمم فى عهودهم ، فارسية وتركية ، ومتشبهة بالفرس

والترك فى أزيائها وتقاليدها ، وقد كان خلفاء الأندلس قدوة للأوربيين فى المعيشة «العلمانية» ، ومنهم تعلم هؤلاء الاستقلال عن طقوس الكهنوت وشعائر السلطة المفروضة من جانب رجل الدين ، وليست الكسوة ذات «الجكتة والبنطلون» أول كسوة غريبة قبلها المسلمون بعد اتصالهم بشعوب العالم من المشرق إلى المغرب ، وليس فى العصر الحاضر «علمانية» لم تسبق لها مثيلات كثيرة منذ قيام الدعوة المحمدية دون أن تصيب العقيدة بالضعف أو تمس الولاء للدين فى قلوب أبنائه ، ولعل الصليبيين فى أشد أيام العصبية الدينية بين المعسكرين قد تعلموا من «علمانية» المسلمين أضعاف ما تعلمه المسلمون من علمانية الغرب فى زمانهم ، ولم يحدث قط أن الإسلام كان يومًا ما أشد إحساسًا بوجوده مما كان أيام الحروب الصليبية ، ولا نستثنى من ذلك جماعة المسلمين الذين خضعوا لدولة بيت المقدس نحو قرن من الزمان ، ولم يطمع فى إسلامهم أحد من حكامهم العلمانيين ولا الكهنوتيين .

* * *

ولاشك أن الأستاذ بكنجهام كان يكتب كلامه عن التصنيع وفى ذهنه منشور ماركس وأنجلز إلى طبقة العمال بين جميع الطبقات ، وهو ذلك المنشور الذى جعل عهد «التصنيع» فى النهاية ختامًا لعهود الوطنية والدين ، وخيل إلى كاتبه أن طبقة العمال التى سموها بالبرولتارية مارقة جميعًا من الدين ومن كل إيمان بالله والرسل بعد شيوع التصنيع فى أمم الحضارة الأوربية .

ولكن هذه النبوءة المادية لم تصدق بين عمال الغرب نفسه إلا بمقدار محدود كان من الجائز أن ينحرف عن الدين فى قطر من الأقطار لم يسمع بالصناعة العصرية ولم يخضع قط لنظام التصنيع الحديث ، فإن المتدينين من عمال البلاد الأوربية والأمريكية يزيدون كثيرًا على المنحرفين منهم عن الدين ، وعدد الكتب الدينية التى تنتشر بينهم يزيد على أضعاف أمثالها قبل عهد التصنيع ، وليس عند المؤرخين الاقتصاديين حجة على أن العقائد «الصورية» ظاهرة خاصة بزماننا هذا دون الأزمنة الخالية ، فلا تزال أوصاف المجتمع الأوربى فى القصص قبل مائتى سنة تمثل لنا «التدين» فى تلك الأيام على مثال من «العادات الصورية» لا تختلف عنه عادات العصر كثيرًا بين جماعات المتدينين المحسوبين فى زمرة المتحللين من فرائض التدين الصحيح .

ويعلم الأستاذ بكنجهام ـ ولا ريب ـ أن الحركة النقابية فى بلادنا الشرقية لم تكن وليدة التصنيع الحديث ؛ لأن نقابات الصناع وأصحاب الحرف شاعت فى القاهرة على عهد الفاطميين شيوعها اليوم فى لندن وباريس وواشنطن ، وكانت هذه النقابات قوام المواكب الدينية التى تخلفت بقاياها إلى العصر الحاضر ، فلم ينقطع ما بينها وبين المعالم الدينية لارتباطها بتقاليد الحرفة ، وافتراقها عن الطوائف الأخرى من أتباع رجال الطرق ورواد المساجد والأضرحة ، بل كان هؤلاء جميعًا « موكبًا » واحدًا فى كل احتفال عام ، يتسم بسمات العبادة ، أو يقوم على ذكرى من الذكريات الدينية .

* * *

إن العوامل الثلاثة التى أحصاها الأستاذ بكنجهام لها خطرها الذى لا يجهل ولا يهمل ولكنها على جدة أشكالها وأسمائها ليست بالعوارض الجديدة كل الجدة فى تاريخ الإسلام ، فقد سبقت لها فى هذا التاريخ مثيلات كثيرات ترددت عليه حقبة بعد حقبة ، وتركت آثارها حينًا أو ذهبت بغير أثر يذكر ، وسيمر الإسلام بعوامل اليوم كما مر بمثيلاتها قبل اليوم بسلام .

* * *

خَاتَم الأنبِيَاء

محمد رسول الله وخاتم النبيين .

عقيدة يصدقها المسلم تصديقه بعقائد الدين ، ولكنه يفهمها كذلك فهم المرء للحقائق العلمية والقضايا المنطقية ، لأنه إذا فهم النبوة بصفاتها المقررة فى الإسلام علم أنها نبوة تختم بها النبوات وتفتتح بها فى التاريخ الإنسانى رسالة الرشد والضمير والإلهام .

إن ختام النبوات خاصة محمدية ، ولكنها خاصة لا يستأثر بها محمد ﷺ لنفسه . لأن الخاصة التى يقتضيها تاريخ الأمم جميعًا تعم كل مؤمن بالدين وكل مجيب للدعوة ولا تخص صاحب الدعوة فى حياته ولا بعد مماته .

وقد يفهم المسلم ذلك بغير مشقة ، ولكنه على وضوحه للمؤمنين بالرسالة المحمدية يساق عند غيرهم من المتدينين ومنكرى الأديان مساق الغرابة ، ويسىء بعضهم فهمه ، كما يسىء أدبه ، فيزعم أنها أثرة لصاحب الدعوة يغلق بها أبواب النبوة على سواه كما يغلق صاحب السطوة أبواب الملك على من يليه من غير أهله أو من يصطفيه .

ولا حاجة فى هذا المقام إلى مناقشة المنكرين فى أمر الايمان بختام النبوة ولا بنفعها فى زمن من الأزمان ، فلا فرق عندهم بين الزمن الذى يبدءون بإنكار كل نبوة فاتحة قبل أن ينكروها خاتمة ، ولا يقولون بضرورة النبوة ولا بنفعها فى زمن من الأزمان ، فلا فرق عندهم بين الزمن الذى يستجاب فيه للأنبياء والزمن الذى لا يستجابون فيه ، وكلاهما عندهم زمن يستمتع فيه لشىء لا يجوز الإصغاء إليه .

لكن المتدينين الذين يستغربون ختام النبوة إنما يستغربون فى الواقع أمرًا ينساق إليه المصدقون بالنبوات سواء فطنوا إليه عن فهم وروية أو أخذوه مأخذ العادة التى لا تحتاج من معتادها إلى التعليل . فقد آمن بختام النبوة كل من آمنوا بنبوات التوراة ، وقد ختم بعض هؤلاء دعوات الدين جميعًا بما دانت به سلالة واحدة لا يوحى الله إلى غيرها ولم يوح إلى أحد من قبلها فيما اعتقدوه ويعتقدونه حتى اليوم .

وليس إيمان المسلم بخاتم النبيين على نحو من هذه الغرابة فى التصديق ولا فى التفكير . لأن النبوة التى ختمت النبوات فى عقيدة المسلم هى الدعوة التى تدوم مدى الزمن ، لأنها تكل العقيدة إلى العقل وتقيم العقيدة على الإيمان برب واحد هو رب العالمين .

كانت الأمم قبل البعثة المحمدية تفهم أن النبوة استطلاع للغيب وكشف للأسرار والمخبآت ، يستعينون بها على رد الضائع وإعادة المسروق أو الدلالة عليه ، ويستخبرونها عن طوالع الخير والشر ومقادير السعود والنحوس .

وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع وتسليم القرابين .

وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعًا للنوازل التى يستحقونها أو تنزل بهم لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون العارفون ويسألون المعبود فى رفعه قبل نزوله .

فجاءت نبوة الإسلام بجديد باق لم تسبق له سابقة فى الدعوات الدينية ، ولا حاجة بعده إلى جديد ولا استطاعة فيه للتجديد ، لأنه يخاطب فى الإنسان صفته الباقية وخاصته الملازمة ، وهى خاصة النفس الناطقة بين الأحياء ، وخاصة الضمير المسئول الذى يحمل تبعته ولا تغنيه عنها شفاعة ولا كفارة من سواه .

إنها نبوة فهم وهداية وليست نبوة استطلاع وتنجيم ، وإنها نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير وليست نبوة خوارق وأهوال تروع البصر والبصيرة وتروع الضمائر بالخوف والرهبة حيث يعيبها قبول الإقناع .

إنها نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًا ولا تعمل لهم عملاً غير ما يعملونه لأنفسهم بمشيئتهم إذا اهتدوا بهداية العقل المتدبر والضمير السليم :

﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ .

نعم ، ولا إغراء ولا مساومة على قربان أو جزاء بين الأخذ والعطاء : ﴿ **قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ** ﴾ .

وقد جاءت سمعة المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة يوم مات ابنه إبراهيم وكسفت الشمس فظن الناس أنها كسفت لموته وأبى النبى الصادق أن يسكت عليها فتكلم ليعلمهم : (إن الشمس والقمر آيتان . . . لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته) .

وخليق بذوى العقل ، وأولى الألباب ، أن يصدقوا هذا النبى حين يقول لهم : إن المعجزة لا تنفع من لا ينتفع بعقله وضميره ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۞ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ .

فإذا جاء النبى بهذه الرسالة التى تكل الإنسان إلى «خاصة إنسانية» لا تفارقه وتعطيه البينة من شهوده فيما يراه حوله ولا يغيب عن حسه وفكره ، فأين تنتهى هذه الرسالة؟ وماذا تعمل الرسالة التى تأتى بعدها لتنسخها وتخلفها؟ إنها لا تعمل إلا أن تنسخ العقل أو تعود به كرة أخرى إلى القرون الأولى ، وليست هذه ولا تلك بدعوة يحتاج إليها إنسان من الراشدين بعد أن وكل إلى هداه ، فمن لم يكن من الراشدين فحاجته إلى المعلم الذى يدله على ما فاته من هداية النبوة ألزم من حاجته إلى نبى جديد معيد لما تقدمه ، كأنه يسقط واجب التعليم .

ولقد تقدمت نبوة الإسلام دعوات كثيرة من أكبر الدعوات شأنًا فى تاريخ العقيدة ، ولكنك لو عرضتها على مؤرخ ينظر فى أدوار التاريخ - كائنًا ما كان معتقده فى الدين - لم يستطع أن يختتم دور النبوة فى تاريخ الإنسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأنها وبعد أثرها فى العصور اللاحقة بعصرها ، لأنها جميعًا قد بدأت وانتهت قبل أن توجد فى أذهان الناس فكرة الإنسانية العامة وفكرة الإنسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير .

فنبوات بنى إسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة تنعزل بحاضرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم ، وعيسى ـ عليه السلام ـ قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء إبراهيم بالروح فى عداد أبنائه بالجسد ولكنه أدى رسالته وبقى الإنسان بعده محتاجًا أشد الحاجة إلى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره فى النجاة من أوزاره والتكفير عن سيئاته والنهوض بتبعات صلاحه وتربية روحه ، ولن تفرغ أمانة النبوة فى تاريخ الإنسانية قبل أن توجد للإنسانية فكرة عامة فى نفوس أبنائها ، ولن تختتم النبوات قبل أن يوجد الإنسان الذى يخاطب بخطاب العقل ويحاسب بحسابه ويحمل تبعاته على عاتقه ويشترك على سواء بينه وبين إخوته من البشر فى عبادة إله واحد هو رب العالمين أجمعين ، وليس بالرب الذى

يخلق نعمته لسلاله واحدة من خلقه أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ، وحساب لم تضعه فى موازينها بعمل يمينها .

فلما جاءت نبوة الإسلام صح فى حكم العقل أن تختتم بها النبوة لأنها حاضرة فى كل وقت يحضره الإنسان العاقل المسئول وتحضره آيات الله لقوم يعقلون :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ونقول : إن ختام النبوة - بعد الدعوة المحمدية - قد صح فى حكم العقل ولنا أن نقول كذلك : إنه قد صح فى حكم الواقع والتاريخ ، فإن العالم الإنسانى الذى تعاقبت فيه النبوات قبل محمد ﷺ لم تظهر فيه نبوة مسموعة بعده ، ولم يظهر فيه غير أدعياء النبوة الذين ذهبوا ولم يستمع إليهم أحد فى حياتهم أو بعد مماتهم ، ولم يظهر فيه من أولئك الأدعياء أنفسهم من يستند إلى رسالته لا يحيلها إلى النبوة الإسلامية بقواعدها وأركانها .

* * *

إن اختتام محمد للنبوات عقيدة يصدقها المسلم بوحى إيمانه ، ولكنها كذلك حقيقة علمية يفهمها بفكره ويشهد دلائلها فى العصور الغابرة كما يشهدها فى عصره مؤتمرًا بأوامر دينه .

وإنه ليطيب للكثيرن من أبناء العصر الحاضر الفخورين بعلومهم ومخترعاتهم أن يهتفوا قائلين : (نحن فى عصر العلم ، نحن فى عصر العقل ، نحن فى عصر الحقائق الواقعة ، نحن فى عصر آيات الطبيعة) .

فليهتفوا بذلك ما طاب لهم أن يهتفوا ، وليذكروه ويعيدوه تحديًا لما شاءوا من النبوات إلا النبوة التى ختمت جميع النبوات ؛ لأنها هى قالت للناس قبل أربعة عشر قرنًا ما يقولونه الآن ، وهى أوحت إليهم أنهم يعيشون بعد اليوم بهداية بصائرهم ، وما يبصرونه من آيات تلك الهداية فى مشاهد الطبيعة ، وأسرار الخلق ، وبراهين العيان .

وكل أعجوبة من أعاجيب العلم فهى جزء من معجزات هذا الدين ، الذى جاء به خاتم النبيين : «وأبصر فسوف يبصرون» .

* * *

دِيَانَات العَالم السّبع العُظمى[1]

أحرى بهذا الكتاب أن يسمى معرضًا دينيًا على الورق ، لأنه يجمع أكثر من خمسين ومائتى صورة فنية لمناسك الأديان فى أنحاء العالم ، حيث يقيم أتباع الديانات السبع المشهورة : وهى البرهمية والبوذية ديانتا أهل الهند ، والطاوية والكنفوشية ديانتا أهل الصين ، والإسلام والمسيحية واليهودية .

ألف الكتاب لمجلة الحياة (Life) المصورة طائفة من المتخصصين للمباحث الدينية تناول كل منهم البحث فى ديانة يدرسها ويطلع على مراجعها ، واستغرقت بحوثهم أكثر من سنتين زيدت عليها تنقيحات وتصحيحات استغرقت بضعة أشهر ، ثم ظهر الكتاب أخيرًا على صورة طيبة فى شكله وموضوعه وجاءت فصوله التى كتبت عن الإسلام على أطيب ما ينتظر من الباحث غير المسلم حيث يتصدى لكتابة عن هذا الدين وأهله فى معترك الخصومات السياسية والمذهبية التى تثير العداء له فى كثير من علاقاته بالدول والشعوب .

وأطيب ما فى تلك الفصول من هذه الوصية أن كتابها يورد الاعتراضات الشائعة عن الدين الإسلامى ويرد عليها أحيانًا بما ينقضها ويجلو حقيقتها ، ويوفق إلى الرأى الصواب فى معظم أقواله .

بدأ بقوله عن النبى ﷺ : إنه لا يسمى نفسه المخلص ولا يقول أنه المسيح المنتظر ، ولكنه بشر يبلغ الناس رسالته الإلهية ، وليس فى نشأة هذا الدين غموض ولا مجال للخبط بالظنون ، لأنه انبثق فى ضحوة التاريخ الساطعة وانتشر بين أمم الأرض بقوة الإعصار ، وسر انتشاره ودوامه أنه عقيدة سهلة واضحة متمكنة فيما تثبته للناس من أصول الإيمان ، وهو أكثر من دين شعائر وعبادات ، لأنه إلى جانب ذلك أدب حياة وشريعة سلوك تنظم معيشة الإنسان على مثال لا نظير له فى الحضارة الغربية .

---

(1) الأزهر نوفمبر ١٩٦٠ .

ومن أسباب قوة هذا الدين أنه عند أتباعه الكلمة الأخيرة من وحى الله ، وهو يتقبل الديانات الكتابية التى سبقته ولكنه يعلم أتباعه أنها اجتمعت صحيحة خالصة من الحواشى والأوشاب فى آيات القرآن ، ولم ينشئ القرآن كهانة ولا مراسم هيكلية تلجئ المسلم إلى وساطة زمرة من الأحبار والرؤساء ، لأن فرائضه المعروفة الواضحة مما يؤديه كل مسلم بينه وبين الله بغير حاجة إلى الوسطاء .

يقول كاتب فصول الإسلام فى الكتاب : «إن بعض عادات العرف فى البلاد الإسلامية تحسب من دلائل الرجعية عند الغربيين ، ولكن النبى نفسه رفع شأن المرأة ولم تكن قيودها الثقيلة مما يفرضه القرآن ، وإنما جاءت من توليدات بعض المتأولين فى عصور النكسة ولاجمود ، وقد أنكر الإسلام وأد البنات ووضع الحدود لتعدد الزوجات بعد أن كان مستباحًا فى أيام الجاهلية بغير حدود .

وتكلم المؤلف عن نِحَل الصوفية فأشار إلى بعض نحلها التى يعترض عليها أهل السنة ثم قال : «إن الصوفية انتعشت واستقامت بهداية الأفكار التى بثها الإمام الغزالى - وهو عبقرى دينى ولد بإحدى قرى فارس سنة ١٠٥٨ ميلادية . ويحسبه المسلمون اليوم فى عداد الأولياء القديسين ، ويبلغ عدد المتصوفة بين المسلمين نحو ثلاثة فى المائة ينتمون إلى طرق متعددة مختلفة الدرجات» .

ثم وصف الكاتب أذكار بعض الدراويش المنتسبين إلى الصوفية بصفات منكرة ، يشاركه فى إنكارها جملة المسلمين ، ولكنه عاد بأكثر التقاليد الصوفية إلى العادات المستعارة من غير المسلمين .

واستطرد إلى التبشير بالدين الإسلامى بين غير المسلمين فقال : «إن الإسلام ، إلى زمن متأخر ، لم يكن له جماعات منظمة للتبشير ، لأن هذا الدين الذى جعل المسلم فى غنى عن الوساطة بينه وبين ربه قد جعله كذلك داعيًا إلى دينه حيث كان وإن لم تكن له جماعة ينتمى إليها ويتقيد بنظامها لنشر الدعوة ، إلا أن الدلائل تشير إلى عناية حديثة من جانب المسلمين بأنظمة التبشير المسيحية ، وقد أصبح الجامع الأزهر - ذلك المعقل الثقافى الذى صمد للتيارات الغربية وحال بين مؤثراتها وبين العالم الإسلامى - ينشط الآن لتدريب فئة من أبنائه كل سنة للعمل فى هذا الميدان . ولاحت علامات النشاط لهذا العمل من

جانب النحل المتشعبة فى الإسلام . ومنها نحلة الأحمدية التى تبعث الرسل إلى أوربة والشرق الأقصى وأقطار أفريقية الشرقية» .

قال الكاتب : «إن فى القارة الأفريقية اليوم نحو ستين مليون مسلم من نيف ومائتى مليون عدة أبناء القارة : وإذا تزاحم المبشرون من المسلمين والمسيحيين كسب التبشير الإسلامى عشرة كلما كسب التبشير المسيحى واحدًا من الوثنيين ، ويشيع بين سكان أفريقية الغربية - ولاسيما نيجيريا - أن الاسلام دين الرجل الأسود ، وأن المسيحية دين الرجل الأبيض ، وأجدر من ذلك بالالتفات أن المسلمين فى الهند وباكستان حيث تزيد عدتهم على عدة إخوانهم فى كل مكان آخر قد تحول أكثرهم عن العقيدة التى تقضى بنبذ بعض الطوائف إلى العقيدة التى تبسط سنة المساواة بين جميع المؤمنين ، وهناك علامات شتى على أن الاسلام يتحرك من سباته الطويل ، ففى كل أمة إسلامية دعوة إلى إحياء الإسلام سياسيًا وروحيًا وثقافيًا بمختلف الأساليب ، وقد أعيد بناء مئات من المساجد فى البلاد التركية بعد مصادرة أتاتورك للتعاليم الدينية ، وزادت نسبة الطلبة الدينيين فى إيران بمقدار أربعين فى المائة بين سنة ١٩٥١ وسنة ١٩٥٥ ، وتتراءى فى أفريقية الشمالية علامات من هذا القبيل ، ولا يخلو بلد بين بلاد المسلمين اليوم من شعور القلق من جراء الاحتكاك الدائم بالحضارة الغربية . وقديمًا كان المسلمون يقابلون الحضارات المخالفة بقلة الاكتراث حينًا وبالنفور حينًا وبالانطواء فى جملة الأحيان ، أما فى الأونة الحاضرة فالإسلام مجتهد فى التوفيق بينه وبين مستحدثات الحضارة ، ولا يجمد على القديم المفقود غير العدد النزر من المتعصبين المتشبثين بالتقاليد المهجورة ، وبين الفريقين طائفة ثالثة ترى أن إحياء الإسلام من داخله عمل مستطاع للوقوف حيال الغرب موقف الأنداد الأكفاء ، متعاونين على شرعة التعاون والاستقلال» .

ويعرض المؤلف بعد ذلك للدور المنتظر من الإسلام بين الديمقراطية والشيوعية ، لأنه وسط فى الموقع ووسط فى العقيدة ووسط فى المصلحة بين المعسكرين ، ثم يؤكد قيام الفوارق بين مبادئ الثقافة الإسلامية ومبادئ الديمقراطية ، ولكنه يخلط فى تقديره فيخيل إليه أن المسلم غير بعيد من الشيوعية إذا عز عليه أن يجد فى الديمقراطية رضاه .

ويختم كلمته عن الدعوة الإسلامية بقوله : «لاريب أن الوجهة التى سيتجه إليها الإسلام سيكون لها أثرها العميق فى مصير العالم الإنسانى

وتتوقف هذه الوجهة على مقدار نجاح المسلمين فى التوفيق بين عقيدتهم ومقتضيات الزمن والتاريخ ، ومن ثم يدرك المسلمون أن قضيتهم العظمى هى قضية العقيدة الروحية ويذكرون كلمة النبى حين قال لأصحابه بعد مرجعهم من إحدى الوقائع : إنهم عادوا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، وهو جهاد الضمير» .

ويلى هذا الفصل عن الدعوة صفحات من ترجمة القرآن الكريم ، يخصصها الناقل للسور والآيات التى تعرف القراء الأوربيين بآداب الكتاب ووصاياه المميزة له بين وصايا الأديان الكتابية ، ويغلب عليه فى جملة ما ينقله أن ينحو بالمقارنة بينها جميعًا منحى الإنصاف ولا يتعمد فيها أن يبتر الشواهد للإيحاء بالمغامز والشبهات .

إلا أننا نترقب كثيرًا ونغلو فى الثقة بفهم القوم لحقائق هذا الدين إذا ترقبنا من منصفيهم أن يصبحوا مسلمين متحرجين فى تنزيه العقائد الإسلامية عن المظان التى قد تخفى على أناس من المقلدين بين أتباع هذا الدين ، فلا يزال هذا المؤلف وغيره ممن يحسنون القول فى الإسلام إجمالاً يتوهمون أن النعيم الموعود لا يعدو أن يكون ألوانًا من لذات الحس ومتعه من متع الطعام والشراب ، ثم يتوهمون أن الإسلام قد انفرد بتصوير النعيم على هذه الصورة بين الأديان الكتابية ، ويتناسون أوصاف الكتب الأخرى من القرون الأولى إلى ما بعد القرون الوسطى لكل متاع موعود فى عالم الجزاء والثواب ، وقد يأبون أن يفهموا أن الإجماع منعقد بين العارفين بالكتاب على اختلاف الصفات والموصوفات بين الدنيا والآخرة ، ولكنهم سواء وقفوا بالفهم دون معنى التنزيه الواجب ، لأنهم يجهلون أو لأنهم يستريحون إلى المعنى القريب المبذول ، قد بلغوا طاقتهم من إحسان النية وإحسان المقال .

* * *

كَلامٌ عَن الإِسلام وَالعَرب

في كتابين حديثين(١)

كتابان من المطبوعات الحديثة قرأت فيهما كلامًا عن الإسلام والعرب ، وعن تقدير الحضارة العربية .

فتحت أحدهما فوجدت فى صدره فصلاً مطولاً بعنوان : «إسلام القرن العشرين» فخطر لى أن المؤلف يتكلم عن تطور الإسلام فى هذا القرن ويشرح آراء المجددين المصلحين من أئمته أو عادات المسلمين المعاصرين مع المقابلة بينها وبين عادات المسلمين فى القرون التى سبقت القرن العشرين .

ولكننى لم أقرأ من الفصل بضعة أسطر حتى ظهر لى أن المؤلف إنما يتكلم عن الشيوعية الماركسية ويحذر العالم الغربى من أخطارها لأنها - كما يقول - غزوة جديدة تهدده فى كيانه كما هدده الإسلام فى القرن السابع للميلاد .!

وإنه لتضمين من المؤلف أوضح وأبلغ من التصريح ، لأنه يعلن رأيه ورأى قرائه المقصودين فى موقفهم من الإسلام ، ويبين لنا أن هناك قومًا من بنى جلدته يحسون أن اسم الإسلام نذير بالخطر يكفى أن يذكر لهم ليدركوا أنهم مهددون بما يوقظ النائم وينبه الغافل ولا يحتاج بعده إلى نذير .

وفرغت من الفصل فلم أجد فيه وجهًا من وجوه المشابهة غير أن الإسلام دعوة والشيوعية دعوة ، أو هى كما سماها (دين دنيوى) يقوم على عقيدة (إيمانية) تجرى مع الشعور ولا تجرى مع المنطق والمعرفة البرهانية وهذا كل ما هنالك من مشابهة بين النذيرين .!

وقد زعم المؤلف أن خطة ستالين فى (تشييع) القارة الآسيوية أو إكراهها على قبول الشيوعية ليست إلا تكرارًا لخطط القادة الآسيويين أمثال محمود الغزنوى وطغرل بك وألب أرسلان ، وأن هذه الخطط جميعًا تعتمد على سلاح الدولة

(١) الأزهر يناير ١٩٦١ .

وسلاح العقيدة وتتخذ العقيدة أحيانًا وسيلة لقلب الدولة كما تتخذ الدولة أحيانًا وسيلة لقلب العقيدة .

لكن ما هو وجه الشبه بين دعوة تصحح المجتمع أو تعالج أدواءه وبين دعوة تهدم المجتمع ولا تبقى منه بقية تربط بين حاضره وماضيه ؟ .

وما هو وجه الشبه بين دعوة تحصى عدد الضحايا من أعدائها ومقاوميها فلا يزيد على بضعة ألوف فى مائة سنة ، وبين دعوة تحصى عدد ضحاياها فى موطنها وحده فيزيد على عشرين مليونًا فى بضع سنوات ؟ .

وما وجه الشبه بين الصديق والفاروق ، وبين لينين وستالين؟ .

إن كل شىء فى الإسلام والشيوعية يختلف أشد الاختلاف غير اسم الدعوة أو اسم العقيدة ، إن صح وصف المؤلف للشيوعية بأنها عقيدة دنيوية .

ولكن الشبه المهم الذى جمعه المؤلف تحت عنوان فصله إنما هو فى «النذير» الصريح باسم الدعوتين ، وكفى به عنوانًا يغنى عند قرائه المقصودين ، وعندنا نحن ، عن صفحات ومجلدات ! .

* * *

هذا الكتاب اسمه «الشيوعية من وجهة العلوم الاجتماعية والنفسية» ، واسم مؤلفه الأمريكى جول مونيروت ، ويقول مقرظوه : إنه ناقد ثاقب النظر يرمى بنظره إلى بعيد .! .

أما الكتاب الآخر فاسمه «العرب» واسم مؤلفه «هارى أليس» وهو كاتب صحفى قضى فى الشرق الأوسط حقبة غير قصيرة مشتغلاً بمراقبة الأحوال ومراسلة الصحف العلمية ، وكتابه أشبه بكتب الدراسة فيما يعرض له من التاريخ القديم ، وأشبه بمقالات السياسة فيما انتهى إليه فى ختام فصله الأخير .

يبدأ المؤلف تاريخه الموجز من العصور السابقة للأديان الكتابية ، ويعتبر تاريخ العرب أصلاً لتواريخ الحضارات التى عمرت طويلاً بين النهرين وبين البحرين ، أى البحر الأحمر وبحر الروم .

ثم يوجز الكلام عن دعوة الإسلام فيقول ، بعد خليط من الحقائق والأوهام : إن سنة ٧٣٢م وافقت ذكرى وفاة النبى ﷺ فبلغت بدعوته أقصى المغرب وكادت أن

تصل إلى أقصى المشرق ، ولم يكن السيف وحده قوام الدعوة بل كان كثير من أبناء البلدان المفتوحة يقبلون على الإسلام لتفضيلهم إياه على عقائدهم ، أو لأن الدخول فى الإسلام يرفع عنهم الضرائب التى تجبى من غير المسلمين ، ولكن لا يفهم من ذلك أن المسلمين الذين دخل آباؤهم فى الإسلام فرارًا من الضريبة كانت عقيدتهم الإسلامية هينة عليهم ، بل كان هؤلاء المسلمون يذودون عن دينهم مستميتين مستشهدين كلما هوجمت ديارهم بعد سقوط «الإمبراطورية الإسلامية» حوالى القرن الثالث عشر للميلاد .

قال : «وإن العرب الذين كانوا قبل الإسلام بدوًا جفاة جلبوا إلى دولتهم الواسعة هديتين جليلتين : إحداهما الديانة التى بشر بها محمد ﷺ ، والأخرى اللغة العربية ، فأصبح اللسان العربى واسطة المعاملة كما أصبح واسطة التعليم والتثقيف ، فزاد عدد الكتب التى كانت تظهر باللغة العربية بين القرن التاسع والقرن الثانى عشر للميلاد على جملة الكتب التى ظهرت يومئذ بجميع اللغات الأخرى . .» .

ولم يخالف المؤلف ديدن زملائه فى خصلتين ملازمتين لأكثر الكاتبين عن الإسلام والعرب من الأوربيين ، فإنه ليستريح إلى الإقلال من عدد المتكلمين باللغة العربية فيحصيهم بنحو خمسين مليونًا وهو يستطيع أن يعلم بغير حاجة إلى البحث الطويل أن خمسين مليونًا يتكلمون العربية يعيشون فى أفريقية الشمالية وحدها دون سائر الأمم الأفريقية الأخرى وراء مراكش والجزائر وتونس وليبيا ووادى النيل ، ولا يقل المتكلمون باللغة العربية إلى الغرب من القارة الآسيوية عن ثلاثين مليونًا بين جزيرة العرب ووادى النهرين وسائر أقطار الهلال الخصيب . وقد يبلغ العارفون بالعربية من غير العرب عدة ملايين .

والخصلة الأخرى التى ينساق إليها المؤرخ الغربى عن سوء فهم منه للظواهر الفنية أحيانًا هى التطفيف من نصيب الذوق العربى الخالص من نهضة الفنون والثقافة فى الدول الإسلامية أو «الإمبراطورية» الإسلامية كما يسميها .

فقد يكون المهندسون أجانب عن السلالة العربية الخالصة ، ولكن الذوق العربى بلا جدال هو الذوق الذى غلب على هندسة المعمار فى كل قطر من أقطار المشرق والمغرب ، وما من أحد ينظر إلى العمدان والأقواس التى تحمل القباب ثم يشك فى قيامها جميعًا على أساس من إلهام «النخلة» بقوامها المديد النحيل وقبتها المعرشة

وأقواسها المتناسقة على جهاتها الأربع ، وليس التقابل بين الأشكال الهندسية على النسق المعروف عند الإفرنج باسم (الأرابيسك) إلا تكرارًا فى فن البناء للتقابل بين القوافى والأعاريض والشطور فى فن القريض .

ولا نكران لنقد الناقدين من جهابذة الفن الذين يأخذون على فن «المعمار» العربى خلوه من صور الكائنات الحية ومن صور النبات فى أكثر الأحايين ، ولكن هؤلاء النقاد ينسون أن مذهب المعمار العربى قابل للدفاع عنه من الجانب الفنى الخالص وإن ظنوا أن الدفاع عن هذا المذهب مقصور على الجوانب الدينية ، فقد رأى الفيلسوف الكبير «عمانويل كانت» أن الفن الخالص يتمثل فى المعمار العربى وحده ، وقلما يتمثل على هذا النحو فى فنون المعمار الأخرى ، لأن جماله مستمد من جمال الأشكال الهندسية غير مستعار من الصور والأشباه التى يقاس جمالها بغير مقاييس الهندسة ومقاييس البناء ، ومن الإنصاف للذوق العربى أن نذكر أن أشكال الهندسة أقرب إلى قوام الجدار والسقف والعمود الحجرى من الصور الحيوانية أو النباتية ، فإذا حسنت التحلية بصور الأحياء أو صور النبات فأحرى أن يوكل ذلك إلى نقش الرسوم التى تعلق بألواحها على الجدران ، كأنها بعض الأثاث الجميل بين سائر المقتنيات الفنية التى تحتويها الحجرات والبيوت .

وما دام الأمر لا يرجع إلى فقدان التعاطف بين الإنسان وسائر الخلائق الحية فلا معابة فيه على الذوق ولا على الشعور ، ولكنه تقسيم لمواضع الجمال الفنى حيث ينبغى أن توضع من جدران البيوت أو مقتنيات البيوت .

أما أن تجريد المعمار العربى من الرسوم الحية لم يكن يرجع إلى فقدان التعاطف بين العربى وسائر الخلائق الحية ، فهو حقيقة لا تخفى على من يروى القليل من الشعر العربى فضلاً عن الكثير . فإن الشاعر الذى لا ينسى الناقة ولا الفَرَس ولا الربيع والمرعى قبل عصر الحضارة خليق أن يحس الحياة والأحياء تحت قبة السماء ، ولا ينتظر أن يخلق إحساسه بها تحت قباب الهياكل والقصور .

وينتقل المؤلف من حديثة عن عصر الحضارة إلى حديثه عن قضايا العصر الحاضر ، فلا يفوته أيضًا أن يدلى بدلوه فى تلك السخافة التى تعاهد عليها زملاؤه الصحفيون ، أو المؤرخون العصريون من أبناء الغرب كلما ذكروا قضية فلسطين . فهى عندهم قضية كسبتها عصابات إسرائيل من الأمم العربية فى ميدان القتال

وانتصرت فيها بجيشها وسلاحها على دول العرب مجتمعات ، ولم يكن أحد - بعيدًا عن الشرق الأوسط - يجهل أن إسرائيل كانت تحارب بسلاح الدول الغربية ومالها ، وكانت تلقى التشجيع من تلك الدول فتزحف على الأرض المحرمة ويصبح احتلالها تلك الأرض «أمرًا واقعًا» و «حقاً مكتسبًا» على حين يضطر العرب إلى الجلاء عن أماكنهم بأمر السادة المسلطين على حكوماتهم وجيوشهم ، ثم يقتل وسطاء الهيئات الدولية الذين يكفون إسرائيل عن العدوان أو يترددون فى استجابتها إلى دعواها فلا ينالها من جراء قتلهم جزاء ولا يحول بينها وبين المزيد من معونة السلاح والمال .

إن البعيدين عن الشرق الأوسط يعلمون ذلك فلا ينساقون إلى القول بانتصار إسرائيل عن حسن نية ، ولا يقررون هذه السخافة إلا وهم يتعمدون المغالطة ويسترون الجريمة المشتركة بين حكوماتهم وعصابات الصهيونية العالمية ، فإذا بدرت تلك السخافة من مقيم فى الشرق الأوسط مطلع على الأخبار من مصادرها فهو فى الواقع يبتدع تلك السخافة ويعمل على ترويجها ولا يتورط فيها مضطرًا إليها بعد اختراعها وترويجها .

وبيت القصيد من هذا كله ينجلى عند ختام الكتاب من الأسطر القليلة التى عقب بها المؤلف على كلامه عن النفط فى البلاد العربية وعن القوة التى تستفيدها هذه البلاد من تزاحم الأمم على آبارها وإدراكهم لخطر مراكزها فى معترك السياسة العالمية ، وهذه هى أسطر الختام منقولة بحروفها :

« . . . كلما ازدادت ثقة العرب وجب عليهم أن يثقوا بشعوب الغرب التى تعودوا أن يسيئوا بها الظنون منذ أيام الوصاية والانتداب ، وعلى الغربيين - من جانبهم - أن يذكروا أنه قبل قرون عديدة سبقت وصول الرجل الأبيض إلى أمريكا كان العرب سادة الدنيا وزعماء حضارتها» .

* * *

الصَّحَافة فى الإسْلام[1]

الجرائد الآن قوة لا تستبدل بغيرها وليس من عصرنا هذا ما ينوب عنها إذا محيت منه ، فقد وجدت لمركزها الذى شغلته من قبل وتشغله الآن ، وليس عندنا ما ينازعها عليه أو ينازعه عليها .

بلغت من التأثير على عقول الناس ، والمكانة من المجتمع أن قراءتها أصبحت عملاً من الأعمال اليومية لا يقصر فيه المغرمون بها وهم عادة من أرقى الناس فكرًا وأشدهم حرصًا على تحقيق معنى الإنسانية فيهم . ومعناها أن الإنسان مدنى بطبعه ، يميل إلى كل ما يجمعه بالناس ، ويعمل على التقرب منهم بغريزته . ومن شأن هذا الميل أن يحمل صاحبه على الاهتمام بأخبار الناس لأنه واحد منهم يهمه ما يهمهم وهو لا يجد بغيته هذه إلا فى الصحافة . لذلك أفرد لها العالم المتمدن من وقته ساعتين وهما ثلث وقت العامل . ووقت المتعلم . وثلث وقت الوكل الذى لا يعنى فى غير الراحة . وإذا نزعنا إلى المجاز فى التعبير قلنا : إن حركة الأفلاك ودوران الكواكب شهرًا من السنة بما يتخلل ذلك من هطول السحاب ، ونجوم النبات ، وهبوب الرياح وتقلب الأحوال ، وتداول الليل والنهار ، وقف على الصحافة لا دخل فيه لعمل غيرها ، ومع ذلك فلا يكون المجاز هنا قد تعدى الحقيقة بكثير ، فإن الواقع ما نرى ونقول .

* * *

تقسمت الأنباء بين الماضى والمستقبل والحاضر! فاختص التاريخ بعلم الماضى ، والنبوءة بعلم المستقبل ، واختصت الصحافة بالحاضر! فإذا استغنى العالم عن التاريخ والاستبصار بحوادثه ووقائعه بما كمل من خبرته وارتقى من عقله ، أو كانت النبوءة قد قفل بابها ، وسدل حجابها فلم نعد نسمع عن نبى يدعو الناس إليه ، ويرغبهم فيما لديه ، فهو لا يستغنى عن الصحافة لأنها نبأ الحاضر الذى لا يتجرد منه الإنسان إلا إلى حاضر آخر .

---

(1) جريدة الدستور ٧ يناير ١٩٠٨ .

فالصحافة هذه القوة العاملة أصبحت من مستلزمات الرقى وضروريات الحياة الأدبية ، فلا يخلو منها إلا مجتمع ناقص لم تتوفر فيه شروط الاجتماع ، ولا نعلم ماذا كان يكون حال مصر وماذا كان يحل محل هذه النهضة العالية والحماسة السياسية المبثوثة بين جميع الطبقات المصرية إذا لم تنشر فيها الجرائد إلى الآن .

ومما يدل على افتقار العالم إلى هذه القوة أنه لم يستقم أمره بدونها منذ بدأ يرقى ويفهم معنى الاجتماع ، وإنما كانت تتقمص أشباحًا مختلفة غير الشبح الذى تظهر فيه فى العصر الحاضر .

غاية الشعور هى تنبيه الشعور والحث على عمل الواجب ولفت الناس إلى ما يحيق بهم من الأخطار سواء كانت من أثر العادات أو من مناوأة الأعداء ، وقد تحققت هذه الغاية بأساليب متباينة ووسائط تتناسب مع حالة العصور الأدبية فتمثلت أولاً فى الخطابة . كأن يشعر العالم أو الأديب بنقص فى المجتمع الذى يعيش فيه ، أو بحاجة مواطنيه إلى الجهاد وغيره من مقومات الحياة فى تلك الأزمان فيحشد الجموع إلى ميادين البلد ويلقى عليهم خلاصة أفكاره فيجرهم إلى العمل بها بما للخطابة من قوة التأثير فكانت الخطابة عندهم بمقام الصحف السياسية منا .

ثم تمثلت فى التدريس فكان يؤدى وظيفة المجلات العلمية عندنا ، ويندر أن يتعدى العلوم والآداب إلى السياسة إلا فى قضية تتماس فيها السياسة بالعلم أو يضطر فيها المعلم إلى إبداء رأيه فى شئون مملكته لتلامذته وقد كان بينهم أبناء الملوك والأعيان ، أى الذين تنفعهم دروس السياسة الممزوجة بالعلم .

❊ ❊ ❊

ولم يعرَ عن الخطابة شعب من الشعوب خصوصًا العرب ، على أنهم ما كانوا يعرفون فى جاهليتهم طريقة التدريس لقلة معلوماتهم فتوفرت عزائمهم إلى الخطابة فيرعوا فيها وأعطوها قسطها من الإتقان وأقاموا لها النوادى والمجامع على مثال ما كان عند أمتى اليونان والرومان وقد فاقوهم فى بلاغة المعانى وسلامة التعابير .

ولما جاء الإسلام اتسعت دائرة معارفهم وحركت عقولهم المعضلات الشرعية لأول مرة ، ثم العلمية بعد أن تقدموا وعربوا كتب حكماء اليونان وغيرهم من أساطين الحكمة فى الأمم القديمة ، فاهتدوا إلى التدريس وبث الأفكار بواسطته ، وكانوا يرحلون إلى المدرسين من قطر إلى قطر ، بل من قارة إلى قارة ، حتى تفرغ لهذه العمل كثير من العلماء الأجلاء ، فاجتمعت عندهم بذلك دعائم الصحافة

كما هى عند بقية الأمم ، ورجحوها بأن دينهم يعينهم على التمكن منها فإن الإسلام قرر مبدأها ووصف نموذجها وصف أعلم معاصريها .

فقال الكتاب العزيز : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ .

وقال النبى ﷺ : (إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة من اتقاه الناس لشره) .

وقال : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة يرضى بها جلساءه يهوى بها فى نار جهنم) .

ولا ريب أن هذا أوضح تعريف للصحافة ، فما هى على أكمل حالاتها إلا دعوة إلى الخير وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر . يتفرغ لها جماعة اختصاصيون سماهم القرآن أمة . ومن أهم نموذجاتها عند العصريين أن لا تكون أداة تخويف يهدد بها الأعداء ، أو فرشاة مجاملة ومحاباة يتقرب بها إلى الملوك والأمراء ، بل تكون عند ضمير صاحبها وعقله ، وهذا منصوص فى الحديثين الشريفين بحيث تنطبقان على الصحافة أكثر مما على الأفراد .

فلو وجدت المطابع فى زمن علماء الإسلام الأولين ، أو لو وجدوا هم فى زمن المطابع لما تأخروا عن الائتمار بأمر الله ولتوفقوا إلى استخدام الصحافة بمعناها المعروف . ومثل أمامك رجلاً عالمًا عاملاً يريد أن يهدى الناس إلى ما فيه خيرهم كيف يهتدى إلى ذلك ويعمم مبادئه بين الناس بغير الصحافة وعنده معداتها ، وبين يديه القرآن الكريم والأحاديث الشريفة يقتبس من آدابها . لا شك أن أول ما يخطر بباله إنشاء صحيفة سياسية يطلع عليها الناس عامة ليكون نفعها أعم ، وفائدتها أتم .

وغير ذلك ، فمن مبادئ الإسلام إلقاء خطبة أسبوعية فى كل مسجد على جموع المصلين ، وقد قالوا : إن صلاة الجماعة تقدر بسبعين صلاة يؤديها المصلى منفرداً ، وذلك ترغيبًا فى سماع هذه الخطب ، ودعوة للناس إلى حضورها للاتعاظ بما فيها ، وما هذا إلا بمثابة صحيفة أسبوعية تصدر من كل مسجد مشتملة على النصائح والتحذيرات فلا ينقصها إلا الطبع أما النشر فهى حاصلة عليه .

فترى أن الإسلام أشار إلى الصحافة بمعناها الحقيقى ، وأن صحافة الإسلام لا تختلف عن الصحافة العصرية إلا فى أنها غير مطبوعة ، أو أنها حسب اصطلاح الصحافيين كانت فى تلك العصور وفى ذلك الدور تمثل للطبع فى هذا العصر .

* * *

الاقتصاد السياسى فى الإسلام[1]

الاقتصاد السياسى علم يبحث عن تكوين الثروة العامة فى المملكة ، وكيفية تصريفها حتى تعود بالربح على المملكة التى نشأت منها . وهو بهذا الاعتبار يحسبه بعض الناس أنه إن جاء فى مصلحة مملكة فلن يجىء فى مصلحة الأخرى ، أو كان فى منفعة فرد فلا يكون فيه نفع لفرد آخر ، والحقيقة أنه علم ينفع كل من تمسك بنظرياته وأحسن استعمالها ، فمتى كان البائع ملمًا به عارفًا بأسراره عرف كيف يروج تجارته وينتفع بأرباحها ، ومتى كان الشارى كذلك وقف عند الحد الذى يتجاوز منفعته فلم يتورط فى الشراء إلى ما يتعداها وبهذا يحفظ التوازن بين الاثنين .

ولا فرق بين الاقتصاد المنزلى والاقتصاد السياسى إلا فى أن الأول يتعلق بالأفراد يمضون فيه على ما يسعد حالهم وحال المتصلين بهم والثانى يتعلق بالحكومات تمضى فيه على ما يسعد حالها وحال رعيتها .

فالأول يكلف الأفراد أنفسهم بأنفسهم وهم منقادون إلى ذلك بداعى الحاجة الشخصية ، والثانى تكلف به الحكومات من قبل رعاياها ، ورعاياها هم أولئك الأفراد ، فالصلة بين العلمين متينة تكاد تجعلهما علمًا واحدًا . إذا كان الأمر كذلك فعلم الاقتصاد قديم جدًا عمل به الناس منذ تفرقت مناحى كسبهم ، وقد عرفوه عملاً وعلمًا ، إذ لا يعقل أن واحدًا يتجر أو يصنع إلا وهو متيقن من فائدته فى ذلك ، وأن آخر يشترى أو يستعيض ما لم يكن فى حاجة إلى ما يشتريه أو ما يستعيض به ، غير أنه كان على أكمل أنواعه بالنسبة لتلك العصور حين اخترعت النقود وميز الناس قيم الأشياء بالنسبة لبعضها من جهة وبالنسبة للذهب والفضة من الجهة الأخرى ، فتوحدت مطالبهم واتجهت نفوسهم إلى أمر واحد وهو اقتناء الذهب والفضة ، فابتدعوا لذلك الأساليب وانتجعوا الطرائق ، وفصلوا كل ما يؤدى إلى ذلك الغرض من أقرب الطرق ، وبينوا كل ما يحول دونه من العوائق ، فحصل من مجموع أفكارهم فى هذا الصدد علم يشبه علم الاقتصاد العصرى من بعض الوجوه .

---

(١) الدستور ٨ ديسمبر ١٩٥٧ .

اختراع النقود وحد المطالب وشغل الأفكار على اختلاف منازعها بشىء واحد ليس يعسر على الناس أجمعين إذا اتجهت أفكارهم إلى ذلك الشىء أن يحصوه ويجلوه للعيان كأحسن ما يكون ، وقد فعلوا فأصبحت الأموال وطرق توزيعها ووسائل استثمارها معلومة عندهم تمام العلم . ولا أظن أن التاجر فى القرن العشرين أحكم فى معاملاته وتعميماته من التاجر فى القرن التاسع أو العاشر مثلاً ، بل ربما كان هذا أحكم لبعده عن المضار ، والمجازفة التى تحدق بتاجر هذا القرن . هذا بالنسبة للأفراد أما الأمم فلم تنتبه إلى الاستفادة من علم الاقتصاد على صورة واضحة قائمة على دعامة ثابتة إلا حوالى القرن السابع عشر ، وذلك لا يمنع أن تكون فى القرون الأولى استفادت من تجارب الأفراد ما يمكنها به تسيير أعمالها على شىء من الضبط والحكمة ، ولا يمنع أيضًا أن يكون هداتها وكتابها قد بحثوا فى هذا الباب فظهر لهم من بحثهم بعض قواعد وقضايا اتخذها الملوك والولاة قوانين يراعونها فى تدبير ممالكهم . قال ابن خلدون فى مقدمته : (فإذا استديم الرخص فى سلعة أو عرض من مأكول أو ملبوس ولم يحصل للتاجر حوالة الأسواق فسد الربح والنماء بطول تلك المدة وكسد سوق ذلك الصنف فقعد التجار عن السعى فيها وفسدت رءوس أموالهم . واعتبر ذلك أولاً بالزرع فإنه إذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطواره لقلة الربح فيه وندارته أو فقده فيقعدون المدة وكسد سوق ذلك الصنف فقعد التجار عن السعى فيها وفسدت عن النماء فى أموالهم ويعودون عن الإنفاق على رءوس أموالهم وتفسد أحوالهم ويتبع ذلك فساد حال المحترفين بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرث إلى صيرورته مأكولاً ، وكذا يفسد حال الجند إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل الفلح زرعًا فإنها تقل جباياتهم من ذلك) .

وقال : (اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع وبيعها بالغلاء أيا كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش ، وذلك القدر الثانى يسمى ربحًا ، فالمحاول لذلك الربح إما أن يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الأسواق من الرخص إلى الغلاء فيعظم ربحه وإما بأن ينقلها إلى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة) إلى أن قال : (ويمكن حصر التجارة فى كلمتين – شراء الرخيص وبيع الغالى) وقال أيضًا : (الرخص المفرط يجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص وكذلك الغلاء المفرط وإنما معاش الناس وكسبهم فى التوسط وسرعة حوالة الأسواق ، وعلم ذلك يرجع إلى القواعد المعتبرة بين أهل العمران ، وإنما يحمد الرخص من الزرع لعموم الحاجة إليه) .

وقال : (إن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشئوم يعود على فائدته بالتلف والخسران) . هذه آراء ابن خلدون فى الثروة ومذاهب استعمالها لو جئنا ننتقدها لما أملنا أن نأخذ عليه أكثر مما أخذوا على أول من وضع علم الاقتصاد فى القرن السابع عشر ، بل لرأينا أنفسنا مضطرين فى بعض النقط إلى الثناء عليه لتقريره قواعد لا تزال مرعية فى هذا العلم إلى الآن .

نأخذ عليه قوله : (ويتبع ذلك فساد حال المحترفين بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحرث إلى صيرورته مأكولاً) ؛ لأنه متى رخص القمح أو غيره من نتاج الأرض كثر الإقبال عليه واشتراه من لم يعتد شراءه فينشأ عن ذلك أن المطاحن والمخابز يروج عملها ويزداد عدد الواردين عليها لا كما يقول هو أنها تكسد حالها وتفسد أعمالها . ومع ذلك فقد أصاب فى قوله عن صانعى المحاريث والفئوس وقاطعى الخشب المستعمل فى تلك الآلات ، فإنهم تبور صناعتهم ريثما تتجدد همة الفلاح ويعوض ما خسر . وأصاب أيضًا فى تقرير مبدأ التضامن بين الأفراد واشتراكهم فى الضر والنفع ما داموا مجتمعين فى صعيد واحد يتبادلون التجارة ويتجاذبون المنافع بينهم . ونأخذ عليه قوله فى تعريف التجارة : (هى شراء الرخيص وبيع الغالى) - لأنه قول ينطبق على التاجر فقط ولا يشمل غيره ، والتعريف العصرى أكمل وأعم وهو : (بالمبادلة تدفع ما تستغنى عنه وتأخذ ما أنت فى حاجة إليه) . ولكنه كان فى معرض التكلم عن الصنائع صناعة صناعة فربما لم يصرف فكره إلى التعميم . إلا أننا إذا أردنا إنصافه فلا يسعنا إلا الإعجاب بقوله هذا : (الرخص المفرط يجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف وكذلك الغلاء المفرط ، وإنما معاش الناس وكسبهم فى التوسط) فهو لا يتعدى ما ثبت عندنا الآن من أنه لا تستقيم حالة السوق إلا بتساوى المعروض والمطلوب ، والاقتصاديون لم يقروا على هذا المبدأ إلا بعد جدال عنيف نشب بينهم ، وكان كل منهم يذهب فيه مذهبًا ، وابن خلدون قد سبقهم فى تقريره . كذلك نعجب بقوله : (إن احتكار الزرع لتحين أوقات الغلاء مشئوم يعود على فائدته بالتلف) فقد ظهر أن الاحتكار أصل الغلاء ، والغلاء يغرر بالعقول ويذهب بها مذاهب الضلال ويجرها إلى الخطأ فى أحكامها . وهذه أزمة مصر لم تحدث إلا من ارتفاع أسعار الأرض ارتفاعًا لا أساس له وإقبال الناس على اقتناء الأراضى بلا تدبر أو حساب .

* * *

الاقتِصَاد السّيَاسى فى الإسْلام[1]

٢

تلك آراء كاتب . أما الملوك فكانوا يعرفون من علم الاقتصاد مثل ما يعرفه هذا أو أكثر .

قال المأمون : (الناس أربعة : ذو سيادة أو صناعة أو تجارة أو زراعة فمن لم يكن منهم كان عيالاً عليهم) .

وهذا التقسيم هو المأثور الآن بين الناس ، وإذا كان أول مؤسسى علم الاقتصاد أجهد نفسه وأعمل فكره حتى قال : إن الأرض منبع الثروة وأن غير الفلاح عالة عليه ، فقد قال المأمون قبله : إن الناس سادة وصناع وتجار وزراع ومن ليس كذلك فهو عيال عليهم فكان قوله موافقًا لآخر رأى من آراء القرن العشرين عن توزيع العمل .

أما الإسلام من حيث هو شرع ودين فقد ألم بكثير من قواعد الاقتصاد مما لو جمع وأفردت له الأبواب والفصول لصح أن يكون هديًا يسترشد به فى مشكلات الاقتصاد ومعضلاته . وقد كلف الدائنين به بفروض وواجبات إذا عملوا بها كان من أثرها فى معاملاتهم أن ينتظم السوق ويترتب سير الأعمال ترتيبًا يقلل من شكوى المفلوكين ، ويخفف من تعب المنهوكين ، ويبطل الغش الذى يضيع أجر العامل ، ويربى حظ الخامل ، ويدخل بين الناس فيفصم عراهم ويفسد عليهم أعمالهم . فإذا نظرنا إلى الإسلام وقوانينه الاقتصادية فإنما ننظر إلى وازعين : وازع إرشادى يقود الناس إلى ما فيه صلاح دنياهم ، ووازع باطنى يحذرهم أونة بعد أخرى من الغش والخداع ، ويلفتهم إلى نقاء الذمة وطهارة النفس وطلب مايستحقونه على عملهم بلا طمع ولا زهد ، ومتى بطلت التجارة المغشوشة لم تكسد التجارة المتقنة ، ولم يتحسر عامل على عمله ، أو يأخذ بائع فوق حقه ، أو يمس شارٍ فى ماله ، وهذا نهاية ما يصل إليه الانتظام فى الأعمال .

وسائل إحداث الثروة فى الإسلام هى التجارة والصناعة والزراعة . قال تعالى :

---

(١) الدستور ٩ ديسمبر ١٩٠٧ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى أن فى إرسال الرياح ما يبشركم بنزول المطر وهو دم الزرع فينمو ويثمر ويكون لكم من جناه ما تحملون به الفلك (وهو ابن الصناعة) إلى الجهات الأخرى لتبتغوا من فضله (التجارة) ولعلكم تراقبون الله فى أعمالكم فتشكرونه على ما وفقكم إليه مما فيه فائدتكم . ولا يذهب قارئ إلى أن هذا خصيص بالعرب ، فإن العرب لم يكن من عاداتهم حمل تجاراتهم فى السفن بل كانت سفنهم الجمال يركبونها ويحملون عليها رحالهم ، كذلك لم تكن معائشهم تتوقف على الزرع ، فإن بلادهم حفراء جفراء ، أو هى واد غير ذى زرع كما قال القرآن الكريم ، فكانوا يشيمون البرق للتفاؤل أكثر مما يشيمونه للاستمطار ، وكانوا ينتظرون المطر للاستقاء أكثر مما ينتظرونه لرى المروج والمزارع فأمره تعالى عام لعموم خلقه لا لفئة معينة منهم .

وقال ﷺ : (سافروا تغنموا) وهو أمر يظهر فى أول الأمر أنه تحصيل حاصل لأن العرب كانوا يسافرون بلا تكليف من أحد ، وكانوا يسافرون للتجارة أيضًا ، فما معنى هذا الأمر؟

ولكن الإسلام وقد جاء مبطلاً لكل ما كانت عليه الجاهلية ، وكان ينتظر أن يمنعهم عن التجارة كما منعهم من غيرها من ضروب الكسب كالميسر والأزلام فإقراره لهم عليها يعد أمرًا جديدًا وتكليفًا من تكاليف الإسلام ، كما أنه يعد تنبيهًا للخامل الذى ركن إلى الكسل واستنام للخمول ، فيحفزه إلى مسابقة العاملين فى ميدان الكسب والعمل ، ويفهمه أن هذا من واجبات الدين وموجبات اليقين ، ويؤخذ من هذا التكليف أنه يرشدهم إلى استبدال ما يفيض عن حاجاتهم بما يحتاجون إليه من البلاد الأجنبية ، والمبادلة من أهم قواعد الاقتصاد .

أما رأس المال وهو رأس علم الاقتصاد فقد قال عنه النبى ﷺ : (تزود من صحتك لسقمك ومن غناك ومن شبابك لهرمك) ويفهم من هذا الحديث الشريف أنه لم يعين رأس المال بالذهب والفضة بل تركه على إطلاقه ، يجوز على كل ما ينجى صاحبه من العدم ، فكما يصح أن يقال : إن التزويد من الصحة للسقم هو بتوفير النفقة التى تلزم فى حالة المرض ، كذلك يصح أن يقال : إنه يكون بتعلم الطب للعلاج به عند لزومه ، وكما يمكن أن يكون التزود فى حالة الغنى باقتصاد شىء من الدخل لأيام العوز والفاقة كذلك ممكن أن يكون بتعلم الصنائع والتدرب

عليها لتغنيه عن بسط يده بالسؤال إذا ضاقت به الحال ، وكما يجوز أن يتزود الشاب لهرمه بادخار المال ، كذلك يجوز أن يتزود بالعلم والمعرفة ليستعملهما فى جلب خير أوفر بتعب أقل وهو الغرض الذى أسس لأجله علم الاقتصاد .

وبعد أن فصل الإسلام موارد الرزق والسبل المؤدية لها وبين استحالة تساوى الناس فى العمل والكسب أراد تعزية الفقراء منهم لئلاً يجد الحسد إلى قلوبهم منفذًا فقال : ﴿ وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ كناية عن تقسيم العمل بين الناس ، فلا يحسد أحدهم الثانى على ما سبق إليه من المنفعة لأنه تمييز تقتضيه طبيعة العمران .

ثم أقبل عليهم جميعًا يعلمهم كيفية إنفاق الثروة ، فقال : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ ﴾ والخير هو ما ترتاح له الذمة ويرضى به الضمير ، وقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ ، وقال : ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ ثم شملهم بنصيحة عامة تنفع التاجر والصانع وصاحب المال ، وهى : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ولو عمل الناس بهذه الوصية لألفيت أغلب من يشكو ساكتًا ، فالعامل الفقير يرضى بحظه لأنه غير مبخوس الأجر ، والتاجر يقنع بما يصله لأنه قيمة بضاعته ، والشارى يسر لأنه موفى الكيل راجح الوزن ، والثقة تتبادل بين الجميع لأن الغش مرفوع من بينهم ، والمعاملة تسرى على أحسن نمط ؛ لأن الثقة فى الوسط ، وهذه نتيجة لا يستطاع الوصول إليها بعلم من العلوم .

فإذا أضفنا إلى ما تقدم تحريمه من التحلى بالذهب على حين لا خطر فى ذلك إلا استخدام أتعاب الناس فيما لا ينفعهم علمنا أن الإسلام ينظر إلى كل ما يحيط بالناس فى دينهم ودنياهم فأثبته وشرح علاجه فى القرآن ، وقد رأينا علماء الاقتصاد يقررون أنه لا يصلح للعملة إلا الذهب والفضة ، ويندَدون بمن يستعملهما فى غير ذلك ، فهل رجع العالم ثلاثة عشر قرنًا أم تقدم القرآن كل تلك القرون .

* * *

الأَزْهَرأحوَج إلى اختيَار مُدَرِّسيه
مِنهُ إلى مَالٍ يواسيه(١)

الجامع الأزهر على قيد خطوة من الراكب والراجل ولكنه على بعد ألف سنة من المفكر . وذلك لأنه لا يزال كما هو يلقى دروسه على النسق الذى كان يلقى به أفلاطون دروسه فى غابته وأرسطو بين تلامذته ، وقد أغرى أساتذته بكل قديم حتى لو علموا كيف كان يعلم آدم أبناءه لعدلوا عن خطتهم الحالية فى التعليم إلى تلك الخطة . وإنا ليؤسفنا أن يكون الأزهر الشريف أثرًا من الآثار لاحظ له من الغرض الذى أسس لأجله ، لأننا نريد أن تكون مصر وطن الإسلام الثانى بحق ونريد أن نستأهل اللقب الذى أطلقه علينا المسلمون فى الشرق والغرب وهو أننا حفظة العلم الإسلامى وأعلام الدين وأقطاب الشرق إلى آخر ما يقولون عنا .

أقيم الأزهر لغرضين : أولهما أن يحفظ ما عساه أن يندثر من آداب اللغة العربية وثانيهما أن يهدى الناس إلى أقوم السبل فى أمر دينهم ، فهل هو قائم بهذه المهمة كما ينتظر منه؟

كلا : فإن الإنسان يتعلم الأدب ليكون كاتبًا أو شاعرًا ونحن لا نكاد نطبق أصابع اليدين على شعراء الأزهر وكتابه . ويتفقه أحدنا فى الدين ليعرف الناس فى أمور معاشهم على ما يقضى به نصوصه وأحكامه وما عهدنا فى الأزهر بين من تصدى لتطبيق آية من القرآن على مشروع معاصر مفيد ولا رأيناهم أتوا بشىء جديد غير ما أخلق جدته الزمن وأبلته الأيام .

فهل هكذا يكون الأزهر ؟؟ هل هكذا يكون المعهد الذى يؤمه طلاب العلوم الدينية من حيث تشرق الشمس ومن حيث تغرب ؟؟ هل هكذا تكون المدرسة التى تضم بين جدرانها أكثر مما تضمه ثكنات الجنود فى القطر المصرى والسودان .

---

(١) نشر هذا المقال بجريدة الدستور ٢٨ ديسمبر ١٩٠٨ .

لا والله ولو كان غاية ما يطمح إليه مؤسسه أن يكون على هذه الحال لما استحق منا ومن المسلمين إلا أن يصفوه بالخرق والحمق وتبذير أموال المسلمين فيما لا يجدى ، لا بالسداد والحكمة والاقتصاد .

نبهنا إلى ذلك ما قرره مجلس الأزهر الأعلى فى جلسته الأخيرة برئاسة الجناب العالى الخديوى فقد تقرر فتح اعتماد جديد بخمسة وعشرين ألف جنيه لإصلاح الأزهر ونحن على ثقة من أن هذا الاعتماد وما تقدمه إنما قرر بنية صرفه فى وجوهه ولكن الذى يدهشنا أننا لا نزال نرى الأزهر كما كنا نراه قبل عشرين عامًا مع ما يؤكده سمو الخديوى المرة بعد المرة من أنه لا يهتم الآن بشىء قدر اهتمامه بإرجاع الأزهر إلى عهده الأول ، أيام كان منفجر العلم ومنبثق العرفان .

ولقد علمتنا الحوادث أن الأزهر لا ينقصه المال ولا معدات التدريس وإنما ينقصه المدرسون الذين يحسنون تلقين الدروس على النمط الذى يفهمه المبتدئون فأحلنا إخفاق المصلحين فى مسعاهم إلى إبقاء من يصلح ومن لا يصلح من العلماء فى مراكزهم التى كانوا يشغلونها من قبل ورجحنا أن الأزهر سيبقى كما هو اليوم إن لم يتداركه المصلحون من هذا الباب فقد علت شكوى الطلاب من المدرسين وكيفية إلقاء الدروس وإهمال القائمين بالإصلاح تنفيذ برامجها حتى الاثنى عشر غرفة التى أنشئت حديثًا لم يتناول الإصلاح منها إلا اثنتين وهما الثانية عشرة والحادية عشرة وبقى العشرة الأخرى على الطراز القديم فى التدريس والمرتبات والمدرسين وكل ما يتعلق بذلك ، على شكوى الطلاب من كل ذلك وما سمعنا طالبًا أو عالمًا يشكو قلة المال أو تفاهة المرتبات .

فخير للمجلس الأعلى أن يشذب الأزهر من أمثال هؤلاء . وإن أدركتهم الشفقة بهم فليعين لهم دخلاً يتعيشون منه ، وإلا فالمال ضائع هدرًا ، وخير أن تخسر عشرة آلاف جنيه فى معاشات العلماء المتقاعدين من أن تخسر كل اعتماد تفتح من الآن إلى يوم الدين .

هذا ما نشير به الآن على المجلس ولنا عودة إن شاء الله إلى هذا الموضوع .

❊ ❊ ❊

الجَامِعَة المصْريّة والأَزهَر الشريف

لا يهمهما لمن يكون الغلب

فى البلاد المصرية الآن جامعتان متناظرتان : أولهما على وشك الدخول إلى ميدان المناظرة وهما الجامع الأزهر والجامعة المصرية .

ووجه الشبه بينهما أن دروسهما متقاربة وإن ظهرت أبعد ما يكون شبهًا ببعضها فإن كل ما فى الأزهر علوم كلامية سواء كانت منطقًا أو بلاغة أو غير ذلك ، وكذلك الجامعة فليس يتكلف مدرسوها أن يحملوا أداة من أدوات المعامل لشرح الدرس عليها اللهم إلا لسانهم والكتاب فالأول مدرس الآداب اليونانية والعربية ، والثانية تدرس أدب الإنكليز والفرنسيس وغيرهم من الأمم المتحضرة الحديثة والأول يعتذر عن إلحاق العلوم العصرية بعلومه بأنه دينى لا يجوز أن يشتغل إلا بالعلوم الدينية والثانية تعتذر عن ذلك بحداثة عهدها وعدم انتظام معداتها وهما عنصران متناقضان عن جرم واحد .

ولقد أمّلت الأمة المصرية فى الأول وترقبت منذ عهد بعيد تحقيق أملها ولا يزال فى صدرها بقية رجاء فى حصول النفع منه ، وهى تهتم الآن بوضع ثقتها فى الجامعة لولا أنها لم تر منها حتى الساعة ما يحملها على ذلك .

من البديهى أن أيهما كان الأسبق إلى إدخال العلوم النافعة فيه كان له الفوز على منافسه فلنغمض أعيننا ساعة أو سنة أو حقبة ثم نفتحها عليهما وهما على ما نحب وتحب البلاد المصرية فماذا نرى ؟

أما الأزهر فإنه سيكون جامعة للعلوم الدينية بأنواعها وآداب اللغة العربية بفروعها يضاف إلى ذلك الرياضة والفلسفة الحديثة والكيمياء والطبيعة والفلك والتاريخ والطب والهندسة بمعناها الشامل وبالإجمال كل ما تشتمل عليه دوائر المعارف عند الإفرنج بالإنسكلوبيديات .

وأما الجامعة فإنها ستتولى كل تلك العلوم إلا العلوم الدينية الإسلامية فإنها ستنقصها لا محالة إذ ليس فى الموفدين من قبلها إلى أوربا من أرسل بقصد التوفر على هذه العلوم وإتقانها ولو كان فيه من هذه وجهته لما صح أن يوفد إلى أوربا إلا إذا كان الغرض من إرساله أن يشتغل بالنسيان لا بالتحصيل .

فالأزهر على هذا التقرير سيخرج من ميدان المناظرة فائزًا مستجمعًا لكل ما يوجد ثقة الناس به !!

ولكننا إذا نبذنا الغرضيات جانبًا وأخذنا بالواقع الممثل أمام أعيننا رأينا عكس النتيجة التى قدمناها ، وذلك لأننا اشترطنا أن يكون التفضيل بينهما راجعًا إلى سبق أحدهما الآخر فى توسيع نطاق دروسه ، والذى يبدو لنا ولكل من يستطيع استخدام بصره وبصيرته أن الجامعة ستسبق الجامع فبينما هى ترسل الإرساليات خارج القطر وبينما هى تطلب العلم ولو بالصين ، يجثم الأزهر بمكانه إلى جانب سيدنا الحسين وهو لا يريد بل ولا يحدث نفسه بالخروج قيد شبر عما وضعه له الاقدمون لأنه يعتبر خروج الإنسان عن الحد الذى وضعه له أجداده وأسلافه بمثابة خروج الفلك عن الدائرة التى رسمتها له القدرة الإلهية ، فإذا قيض الله له رجلاً طويل الباع يمد يده إلى ما وراء العصور الوسطى فينشله من ظلماتها إلى هذا العصر المنير كان به وإلا فهو سكيت كل ميدان ، قريع كل رهان .

يقول قائل : كيف يتداركه رجل وقد حاول الرجال إصلاحه فأخفقوا واجتمعوا على تهذيبه فما اتحدوا حتى تفرقوا ، كيف يكون فى حاجة إلى رجل واحد وأنت ترى أمامك رجالاً كلما قوموه من جانب تداعى من الجانب الآخر ؟؟

الأمر من البساطة بحيث لا يحتاج إلى روية أو إمعان نظر . فنحن نقول : إنه فى حاجة إلى رجل واحد ؛ لأن رجلاً واحدًا بيده كل ما يراه الناس كفيلاً لإصلاح الأزهر فى وسعه أن يرسل على نفقة الأوقاف إرسالية علمية نصفها من طلبة المدارس ونصفها من طلبة مدرسة دار العلوم أو مدرسة دار القضاء الشرعى ويحضر هؤلاء فى جامعات أوربا ما يناسب إدخاله إلى الأزهر ، يتلقون العلوم الحية الضرورية ولا بأس بالمنطق الحديث لا ذلك المنطق البالى الذى سوى بين الإنسان والأعجم فجعله فى حاجة إلى القصور وأفسد على متعلميه ملكة الحكم فأصبحوا ولا طاقة لهم بتصور البديهى وهو أن الغرب إنما ارتقى بالعلوم العصرية وأن الشرق لا ينتظر أن يدركه إلا إذا نهج نفس طريقه وعدل عن تلك السبيل النكباء .

مثل هؤلاء إذا عادوا إلى الأزهر بعد سنين معدودة أغنوه عن بعض أساتذته الحاليين الذين لا يصلحون للتدريس وحفظوا عليه مزيته التى كادت تنمحى وتقدموا به إلى حيث يقارن بأكبر جامعة فى العالم ، ولا نخال أن ذلك يستدعى من النفقات أكثر مما تستدعيه هذه الاعتمادات التى تواترت أنباؤها وتعددت أسماؤها وكلها اسم على غير مسمى وظهارة بلا بطانة وقول بلا عمل .

* * *

كتابٌ جَدِيد عَن الرّسُول[1]

«من رأى فريق من كبار المفكرين أن الفترة التى تمر بها البلاد اليوم فترة إمعان فى التفكير وأن مناقشة المسائل السياسية العليا ينبغى أن تتأخر بضعة أيام أو أسابيع حتى تتبين الغايات التى تصل إليها المفاوضات ، من هذا الفريق من كبار المفكرين الأستاذ العقاد .

وقد أراد الأستاذ الكبير أن يطبق هذا الرأى فرغب أن تكون أولى مقالاته فى هذه الآونة على صفحات «السياسة» مقالة تتصل أوثق الصلات بالشئون الفكرية . وليس من شك أن الأستاذ العقاد قد أتاح لقراء العربية بهذا الاتجاه فرصة حرموا منها طويلاً» المحرر .

لما ألف الدكتور هيكل باشا كتابه عن «حياة محمد» وألفت كتابى عن «عبقرية محمد» لم يقع هذا التأليف موقع الاستحسان عند فريق من أدعياء الأدب والثقافة لأن موضوع محمد كما زعموا موضوع قديم لا يجوز لأبناء العصر الحاضر أن يحفلوا به ولا يحسن بأنصار «التقدم» أن يرجعوا إليه .

وحقيقة الأمر أن هؤلاء الأدعياء لا ينكرون الكتابة فى تاريخ النبى ﷺ لأنها كتابة قديمة أو كتابة محرمة على أبناء القرن العشرين ، ولكنهم ينكرونها لأنهم يضيقون بكل ناحية روحية فى تاريخ الإنسان ويعلمون أنها عقبة قائمة تعترضهم فى سبيلهم الذى ينساقون فيه ويندفعون إليه بوحى من سادتهم المتحجبين وراءهم من دعاة المذاهب المادية وأعداء كل رفيع أو عظيم فى الضمائر والأرواح وهم يكشفون أنفسهم كلما أنكروا الكتابة عن أعلام الإنسانية وهداتها وبشروا بالكتابة فى موضوع واحد لا يجوز لأصحاب الأقلام عندهم أن يتجاوزه : وهو موضوع الطعام والشراب ، كأنما الطعام والشراب أحدث الأشياء فى العالم الإنسانى وإنهما لسابقان للإنسان نفسه إيغالاً فى القدم إلى أقدم عصور الأحياء والحشرات .

---

(١) السياسة ١٩٤٦/٤/١٥ .

أما العظمة الروحية التى تتجلى فى الكتابة عن الهداة وأبطال الإصلاح والإرشاد فهى موضوع خالد لا تنقضى جدته فى زمن من الأزمان ، ولعل الشرقيين عامة والمسلمين خاصة لم يكتبوا عن محمد ﷺ فى هذا العصر الحديث بعض ما كتبه عنه الأوربيون والأمريكيون ولا يزالون يكتبون إلى هذا العام .

ومن مصداق ذلك كتاب جديد عن «الرسول» طبع فى مدينة نيويورك سنة ١٩٤٦ ولم ينقض على ظهوره هنالك شهران .

ومعنى ذلك أن المطابع الأمريكية التى تحيط بها شواغل العالم كله فى الآونة الحاضرة لا ترى فى تلك الشواغل ما يصرفها عن تاريخ نبى يدين به الشرقيون ولا يدين به الأمريكيون ولا تحسب أن القراء فى الغرب يضنون على هذا الموضوع الجليل بساعات أو أيام ينفقونها فى الاطلاع عليه ، وهم قائمون قاعدون فى معترك السياسة الدولية ومعترك المشاكل الاقتصادية ومعترك الحياة العصرية بكل ما تتسع له هذه الحياة من المطالب والمنازعات .

هذا الكتاب الجديد عن محمد ﷺ هو كتاب «الرسول» The Messenger الذى ألفه الكولونيل بودلى صاحب كتاب «الريح فى الصحراء» وكتاب «الصحارى المرحة» وغيرهما من الكتب فى الموضوعات الشرقية . وقد اختار اسم الرسول عنوانًا لكتابه هذا لأنه الاسم الذى يوصف به محمد فى كل نداء للصلاة ، حين يهتف المؤذنون فى الآفاق أن «لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» .

وقد يكفى هذا الكتاب للتنويه به أنه «رد عملى» على أولئك «المتحَيْونين» الذين يريدون أن يحصروا النفس الآدمية فى أضيق الحدود وأسفل الدركات ، ويحاولون أن يخدعوا مسامع الشرقيين باسم الحضارة الحديثة ومطالب العصر الحديث ، ولكنه فى الواقع يستحق التنويه به لغير هذا السبب ولأسباب كثيرة . إذ كان طريف التأليف طريف المصادر طريف البواعث إلى العناية به والتأهب له قبل إبرازه فى حيز الكلمات والصفحات .

فالكولونيل بودلى صاحبه رجل وافر الحظ من معارف الحضارة الأوربية والحياتين السياسية والعسكرية تعلم فى أيتون وساندهرست وعمل فى الهند واشترك فى الحرب العظمى ، وساهم فى مؤتمرات فرساى واطلع على الخفايا الدولية من وراء الحجب والأسداد . فثقلت على ضميره مساوئ السياسة وأوضارها ولزمته الكآبة

وأفضى بذات نفسه إلى صديقه لورنس المعروف فى البادية العربية فأشار عليه بأن يعتزل أوربة ويأوى إلى بلاد يعيش فيها على الفطرة كبلاد العرب وأطراف الصحراء . فعمل بنصيحة صديقه وراح يتنقل فى الصحراء العربية زهاء سبع سنوات ، وهذا الكتاب الأخير بعض ثمرات هذه السنوات .

وكتاب «الرسول» طريف فى مصادره كما هو طريف فى أسباب تأليفه لأن صاحبه لم يعول فيه على المراجع الكتابية بل على المراجع الشفوية - يتتبعها حيث عاش الرسول ﷺ ويتفهمها من وحى المكان ومن النفاذ إلى بداهة العروبة فى مواطنها الأولى غير متوسع فى الاطلاع ولا متعرض لمواطن الجدل والخلاف . وقد اكتفى من الكتب بالقرآن الكريم ثم بما تيسر له من المصنفات بعد الفراغ من تكوين رأيه وتصوير شعوره وخياله . فآثر الإحساس بحياة الرسول على التعمق فى أقوال القائلين عنه من المسلمين وغير المسلمين .

ولا ينتظر القارئ من صاحب كتاب الرسول أن يؤمن بالإسلام كما يؤمن به المسلمون ؛ لأنه على ما يبدو من كلامه ينظر إلى الأديان جميعًا نظرة المستقل عن الشعائر والمراسم التى هى مثار الخلاف بين دين ودين .

إلا أنه حسن النية فى تقدير فضائل الرسول والرد على ناقديه من منكرى دينه أو منكرى جميع الأديان .

فهو يحيل الأوربيين الذين يتعرضون لزواج النبى أو لجهاده بالسيف على سير الأنبياء كما وصفهم العهد القديم ، ولاسيما سيرة داود وسليمان .

وهو يقول للذين يطالعون القرآن مترجمًا إلى اللغات الأوربية ويعجبون من إعجاب المسلمين به أن القرآن كتاب حى لم يوضع للمطالعة وتزجية الفراغ وإنما للتبشير والإيحاء والتذكير ولن يتذوقه المطالع المتصفح كما يتذوقه السامع المصيخ إليه بظاهر حسه وباطن نفسه ، لأنه يتطلب الإيمان ويتحدث إلى المؤمنين .

وأشار إلى وصف الجنة كما جاء فى القرآن الكريم فقال : إن القديسين المسيحيين قد وصفوا نعيم السماء بمثل هذا الوصف فى القرن الرابع بعد المسيح ، فقال القديس أفرايم فى أناشيده : «إننى قد نظرت إلى منازل الصالحين فى النعيم فرأيتهم مضمخين بالعطر الزكى تتأرج منهم الطيوب

وتنعقد عليهم أكاليل الرياحين والثمرات . . فمن عف عن معاقرة الخمر على الأرض تشوفت إليه الخمر من كروم السماء ، ومن عصم نفسه عن الشهوات تلقته الحسان فى أحضانها الطهور لأنه ترهب ولم يمرغ نفسه بأحضان المحبة الأرضية» .

وأشار إلى وصف جهنم كما جاء فى القرآن فقال : إنها لا تشبه اللعنة الأبدية التى أعدت للكافرين فى رأى اليهود والمسيحيين لأنها لا تيئس النازلين بها من الغفران واستحقاق الجنة بعد التكفير عن خطاياهم بالعذاب .

وبهذه النية الحسنة نظر فى حياة النبى ﷺ وفى دعوته وفى المقابلة بين العقيدة الإسلامية وغيرها من العقائد الكتابية . فلم يكتب كما يكتب المسلم المؤمن بالدعوة المحمدية ولا كتب كما يكتب المنكر المتحامل الذى يتعصب لدينه ويتعمد القدح والإجحاف .

وإذا جاز أن نرتب المؤلف الواحد فى درجات متتاليات فصاحب كتاب الرسول قد كان شاعرًا فسائحًا فمؤرخًا فناظرًا فى الأديان بنظرة المتصوف الحديث ، فغلب الشعر فيه على التاريخ وغلب التاريخ الشعرى فيه على التحميص والاعتقاد .

وجاء كتابه بعد هذا كله فى أوانه ليقنع بعض الشرقيين على الأقل بأن «تاريخ محمد» شىء خالد يشتغل به أصحاب الشواغل فى وقت يمتلئ فيه الحاضر بما ينسى كل قديم ، لو كان نسيان كل قديم مما يليق بكرامة الآدميين .

* * *

الثّقَافتَان(١)

من مباحث اليوم فى دوائر الثقافة الإنجليزية مسألة الثقافة الإنسانية فى العصر الحاضر ، وأصح من ذلك أنها مسألة الثقافتين التى يخشى منها على الثقافة الإنسانية ، ويريدون بهما ثقافة العلوم والصناعات من جانب وثقافة الآداب والفنون من جانب آخر . وكلتاهما نافعة إذا لم تنفرد بالفكر الإنسانى كل الانفراد ، ولكنها ناقصة النفع بل وشيكة أن تضر - إذا حجبت عن الفكر ما عداها من متممات التهذيب والتقويم .

أثار هذه المسألة فى الأيام الأخيرة الأديب (سير شارل سنو) فى محاضرة من محاضراته المسموعة القيمة ، ولخص فيها مشكلة الإنسان المتعلم فى القرن العشرين ، فإن اتساع ميادين المعرفة مع شيوع التخصص فى حدوده الضيقة شطر الإنسان كما يقول شطرين ، وجعله نصف إنسان لا يكتفى به فى حسن الفهم وحسن التقدير وحسن التصرف ، وقد عزله عن الفطرة التى تعتمد على العرف السليم ولم يعوضه عنها ما يغنيه ويهديه ، لأنه أعطاه النظر من ناحية واحدة ، وهو أخطر الأنظار .

ولم نسمع فى هذا العام محاضرة كان لها من الصدى ما كان لهذه المحاضرة منذ إلقائها إلى اليوم ، أو محاضرة تلاحق التعقيب عليها كما يتلاحق من تعقيبات الصحافة والإذاعة والأندية الفكرية فى موضوعها ، وهو موضوع الثقافتين .

قال الأديب جون شارب فى إذاعته : إنها أخطر بحث عن التعليم تناوله الباحثون منذ صدر تقرير هاداو Hadaw قبل ثلاثين سنة .

وقال ناقد الملحق الأدبى لصحيفة التيمس : إن الفراغ بين القوتين ليس من الأمور المزهود فيها ، فلولا الفراغ لما أمكن سريان الشرارة الكهربائية ، ولولاه لما

---

(١) مجلة الأزهر ديسمبر ١٩٥٩ .

تحركت السيارة التى نركبها ، فإذا وجد فراغ بين نوعين من التعليم فليس من الحتم أن يئول ذلك إلى ضرر أو خسارة ، وإنما الواجب أن يأتى الفراغ فى الموضوع الملائم وبالقدر المطلوب .

ثم عاد الناقد المطلع إلى مسألة الفراغ بين الثقافتين العلمية والفنية فى العصر الحاضر فقال : إنها فى الحق من المشكلات الجسام يخففها إلى حين أن الإنسان المهذب فى زماننا - سواء كان من العلميين أو الفنيين - لا يكتفى بنصيبه من العلم أو الفن ولا يستغنى عن شاغل من شواغل الرياضة البدنية أو من شواغل الموسيقى كالعزف على آلة من آلاتها والاستماع إلى أدوارها المحفوظة فى قوالبها المسجلة ، أو الاستماع إلى طرائف الإذاعة فى مختلف الموضوعات .

إلا أنه ينتمى على الرغم من هذا العزاء الموقوت لو تعالج هذه المشكلة بما يجمع الفائدة من كلتا الثقافتين ويكفل اللقاء للشطرين الإنسانيين فى بنية واحدة لا تشتكى الزيغ والانحراف فى نظرتها إلى دنياها .

وقال الفيلسوف الرياضى الكبير برتراند رسل من كلمة نشرتها مجلة المساجلة Encounter : إن القطيعة بين الثقافتين لم تبلغ فى الأزمنة الماضية ما بلغته الآن ، إذا كانت القنطرة بين العدوتين قائمة على طول أو على قصر ، ولكنها فى الحقبة الأخيرة يوشك أن تنفصم فلا تلتقى إحداهما بالأخرى ، ولا تسلم الثقافة من كلفة الادعاء والحذلقة ، كما يحدث دائمًا عند الشعور بالنقص والرغبة فى مداراة الجهل والسذاجة .

ويرى بعض المعقبين أن العلة ناشئة من تراكم الفضول والحشو على مواد الثقافة جريًا مع التقليد والعادة ، فلو أعيد النظر فى برنامج التعليم لم يتعذر إصلاح الخطأ وتصفية الفضول وإبقاء البقية الصالحة من ثقافة العلم وثقافة الفن التى لا يصعب تحصيلها على المتعلم ، مع إعطاء التخصص حقه فى عصره .

والذى نراه من جملة ما طالعناه من مباحث هذه المشكلة أن العلة فيها عند الغربيين راجعة إلى سبب أصيل لم يبتدئ فى هذا القرن العشرين ولم تأت به الدراسة العلمية أو الحركة الصناعية فى هذه السنوات منذ أربعين أو خمسين سنة .

إن العلة فيما نرى راجعة إلى قسمة الثقافة عند القوم إلى ثقافة إلهية وثقافة إنسانية ، وراجعة قبل ذلك إلى قسمة الإنسان بين هذا العالم وبين العالم

السماوى ، وإلى المقابلة بينهما كما تتقابل مملكة السماء ومملكة العالم الدنيوى ، أى مملكة الشيطان .

فمن قبل هذا العصر - عصر العلم والصناعة - كان الأوربيون يقسمون الثقافة إلى قسم العلوم اللاهوتية وقسم العلوم التى سموها بالإنسانية تمييزًا لها من علوم اللاهوت وما يلحق بها من دراسة تعين عليها ، وقد سرى هذا التقسيم منهم إلى الشرق مع سريان الحضارة إلينا من بلادهم ، فسمعنا بيننا من يتحدث عن العلوم الدينية والعلوم الدنيوية .

فالدين الإسلامى يأمر المسلم بالنظر فى السماوات والأرض ليعلم كل العلم عندنا واحدًا يطلبه المتعلم لدينه ودنياه . ما يؤدى إليه النظر فيهما وفيما بينهما ، ويأمره بأن ينظر فى سريرة الإنسان وفى أحوال الأمم فلا يفوته العلم بالإنسان الفرد ولا بالجماعات البشرية .

وأثر هذا الإحساس «بالوحدة الذهنية» أن تتم ثقافة المتعلم ويسلم العقل من داء الفصام الثقافى الذى يفصل بين روحه وبدنه وبين دينه ودنياه .

وأثره فى تاريخ التفكير أن نرى تلك الثقافة الواحدة فى العالم الفقيه الفيلسوف الأديب ، مع اشتغال بالطب أو بالوزارة أو بسياسة الأمور العامة ، ولا نرى له نظيرًا فى الأزمنة الحديثة ، ولم نر له من قبل نظيرًا فى الأزمنة الغابرة ، لأن الثقافة فيها بطبيعتها كانت تنحصر بين حدودها التى لا تتفرق أو لا تدعو إلى التخصيص ، لقلة محصولها فى مختلف العلوم .

ولم تتأثر قواعد هذه الثقافة التامة بانتقال المسلمين إلى البلاد الغربية ، بل هى أثرت هناك فى تلاميذها من الغربيين فرفعت أمامهم أمثلة نادرة من «الإنسان المثقف» كما ينبغى أن يكون .

من أمثلة أبو بكر بن زهر الذى يقول فيه صاحب نفح الطيب : «هو عين ذلك البيت وإن كانوا كلهم أعيانًا علماء ، ورؤساء حكماء وزراء» .

ويقول فيه صاحب المطرب من أشعار أهل المغرب : «كان شيخنا الوزير أبو بكر ابن زهر بمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطب عذب معين ، وكان يحفظ شعر ذى الرمة وهو ثلث لغة العرب ، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب والمنزلة العلياء عند أهل المغرب ، ومع سمو النسب وكثرة الأموال والنشب» .

وصاحب هذه المعارف والرئاسات هو الذى يقول من الشعر فى شوقه إلى طفله الصغير :

ولى واحـد مـثل فـرخ القطا
صـغـيـر تخـتلف قلبى لديه

نأت عنه دارى فـيـا وحـشـتـا
لذاك الشـخـيص وذاك الوجـيـه

تشـوقنى وتشـوقـتـه
فـيـبكى علىّ وأبكى عليـه

وهو الذى يقول وقد نظر فى مشيبه إلى المرآة :

إنى نظرت إلى المرآة إذا جليت
فـأنكرت مـقلتـاى كل مـا رأتا

رأيت فيها شييخًا لست أعرفه
وكنت أعهد فيها قبل ذاك فتى

فقلت : أين الذى بالأمس كان هنا
متي ترحل من هذا المكان متى ؟

فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة :
إن الذى أنكرته مـقلتـاك أتى

كانت سليمى تنادى يا أخى وقد
صارت سليمى تنادى اليوم يا أبتا

وهو الذى يقول فى إحدى موشحاته :

سلّم الأمـر للقـضـا
فـهـو للنفس أنفع
واغـتنم حين أقـبـلا
وجـه بـدر تـهـللا
لا تـقـل بالـهـموم لا
كل مـا فـات وانقـضى
لـيس بـالحـزن يـرجع

ومثل هذا الشعر يسلك بقائله فى عداد النخبة من شعراء عصره وشعراء كل عصر ، لو أنه تخصص للشعر ولم يزد عليه فضلاً من أفضال العلم أو الحكمة أو

الرئاسة . ولكنه زاد عليه من كل فضل ما يسلكه بين خاصة أهله ، ولم يفرضه عليه واجب من واجبات المنصب ولا حاجة من حاجات النفس إلى المال والمتعة ، بل ترك من المتعة بمقدار ما استفاد من حكمة وأدب : متعة لا يبذل فيها هذا الثمن من يجهل كيف يكون متاع الأرواح والألباب .

ولقد كان هذا التوسع فى المعرفة من نصيب البيوت والأسر ولم يكن من نصيب نابغة فيها يعدونه فلتة الفلتات النادرة بين أبنائها ، فليس بالنادر بينهم أن يتعاقب على النبوغ ثلاثة أجيال يميزون بينهم باسم الأب والابن والحفيد ، لأنهم كلهم فى شهرة العلم والنبوغ سواء .

❊ ❊ ❊

إن «الثقافة التامة» على هذه السنة مستطاعة فى كل زمن ، مستطاعة فى زماننا هذا على الوجه الأمثل مع وفرة علومه وتعدد ألوان الثقافة فيه ، لأنه كما تعددت فيه ألوان الثقافة تعددت فيه وسائل نشرها وتقريبها والوصول إليها فى مصادرها ، فمن لم يتسع وقته للاطلاع على المطولات لم يضق به الوقت عن الإلمام بالوسيط أو الوجيز فى ضروريات المعرفة ، ومن فاته الاطلاع لم يفته الشهود والاستماع ، ومن فاته كل ذلك لم تفته مراجعة الصحف ومناقشة العارفين ومتابعة الأخبار مع السؤال والاستفسار .

وليس المطلوب بالبداهة إلغاء التخصص ولا الوقوف بالمعرفة الخاصة دون الغاية من الاستقصاء . فإن الإجادة فى عمل الإنسان المثقف لا تنال بغير هذا الاستقصاء إلى غاية مداه المستطاع . ولكن إتقان التخصص هو الذى يوجب على صاحب العلم والفن أن ينطلق من قيوده ولا يغلق عليه أبواب علمه وفنه ، فلا سبيل إلى إتقان شىء من الأشياء وراء الجدران المحكمة والأبواب المقفلة ، ولا يعرف الحسن من يراه فى وجه واحد ، أو يعرف سكنى الدور من لم يخرج قط من داره ، أو يعرف عقله من لم يعرف عقولاً أخرى لا مشابهة بينها وبينه .

فمن أجل التخصص نعرف ما حوله ، وقوام الأمر من المعرفة الصحيحة فى عصر «التخصص» أن نعرف كل ما يعرف من علم واحد ، وألا نجهل الصلة بينه وبين سائر العلوم ، فلا نلتقى بأصحابها لقاء الغرباء من عالم آخر ، وما هو فى الحقيقة غير العالم الذى نعيش فيه .

وزينة الثقافة ، بل ضرورتها القصوى ، ألا يكون المرء عالمًا فى بابه وأميًا فى سائر الأبواب ، فإن هذه الأمية فى نقصها وسوء مغبتها أجدر بالمحو من أمية الجاهل بالألف والباء .

❊ ❊ ❊

عَوْدٌ إلى الثقَافتين(١)

عرضنا فى إحدى مقالاتنا بمجلة (الأزهر) لمشكلة الثقافتين عند الأمم الغربية ، والمقصود بها مشكلة الانفصال بين ثقافة العلم وثقافة الأدب . واتساع الهاوية فترة بعد فترة بين تفكير العلماء وتفكير الأدباء وأصحاب الآراء النظرية ، مما ينذر بإصابة «الشخصية الإنسانية» فى هذا العصر بداء كداء الفصام ، ويجعل الإنسان الناشئ على إحدى هاتين الثقافتين دون الأخرى كأنه نصف إنسان .

وقد كانت هذه المشكلة مدار البحث فى سلسلة المحاضرات الفلسفية التى ألقاها الكاتب ـ العلمى الأدبى ـ الأستاذ سنو Snow فى شهر مايو الماضى ، فثارت حولها ضجة من النقاش والنقد والتعقيب لم تنقطع إلى هذه الأيام ، لأن المشكلة ـ على ما هو ظاهر ليست من المشكلات التى ينتهى الفصل فيها بسلسلة من المحاضرات ، أو بطائفة من الآراء تنشر ثم تطوى بعد أسابيع أو شهور ، ولا مناص فيها من إتباع القول بالعمل على منهاج متفق عليه ، فإن لم يبلغ التفاهم عليه مبلغ الاتفاق فلا أقل من أن يكون صالحا للتنفيذ والتقرير .

وقد عاد الأستاذ (سنو) إلى بحثه فى مقال نشرته مجلة المساجلة Enconter فى عددها الصادر فى شهر فبراير الماضى ، أراد بمقاله هذا أن يلم أطراف المناقشة ويعقب عليها بخلاصة رأيه بعد عرض أقوال الموافقين والمخالفين من الباحثين قبله أو بعده فى مشكلة الثقافتين ، وقد جمعهم إلى طوائف ثلاث : موافقين فى الرأى والنتيجة ، وموافقين فى الرأى مخالفين فى النتيجة ، ومخالفين يعارضون نظرته كل المعارضة فى وصف المشكلة ويرون أن العصر الحديث كالعصر القديم فى تعدد الثقافات ، مع اختلاف الموضوع والمقدار .

ولا يعنينا هنا تفصيل أسباب الخلاف بين آراء الموافقين والمعارضين : فذلك شرح يطول ولا علاقة له بالناحية التى نحول إليها البحث من أمر الثقافة الإسلامية .

---

(١) مجلة الأزهر ، أبريل ١٩٦٠ .

ولكننا نجتزئ بالإشارة إلى رده المجمل على المخالفين ، ثم بالإشارة إلى الحل الذى يقترحه لعلاج المشكلة من الوجهة العامة .

فالمخالفون يقولون : إن الحال لم تتغير فى جوهرها من أيام عصر النهضة إلى اليوم . فلو تلاقى عالم فقيه وشاعر فنان قبيل القرن السادس عشر لما كان بينهما من التفاهم والتقارب أكثر مما يكون بين علماء العصر الحاضر وأدبائه أو مفكريه النظريين .

وجواب الكاتب على هؤلاء أنه لا يسلم بأن المسافة بين الفريقين كانت على هذا البعد منذ ثلاثة قرون ، ولا يقول : إن العلم والأدب كانا قريبين متلاقيين فى القرن السادس عشر ، ولكنه يقول : إن القنطرة بينهما كانت موجودة مستقرة وهى اليوم تتهدم شيئا فشيئا وتوشك أن تزول ، وأنه على أية حال لايريد أن تقام القنطرة وتظل قائمة لن يعبرها ، ولايعجز أحد عن عبورها إذا أراد .

أما حل مشكلة الثقافتين من الوجهة العامة عند الكاتب فهو تعميم التصنيع فى المجتمعات الحديثة ، ولابد ـ على رأيه ـ من الاختيار بين البدائية الهمجية وبين تصنيع المجتمع وتعويد الناس جميعًا أن يعيشوا معيشة الحضارة العلمية ، فيصبح التثقف العلمى حقيقة واقعة يزاولها الناس فى البيوت والأسواق وفى ميادين الرياضة البدنية والنفسية ، وفى حينها تحول الإنسان بين العمل الصالح واللهو البرىء ، لاضطرارهم إلى استخدام الآلات .

والكاتب ، فيما نعتقد ، مصيب من الجانب الذى ينظر إليه ، وهو جانب (الإنسان الغربى) وارث العلم والأدب فى البلاد الأوروبية أو الأمريكية من القرون الأولى بعد الميلاد .

فقد عاش هذا الإنسان على الدوام فى ميدانين متقابلين من عالم الثقافة ، ميدان الروح وميدان الجسد ، أو ميدان ملكوت السماء وميدان ملكوت الأرض ، وكان الانفصال بين الميدانين بعيد الأمد يكاد ينتهى إلى عالمين متناقضين : أحدهما ملعون منبوذ هو هذا العالم المشهود ، والآخر مقدس مطلوب ولكنه غائب وراء الحواس بل وراء العقول التى تتصرف فى الأمور الدنيوية .

وليس الانفصال بين العلم والأدب فى القرن التاسع عشر وما بعده إلا ميراثا منقولا من ذلك الفاصل القديم ، ولا غنى فى هذه الحالة عن تقريب القواعد قبل تقريب البناء الذى يقام عليها .

ولهذا لا غنى عن سؤال يجاب عليه قبل البحث فى الحلول العامة المقترحة ، سواء منها حل الكاتب الإنجليزى وحل غيره من المفكرين العلميين والنظريين .

هذا السؤال هو : ما الرأى فى «الشخصية الإنسانية» على أى وضع من الأوضاع الاجتماعية فى العصر الأخير : عصر الصناعة وحضارة العلم الحديث أو عصور الزراعة والعلاقات الاقتصادية على اختلافها ؟

هل «الشخصية» الإنسانية هى موضع التربية والتثقيف وغرضهما ومدارهما فى جميع الأحوال ، أو أن موضع التربية والتثقيف وغرضهما ومدارهما شىء آخر لا يبالى مصير هذه الشخصية ؟

إن الإسلام لا مشكلة فيه من جهة الثقافة على أنواعها ، لأن «الضمير الإنسانى» هو المسئول دنيا وأخرى عما يعمله الإنسان وما يعلمه وعما يدين به فى نجواه وما يدين به بينه وبين غيره .

والتربية فى الإسلام هى تهذيب هذه «الشخصية» ، وتزويد قواها الفكرية والبدنية معًا بكل ما يصلحها للعلم والعمل .

وكل تربية ينالها الإنسان فهى امتداد لقوة من قواه ، سواء منها قوة البدن وقوة الروح ، وإنما تعرف قيمتها بميزان القوة التى تمدها وتزيدها وتهيئها للعمل فى الحياة الخاصة أو الحياة الاجتماعية العامة .

فالتربية الصناعية تجعل للإنسان يدًا أقوى من يده أو قدمًا أقوى من قدمه ، أو بصرًا أقوى من بصره ، أو سمعًا أقوى من سمعه ، وهى تربية ضرورية نافعة لا غنى عن تعميمها بين الناس فى المجتمعات الحديثة ، ولا غنى لهذه المجتمعات عنها فى عصر الصناعة والمخترعات .

هذه التربية الصناعية قوة تمنح الإصبع قدرة على أن يحرك الجبال بالضغط على زر صغير ، وتمنح العين قدرة على النظر بالمجاهر والمناظير إلى دقائق الخفاء وإلى آفاق السماء .

ولكن هذه القوى جميعًا لن تبلغ فى القيم الإنسانية مبلغ القدرة التى ترفع ضميره ، وتوليه من الشعور والفكر وسيلة توسع أمامه آفاق الحياة ، وتبسط بين يديه

كونًا أعظم من الكون الذى يعيش فيه جسده ، ووجودًا أتم من الوجود الذى يلابسه بأعضائه البدنية ولو بلغت غاية مداها من بسطة وامتداد .

إن «زرًا» يضغطه الإنسان بإصبعه قد تمنحه قوة ألف إصبع أو آلاف من الأصابع تحسب بالملايين ، ولكن «الشخصية الإنسانية» لا تتوقف عليه ، وقد تصنعه للإنسان شخصية أخرى فيعمل به كل عمله المطلوب ، فليس من الضرورى أن يكون صانع الزر هو المنتفع به أو هو المتعلم لتركيبه واستخدامه ، ولا شأن له فى إتمام «كيانه الإنسانى» ولا فى الارتفاع به إلى ما هو أهل له من مراتب الكمال .

لوكن القدرة الروحية إذا عرف بها الإنسان مزايا الخير والجمال ، وتذوق بها محاسن الحياة الفكرية والعاطفية تتوقف على «الشخصية» التى تستطيعها ولاتصنعها لها شخصية أخرى كما تصنع الأزرار والمجاهر والمناظير .

وهذا هو الفارق بين تربية وتربية ، وبين إنسان مثقف وإنسان ناقص التثقيف ، أيًا كان نظام المجتمع وأيًا كان حظه من التصنيع .

فإذا وجب التصنيع فإنما يجب لتمكين الإنسان من الانتفاع بصناعات عصره وتوزيع منافع الصناعات بين جميع أبناء المجتمع على سنة الإنصاف والتعاون فى المصلحة والخير ، ولكن المجتمع الذى سيصنع الأزرار والمجاهر والمناظير لأبنائه لايعطيهم كل شىء ولا يزودهم بمقومات الحياة التى يحتويها كل ضمير بينه وبين الله وبين الناس ، ولا يستطيع أن يعول فيها على معمل من معامل التصنيع يتكفل بتوريد الضمائر لأبنائه كما تتكفل المعامل بتوريد هذه الأداة أو ذلك المخترع المصنوع .

ولن تتم فى مجتمع من المجتمعات ثقافة عالية جديرة بأن تسمى ثقافة إنسان مالم تكن ثقافة شاملة يتم بها قوام «الشخصية الإنسانية» بريئة من داء الفصام موفورة الحظ من الضمير والجسد ، ومن العلم والأدب ومن مطالب الأذواق ومطالب العقول .

* * *

الروحَانية بَيْن الأَنبيَاء الثَلاثة(١)

الأديان الثلاثة : الإسرائيلية والمسيحية والإسلام ، ظهرت كلها بين السلالات السامية وكان أنبياؤها جميعًا من الساميين .

والإجماع منعقد على هذا بين المؤرخين كافة ، نعنى انتساب موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام إلى هذه السلالة ، يشذ عنهم «فرويد» العالم النفسانى الإسرائيلى المشهور ، فهو ينسب موسى إلى الجنس المصرى القديم . وبعض الباحثين يقولون : إن الجنس المصرى القديم منحدر من الأصول الأوروبية .

ويشذ عنهم فى أمر المسيح أولئك الدعاة الجرمانيون الذين يعتسفون الأنساب لكل عظيم فيردونه إلى الأصل الجرمانى أو السلالة الآرية على التعميم . فهؤلاء الدعاة يزعمون أن صفات المسيح المتواترة أقرب إلى الملامح الآرية الشمالية ، وينظرون من جهة أخرى إلى الملامح الفكرية أو الأدبية فيزعمون أن الروحانية التى تظهر فى أقوال السيد المسيح أكبر وأرفع من طاقة «السلالة السامية» التى يحسبونها مقصورة على الماديات الملموسة والمطالب الأرضية القريبة .

وكلا القولين ـ قول فرويد وقول الدعاة الجرمانيين ـ لا يؤيده دليل قاطع ولايتعدى الأخذ بالظنون .

فمن المستبعد أن يكون موسى مصريًا ثم تجتمع له زعامة الإسرائيليين من جميع القبائل والبطون فى الديار المصرية ، ومن السخف أن يكون المسيح «آريًا» تطبيقًا لقاعدة يخترعها دعاة الجرمانية ، ثم يسندونها بالظنون ويعودون فيسندون الظنون بتلك القاعدة المخترعة .

وعلى هذا يصح أن ينعقد الإجماع ـ كأصح ما انعقد فى مسألة من المسائل ـ على أن البيئة السامية هى البيئة التى ظهرت فيها الأديان الثلاثة ، وأن موسى وعيسى ومحمدًا جميعًا من سلالات الساميين .

ألهذه المزية الجنسية دلالة عامة! وهل نشأت الأديان الكبرى الثلاثة بين أبناء

---

(١) الرسالة .

الجنس السامى لسبب عنصرى يخص هذه السلالة ، أو لسبب نفسانى يرجع إلى طبيعة العقيدة الدينية ؟

تلكم فى ذلك المتكلمون فأثبتوا وأنكروا كما يحبون أو يكرهون فمن قائل : إن العقل السامى بفطرته مستعد للاعتقاد غير مستعد للتفكير أو الخلق الفنى والنظرات الفلسفية المجردة ، ومن قائل : إن العقيدة الدينية نفسها طور من أطوار الزعامة العنصرية التى تطور فيها الساميون إلى مداها الأقصى ، قبل أن يخرج الآريون الشماليون من نظام القبيلة الأولى .

ولا يتسع المقام للتقصى فى أقوال المثبتين والمنكرين ، فحسبنا أن نقف فى أول الطريق على بر الأمان ، فنقول : إن العقائد الدينية ظهرت فى السلالات السامية يوم كانت تظهر فيهم جميع المعارف الكونية والنهضات الثقافية ، فلا محل لتخصيص الأديان هنا بالعنصر السامى أو اتخاذ هذه الخاصة دليلاً عنصريًا من تلك الأدلة الكثيرة التى تختلط بالعصبيات .

كانت الدول الكبرى كلها قائمة فى الرفعة الغربية من القارة الآسيوية ، وهى الرقعة التى أقام فيها الساميون منذ مئات الأجيال . فشاعت المعارف الكونية من هذا الوطن القديم ، ولم ينحصر الأمر يومئذ فى ظهور العقائد دون غيرها من النهضات أو الفتوح فى عالم الروح .

***

نحن لاننكر الفوارق العنصرية ولانستخف بآثارها فى اختلاف الأمزجة والأخلاق وتباين المشارب والميول ، ولكننا لانحب أن نعزو إلى الفوارق العنصرية إلا الذى يثبت ثبوتًا قويًا أنه راجع إليها . فلا نقول : إن «العقائد» سليقة سامية إلا إذا تبين أن الآريين بمعزل عن العقائد ، وإن الساميين لايمتازون بغيرها ، وإن المسألة محصورة فيهم على مدى العصور وليست مسألة عصر ومناسبة زمانية أو مكانية .

كذلك نرجع إلى الروحانية بين الأديان الثلاثة فلا نجعل العنصرية حكمًا فيها قبل أن نستنفد العوامل الأخرى جميعًا ، وإن جاز أن يذكر الاستعداد العنصرى بين عوامل شتى يحسب لها حسابها فى هذا الموضوع .

فالذى يقال مثلا : إن السيد المسيح ـ عليه السلام ـ كان صاحب دعوة روحانية لا تشتغل بشئون الدنيا ولا بالمطالب العملية التى تحتاج إلى وضع النظم وفرض الشرائع ، وأن علة ذلك فى رأى بعض الباحثين أن المسيحية تشابه العقائد الآرية

التى جعلت الدين للروح والضمير ولم تجعله لمطالب الجسد أو مطالب الحياة الاجتماعية والنظم السياسية .

وهذا الذى يقع فيه الخلاف الكثير .

فاهتمام السيد المسيح ـ عليه السلام ـ بالجانب الروحى من الدين لم يصرفه أولاً عن الجوانب الأخرى التى تناولتها سائر الأديان ، ولم يكن لفارق عنصرى بين الذين خوطبوا بالدعوة المسيحية والذين خوطبوا بالدعوة الإسلامية أو الدعوة الموسوية .

واهتمام السيد المسيح بالجانب الروحى ليس معناه ـ من الوجهة الأخرى ـ أن هذا الجانب لم ينل حظه من الاهتمام فى دعوة محمد أو دعوة موسى ـ عليهما السلام ـ وإنما معناه أنه جانب من الجوانب الكثيرة التى عنى بها الإسلام خاصة ، وكان لها سهم فى العناية من وصايا الأنبياء الذين ظهروا فى بنى إسرائيل .

وقبل أن نحصر الأمر فى علة «الاستعداد العنصرى» نعود إلى العلل المختلفة فنسأل : ألم تكن هنالك علل أخرى جعلت رسالة السيد المسيح أقرب إلى الروحانيات منها إلى العمليات والشئون الدنيوية ؟

فإذا سألنا هذا السؤال لم نستطع أن نقول : إن السامية أو الآرية هما الحد الفاصل فى هذا الموضوع .

فقد كانت هنالك علل كثيرة خليقة أن تقصر الدعوة المسيحية الأولى على مواعظها الأخلاقية التى أوشكت أن تقتصر عليها .

فمن تلك العلل أن بنى إسرائيل كانوا أصحاب شريعة دينية مفصلة فى شئون الحقوق والمعاملات قبل أن تتجه إليهم دعوة السيد المسيح ، وكانت آداب القائمين على تلك الشريعة هى موضع العهدة أو موضع الحاجة إلى الإصلاح ، فلا جرم تتجه إليهم الدعوة من هذه الناحية ولا تتجه من ناحية التشريع المفصل فى شئون الحكم وشئون المعيشة ، بل كان من قول السيد المسيح الصريح أنه لاينقض الناموس ولكنه يثبته ويزكيه .

ومن تلك العلل أن السيد المسيح ظهر فى بلاد يحكمها الرومان ويتولى إدارتها أولئك القوم الذين اشتهروا بالنظم والشرائع وتبويب الأوامر والقوانين ، وما لم تكن الدعوة المسيحية ثورة سياسية معززة بقوة الجند والسلاح فلا سبيل فى بدايتها إلى تفصيل الشرائع وانتزاع سلطان الحكم من أيدى القابضين عليه ، وإنما السبيل الأوحد أن تنصلح الأخلاق والضمائر بالعظة والهداية الروحية على السنة التى اختارها السيد المسيح ويختارها فى مكانه كل داعٍ إلى دين جديد يتذرع إلى دعوته بالإقناع لا بالسلاح والصراع .

فهذه العلة كافية لتعليل الصبغة الروحانية التى غلبت على المسيحية ، وإنها لأقرب إلى تعليلها من الرأى القائل باقتباس المسيحية من العقائد الهندية أو الآرية فى جملتها ، لأن هذا الرأى يلجئنا إلى إقامة فاصل بين ساميين وساميين ، ولا يبطل الاعتراض الذى يرد فى هذا الصدد حين يسأل السائل : وماذا كانت الدعوة المسيحية صانعة إذا هى فرضت الشرائع بغير حكومة وبغير ثورة مسلحة وبغير موافقة من أصحاب الأمر بين الرومان أو بنى إسرائيل ؟

أما الإسلام فلم يكن معقولا أن ينحصر فى المواعظ الروحانية دون غيرها ، لأن العرب لم يدينوا بشريعة عامة مفصلة قبل الإسلام تغنيهم عن تشريع جديد ، ولأن الإسلام قد تولى الحكم كما تولى الهداية النفسية ، فلا مناص هنا من إقامة الحدود وبيان الحقوق وتقرير الحكم فى كل شأن من شئون المعيشة تتولاه الحكومات .

وكذلك موسى ـ عليه السلام ـ فى قيادته للقبائل الإسرائيلية ، لأنه كان فى مقام الزعيم الذى يسوس تلك القبائل بالشرائع المرعية فى زمانه والشرائع التى اقتضاها خروجه من ديار مصر إلى ديار كان فيها لبنى إسرائيل موطن قديم . فاهتم بتسجيل الشرائع المصرية والإسرائيلية والموسوية ، واهتم إلى جانب ذلك بمصالح قومه ، لأن العمل الأكبر الذى تصدى له إنما هو إنقاذ اخوانه فى العنصر والعقيدة ، فهو عمل «وطنى» مقدم فى زمانه على الوصايا الإنسانية العامة التى تشمل الأمم كلها كما تشملها كل نصيحة أخلاقية أو موعظة روحية .

وهذه العلة كافية أيضا لتعليل الصبغة العملية التى غلبت على الدعوة الموسوية فأصبحت شيئًا غير المسيحية فى الروحانية أو البشارة الإنسانية التى تخاطب جميع الأمم كما تخاطب بنى إسرائيل . ولا حاجة فى هذا المقام إلى التفريق بين ساميين وآريين ، أو التفريق بين طائفة من السلالة السامية وطائفة أخرى ، إذ لو كان موسى آريـا وكان أبناء إسرائيل آريين لما سلك غير مسلكه معهم فى شئون التشريع والمصالح الوطنية أو المصالح العنصرية .

ونعود فنقول : إننا لا ننكر الفوارق بين العناصر والأقوام ، ولكننا ننكر الفوارق التى يفرضها بعض الباحثين المتعسفين بغير دليل ولا قرينة راجحة ، ونحب أن نقيم البحث فى أسرار العقائد وأسرار نجاحها فى زمانها ومكانها على العلل الكونية التى جرى عليها نظام الوجود ، لأن الأسرار الإلهية التى توحى بها الأديان لن تناقض المعقول من سنن الكون وفطرة الأشياء .

* * *

الإسلام والحضارة الإنسانية

الإسلام دين إنسانى عام ، أو دين عالمى كما نقول فى اصطلاح العصر الحديث ، يخاطب الأمم جميعًا فلا يفرق بين أمة وأمة بفارق الجنس أو اللون أو اللغة ، فكل إنسان فى جوانب الأرض أهل لأن يأوى إلى هذه الأخوة الإنسانية حيث شاء وحين يشاء .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ .

﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ .

هكذا أعلنها القرآن الكريم دعوة عامة منذ ألف وأربعمائة سنة ، وهكذا أعلنها النبى ـ عليه السلام ـ وخلفاؤه الراشدون وتابعوهم الأبرار فى صدر الإسلام ، ولم يمض ربع قرن من التاريخ الهجرى حتى قامت بينات الواقع على حقيقة هذه الدعوة الإنسانية الإسلامية ، فدان بالدين الجديد أناس من جميع الأقوام والسلالات ، ولم تنقض على الهجرة ثلاثة قرون حتى كان فى عداد المسلمين ساميون وآريون وحاميون وطورانيون ، عرب وفرس وترك وهنديون وصينيون وأفريقيون من السود والأثيوبيين .

هذه هى البينة العلمية الواقعية على «عمومية» الدين ، وهى بينة ينفرد بها الإسلام بين الأديان الكتابية وغير الكتابية ، وينبغى أن ننظر إليها من وجهتها الصحيحة لنعرف حقًا أنها مزية قد انفرد بها الإسلام .

إن دينًا من الأديان الأخرى لم يكسب أمة ذات كتاب عريقة فى الحضارة ، وإنما كانت الأديان مقصورة على العصبية القومية أو على تحويل الوثنيين الذين درجوا على عبادة الأصنام وما يشبه الأصنام من رموز القوى الطبيعية .

فالموسوية قصرت دعوتها على العبريين أو اليهود ، ولما قام المكابيون ليكرهوا قبائل البادية على قبول الشعائر اليهودية كانت هذه القبائل وثنية مغرقة فى الجهالة ، وكان المكابيون يؤمنون بالإله «يهوا» ملكًا تجب له الطاعة على رعاياه ،

وكانوا من أجل هذا يسمون أمراءهم رؤساء كهان ولا يسمحون لهم بلقب الملك وشاراته ومراسمه ، فإكراه القبائل على قبول سلطان «يهوا» إنما كان عندهم بمثابة الخضوع السياسى الذى يلزم الأجانب والغرباء كما يلزم أبناء الأمة وأهل السلالة .

والبرهمية ظلت ديانة قومية عنصرية حتى خرجت منها النحلة البوذية ، فنجحت فى تحويل الوثنيين إليها فى الصين واليابان ، ولم تحول إليها قط أمة ذات كتاب .

والمسيحية حولت إليها الرومان وغيرهم من الغربيين أو الشرقيين ، ولكنهم كانوا جميعًا من الوثنيين الذين وقفوا عند خطوات الدين الأولى ، ولم يجاوزوها إلى عقائد أهل الكتاب .

أما الإسلام فقد حول إليه على خلاف ذلك أعرق الأمم فى الحضارة وفى الإيمان بالعقيدة الكتابية ، فأسلمت فارس وأسلمت مصر ، وهما على التحقيق أعرق أمم العالم يومئذ فى تاريخ الحضارة ، وأولاهما كانت تؤمن بالله واليوم الآخر والحساب والعقاب وغلبة الخير على الشر وخلود الروح ، وثانيتهما كانت تدين بالمسيحية وتحمل لواءها فى العالم القديم .

هذه المزية ينفرد بها الإسلام بين جميع الديانات ، وهى آية العالمية والصلاح لدعوة الأمم جمعاء ، سواء منها الأمم المعرقة فى الحضارة والدين أو الأمم التى لم تبلغ بعد مبلغ الارتقاء فى التحضر والاعتقاد .

إن هذه الحقيقة خليقة أن تذكر على الخصوص فى عصرنا الحديث ، لأننا سمعنا فيه أناسًا من المبشرين يعترفون بغلبة الدعوة الإسلامية فى أواسط القارة الأفريقية ويسلمون أنها نجحت حيث لم ينجحوا ، وشاعت بغير تبشير حيث يخفقون بعد التبشير سنوات ، ولكنهم يعتذرون لأنفسهم بعذر يقبلونه ولا يقبله الواقع : وهو موافقة الإسلام للقبائل المتأخرة بطبيعته وأنه قريب المأخذ عند «البدائيين» من سلالات القارة السوداء! . وليس أصلح لتفنيد هذا العذر من تلك الحقائق التى أثبتها التاريخ ، أو من تلك المزية التى انفرد بها الإسلام بين الأديان ، فدخلت فى دعوته أعرق الأمم حضارة بعد خلاصها من الوثنية الأولى عدة قرون ، ولم يحصل ذلك قط فى تاريخ دين .

وتزداد هذه الحقائق ثبوتًا ووضوحًا كلما رجعنا إلى تاريخ الدعوة الإسلامية بين البلاد الأسيوية ، فإنها لم تعتمد على القتال ولم تعتمد على التبشير بقدر اعتمادها على القدوة الحسنة والأمثلة العملية ، فلا تذكر الوقائع الحربية إلى جانب العدد الذى دان بالإسلام من أهل الهند والصين والملايا ، وعدتهم نحو مائتى مليون ، وكل ما يرويه التاريخ عن القتال بين المسلمين وغيرهم فى تلك الأرجاء فإنما حدث بعد أن أصبح المسلمون معدودين بالملايين ، وإنما هو فى جميع الأحوال قتال سياسة وليس بقتال إكراه على الدين .

إن الوقائع العملية هى الشهادة للإسلام بالصبغة الإنسانية العالمية ، ولا حاجة بالدين إلى شهادة أخرى متى ثبت له من تاريخه الأول أنه يضم إليه شعوبًا من جميع السلالات والعقائد ، ومن جميع الأطوار فى الحضارة والمعيشة البدائية ، وأن كتابه يخاطب الناس كافة ، ويوجه الرسالة إلى كل سامع .

هذه الخاصة الإنسانية باقية فى صميم الإسلام يواجه بها الحضارة العصرية كما واجه بها حضارات العصور الأولى ، وهى التى صبغت تلك الحضارات بالصبغة الإسلامية ، وهى التى جعلت تاريخ العالم من القرن السادس للميلاد إلى القرن الخامس عشر تاريخ الفكر الإسلامى والآداب الإسلامية ، ولم ينفصل التاريخان بعد ذلك ؛ لأن الإسلام فقد «خاصته» التى لازمته عدة قرون ، ولكنهما انفصلا لأن المسلمين تخلفوا عن الركب ، وأصبحوا «غير مسلمين» إلا باللقب والعنوان .

يقول المؤرخ «توينبى» : إن المسلمين يواجهون حضارة العصر بنزعتين متناقضتين : إحداهما يسميها النزعة الهيرودية وينسبها إلى هيرود ملك اليهود الذى قابل حضارة الرومان بمشابهة الرومان فى السكن والملبس والمعيشة ، والأخرى نزعة الغلاة وينسبها إلى نساك إسرائيل الذين كانوا يصرون على القديم وينكرون كل مخالفة للعادات والموروثات .

ولو أراد الأستاذ «توينبى» أن يتوسع فى الأمثلة لعمم القول على الطبيعة الإنسانية فى مواجهة كل حديث ومقابلة كل تغيير .

فالهوادة والتشدد طبيعتان فى النفس البشرية تبرزان فى كل عصر وتتقابلان أو تتناقضان أمام كل دعوة ، وقد ظهرت هاتان الطبيعتان فى طوائف المسلمين منذ

الصدر الأول للإسلام ، فكان منهم أبو ذر الغفارى المتقشف المتنسك كما كان منهم الصحابة الذين أقبلوا على معيشة الحضر واليسار ، وقال المسعودى عن بعضهم : «إن الثمن الواحد من متروك الزبير بلغ بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وأنه خلف ألف فرس وألف أمة ، وأن غلة طلحة من العراق بلغت ألف دينار كل يوم ، وأن عبد الرحمن بن عوف كان على مربط ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وأن منهم من بنى دورًا بالحجاز والشام والإسكندرية» . إلى آخر ما روى من أخبار تغلب فيها المبالغة على التقدير الصحيح .

ونحن فى العصر الحاضر نعرف الرخصة والهوادة كما نعرف الشدة والصرامة ، ونواجه الحضارة الأوروبية بالنزعتين معًا أو نتوسط بينهما تارة مع المحافظة وتارة مع التجديد ، ومن لم يتوسط منا تشبث بالمحافظة حتى الجمود أو اندفع مع التجديد حتى أصبح كالمنبت عن الطريق ، وأحسب هذه النزعات جميعًا كانت على اختلافها الذى نشهده اليوم فى تاريخ كل دعوة ومواجهة كل تغيير ، فهى طبيعة الناس لاتتبدل ولاتختلف مع الأزمنة بغير الصور والأشكال ، وحسبنا أن نرى فى الإسلام متسعًا لها مع الحضارة العصرية كما اتسع لها مع الحضارات الأولى ، فإنما يغنى المسلمين من الإسلام أن يظل كما كان عقيدة إنسانية عامة ، وأن يكون الإنسان مسلمًا حقًا حين يتشدد ومسلمًا حقًا حين يترخص ، فلا يقطعه الإسلام عن زمنه ولا عن مزية من مزايا حضارته ومعارفه وصناعاته ، ولا يكون المسلم الحق غريبًا مع حضارة الغرب الحديث وهو لم يكن غريبًا مع حضارة الفراعنة والفرس والروم .

لقد كان الإسلام عقيدة «إنسانية» ودعوة عالمية يوم تقطعت الأسباب بين الأمم وتمزقت الأنساب بين بنى آدم وحواء ، فاليوم والدعوة الإنسانية على كل لسان خليق بالإسلام أن يجعلها فى كل قلب وأن ينفذ بها إلى كل ضمير .

❋ ❋ ❋

فهرس الكتاب



نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع